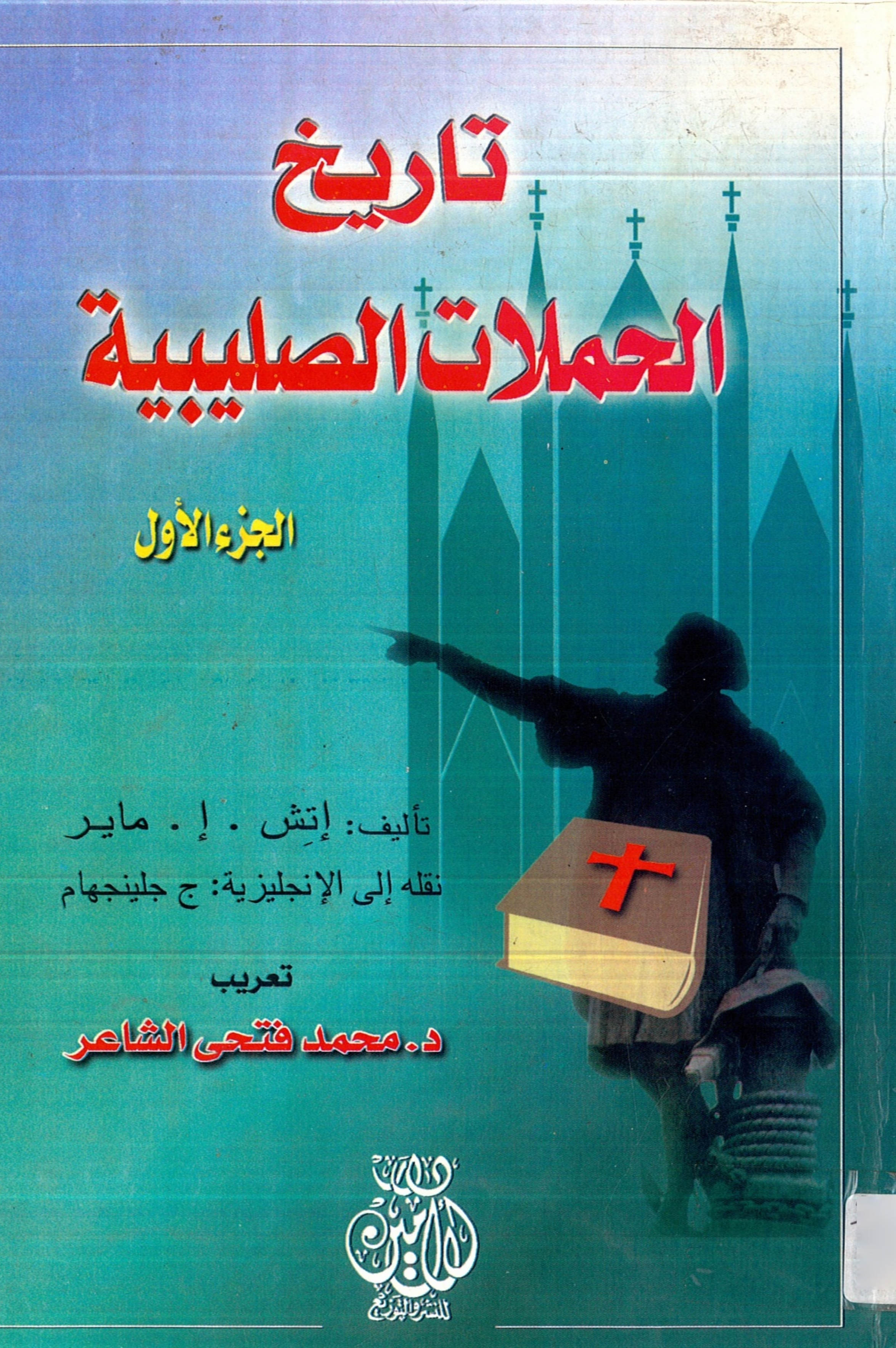


تاريخ
الحملات الصليبية
الجزء الأول
تأليف: إتِش . إ . ماير
نقله إلى الإنجليزية: ج جلينجهام
تعريب
د. محمد فتحى الشاعر

تاريخ الحملات الصليبية

اسم الكتاب : تاريخ الحملات الصليبية

تأليف : إتش . إ . ماير

ترجمة : دكتور / محمد فتحى الشاعر

الطبعة : الأولى ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٠٦٢ / ٩٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-279-248-6

نشر وتوزيع : دار الأمين

القاهرة : ١٣ شارع البركة الناصرية (من شارع نوبار) السيدة زينب - لاظوغلي - ت /ف ٣٥٥٤٢٧٦ ف ٣٩٠٠١٣٠

الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم ت ٥٦٣٤٦٩٩ ص.ب ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

تاريخ الحملات الصليبية

تأليف : إتش. إ. ماير

نقله إلى الإنجليزية : ج . جيلنجهام

تعريب

دكتور / محمد فتحى الشاعر

كلية الآداب – جامعة المنوفية

الجزء الأول



✍ هذه هى الترجمة العربية لكتاب

The Crusades

By

Hans Eberhard Mayer

Translated By

John GILLINGHAM

Oxford University Press
1972.

(Oxford , 1972.)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المُعَرِّبْ

بفضل الله سبحانه وتعالى قمت بتعريب كتاب " الحملات الصليبية " عن الترجمة الإنجليزية للنسخة الأصلية التى كتبت باللغة الألمانية .

ومؤلف الكتاب هو :

Hans Eberhard Mayer

واسم الكتاب :

Geschichte der Kreuzzûge
(Stuttgard , 1965.)

وقام بترجمته إلى الإنجليزية :

John Gillingham

(Oxford , 1972 .)

والواقع أن الدافع إلى تعريب هذا الكتاب ، الأمل فى أن ينفع طلبة الجامعة ، والمهتمين بدراسة تاريخ الحملات الصليبية ، والقارئ المثقف .

والله ولى التوفيق ،،

بورسعيد فى ٢ شوال ١٤١٩هـ
٢٠ يناير ١٩٩٩ م

(ت بورسعيد : ٠٦٦٢٢٢٥٠٦)
(ت شبين الكوم : ٠٤٨٢٣٣٩٩٣)

د. محمد فتحى الشاعر

كلية الآداب – جامعة المنوفية

١ - إقليم البحر المتوسط فى ١٠٩٥ م

إن السمات الجغرافية للعالم كما صورها الكُتّاب فى أواخر القرن الحـــادى عشــر تختلف تماماً عن المفاهيم التى تكونت فى العصور القديمة . ومن المهم الانتباه إلى ذلــك قبل إلقاء نظرة على تاريخ الحروب الصليبية عن قرب ، لأنــه عنــد انتهــاء الحــروب الصليبية ، حدث تغير على ذلك ، بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة. وعلى الرغم من أن مذهب بطليموس السكندرى * ، تم قبوله على وجه التعميم فى أوائل العصور الوسطى ، فإن نظريته عن الشكل الكروى للأرض - قد تم نسيانها تماما تقريبا بناء على النفــوذ الكبير لصاحب الثقافة والمعرفة الموسوعية إيسيدور من سيفيل Isidore of Seville . بيد أنه عند نهاية عصر الحروب الصليبية كان التعرف المتزايد على كتابات بطليمــوس قــد أعطى دفعة جديدة من النشاط والحيوية لتلك النظرية. وقبل كل شىء ، فقد تم معرفة قدر هائل من المعلومات عن العــالم المسكون الذى يمتد شــرق أوربا . وتلك كانت معرفــة جديدة وفقاً لما قدمه الرحالة من أوصاف ، ولم تكن مجرد حركــة إحيــاء للمعرفــة التقليدية . وبالمقــارنة ففى الفترة مابين العصر الذى كانت فيه الإمبراطورية الرومانيــة فى أوج قوتها وعظمتها ثابته ومستمرة نسبياً ، بالرغم من بعض التغيرات قــد طــرأت نتيجة لانتشار المسيحية فى ألمانيا ، وفى اسكندنافيا ، وفى بعض مناطق الإمبراطوريــة البيزنطية .

ومع ذلك فإن مركز الثقل فى عالم ١٠٩٥ م ظل يقع فى مناطق البحــر المتوسط ، وذلك وفقاً لوجهة النظر الأوربية . ففى تلك المنطقة عاش البابوات ، وفيها القســطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وروما عاصمة الإمبراطورية الغربية . وفــى الحقيقة وضع ملوك ألمانيا التــاج الإمبراطورى على رءوسهم (على الأصح كان ملكــا للرومان ، وفقاً للقب المعاصر)، غير أنهم تسلموا ذلك التاج من يد البابا فقط فى رومــا. وبالإضافة إلى ذلك، كان البحر المتوسط الخط الفاصل الكبير بين الدينين العالميين ، الدين الإسلامى ، والدين المسيحى .

★هو عالم الفلك والجغرافيا الذى سطع نجمه فى الاسكندرية ١٢٧- ٥١ ق . م .

ويمكن القول صراحة بأن الساحل الجنوبى كان إسلامياً ؛ والساحل الشمالى كان مسيحياً . وفى الأماكن التى تقدم فيها المسلمون شمال هذا الحاجز المائى تم بالفعل إجبارهم على الانسحاب كما حدث فى فرنسا (حوالى ٩٧٣ م) ، وصقلية (سنة ١٠٩١ م) ، أو أنهم كانوا فى طريقهم إلى الإنسحاب منها .

ولا بد من توقع بأن تتضافر أوربا مثلما حدث لحشد قواها من أجل شن هجوم معاكس قوى على المسلمين الذين أحدثت فتوحاتهم كثيراً من الآلام الموجعة منذ القرن الثامن وحتى العاشر للميلاد .وبرغم أن أوربا قد نجحت فى التخلص من النتائج المباشرة لتلك الفتوحات الإسلامية ، ومن غزوات الفايكنج ، والمجر ، وللمرة الثانية كانت فى حالة صعود ، فإنها لم تكن تصل البتة إلى حالة التماسك فى البناء السياسى، مثلما كان الحال على عهد الامبراطورية الكارولنجية . والواقع أن أوربا كانت غارقة فى صراعات شرسة وبغيضة جداً قبيل بدء الحروب الصليبية . وأثناء الخلاف حول تعيين العلمانيين لرجال الدين حاولت البابوية طوال القرن الحادى عشر الميلادى التخلص من تحكم السلطة العلمانية ، بعد أن انصلحت أحوالها، وشعرت بقوتها. وكان الرمز الواضح لتلك السلطة يتمثل فى العادة الملكية الخاصة بتعيين الأساقفة، ورؤساء الأديرة فى مناصبهم ، وذلك بمنح كل منهم خاتما وصولجانا. واستطاع الملك المطالبة بحقوق السيادة عليهم بمقتضى قانون الملكية الكنسية . وفى كل الأحوال كان الإمبراطور هو أهم خصم للبابا فى هذا الخلاف . وقطع هنرى الرابع (١٠٥٦-١١٥٥) علاقته مع البابا كلية ، واعترف ببابا زائف ، جيوبرت من رافينا Guibert of Ravenna ، الذى حمل اسم كلمنت الثالث Clement III (١٠٨٠ - ١١٠٠ م) . إن ذروة الخلاف حول تعيين العلمانيين لرجال الدين - كفارة هنرى الرابع فى كانوسا Canossa (١٠٧٧م) ثم انهيار وضع خصمه البابوى ، جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م)- كانت قد انتهت ، وكان ذلك صحيحاً ، ومع ذلك ظل الإمبراطور محروماً كنسياً . على أية حال ، عندما عقد البابا العزم على شن حملة صليبية ، أسقط الإمبراطور من حسابه .

ولم يكن فى استطاعته الاعتماد على ملوك فرنسا و إنجلترا . فقد أصدر البابا قراراً بالحرمان الكنسى للملك الفرنسى فيليب الأول (١٠٦٠-١١٠٨ م) ، لأنه طرد زوجته

بيرثا Bertha . وظل وليم روفوس William Rufus ملك إنجلترا (١٠٨٧-١١٠٠ م) ابن وليم الفاتح ، مشغولاً بتدعيم السلطة النورماندية فى إنجلترا ومساندتها . وعلى أية حال ، فقد كانت سياساته ضد تزايد النفوذ الكنسى ، فى العادة إلى حد بعيد. وكان شمال إيطاليا منهمكاً رغم أنه فى الصراع الإمبراطورى البابوى : أما جنوب إيطاليا ، فقد استطاع النورمان السيطرة عليه فى نهاية المطاف، وفى تلك الفترة ، طردوا البيزنطيين والمسلمين. وفى شبه الجزيرة الإيبيرية كان ملوك نافار Navarre ، وأرجون Aragon ، والبرتغال مشغولين جميعاً فى طرد المسلمين ، برغم أن عملية الطرد لم تكلل بالنجاح التام إلاّ سنة ١٤٩٢ م .

ومنذ ١٠٥٤ م ، لم تكن الكنيسة قد توحدت بعد . ومن الناحية النظرية ، ظل الانشقاق الكنسى قائما حتى اليوم؛ والذى كان نتيجة لتحريف العقيدة فى الغرب الأوربى هذا من ناحية ، وهو مالم تكن الكنيسة الشرقية مستعدة لقبوله ، ومن الناحية الثانية ، المسألة المتعلقة بممارسة الطقوس الدينية بخصوص تناول خبز القربان ، مضافاً إليه خميرة أو بدون خميرة ، وذلك عند تناول العشاء الربانى . غير أنه مثلما كانت الإختلافات المتزايدة فى علم اللاهوت ، والشعائر الدينية ، مهمة كانت كذلك الأمور السياسية – فسياسة الكنيسة مثل مسألة السيادة والأحقية لروما ، والسياسة العلمانية ، مثل التنافس بين الإمبراطوريتين الرومانيتين فى كل من الشرق والغرب . فالخلافات الثقافية بين الذين يتحدثون اللغة اليونانية فى الشرق ، والذين يتحدثون اللغة اللاتينية ، فى الغرب، كانت كبيرة إلى حد إعاقة وحدة للعالم المسيحى لفترة طويلة .

غير أن كل العلاقات لم تتوقف بين الشرق والغرب منذ سنة ١٠٥٤ م . (١) فعلى العكس ، فقد وجدت الرغبة فى توحيد الكنائس ضمن سياسة البابوية على امتداد العصور الوسطى ، وكان لها تأثير على تاريخ الحروب الصليبية مراراً وتكراراً . وفى روما كان هناك إقرار لايخامره أدنى شك بأن الانشقاق الكنسى لم يعف الغرب من المسئولية ، تجاه إخوانهم المسيحيين فى الشرق. بل إن البابا جريجورى السابع ، كان قد رغب فى تنظيم حملة حربية ، قبل الحروب الصليبية ، وذلك سنة ١٠٧٤ م ، لمساعدة الإمبراطورية الشرقية ضد الغزاة السلاجقة – على الرغم من احتمال أنه كان يأمل من

ذلك ، جنى مكاسب شخصية . ثم قام جريجورى السابع بتغيير سياسته كلية سنة ١٠٧٨م، عندما لم يتم زواج روبرت جوسكارد Robert Guiscard ، حاكم جنوب إيطاليا النورمانى ، من أميرة بيزنطية ، وهو الزواج الذى كان البابا قد حرص على إتمامه ، وقامت ثورة فى القصر ، فى القسطنطينية ، لعدم إتمام هذا الزواج . فقام البابا جريجورى السابع بإصدار قرار حرمان كنسى ، ضد الإمبراطور الجديد ، وكذلك الإمبراطور الذى جاء بعده – وهو الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨ م) ، الذى حصل على العرش الإمبراطورى نتيجة لثورة فى القصر أيضاً . وبعد ذلك بعشر سنوات ، أى فى السنة التى اعتلى فيها الكسيوس كومنين العرش ، تحرك النورمان لمهاجمة الإمبراطورية ذاتها فى إقليم إبيروس Epirus . وتمكن الكسيوس من التصدى للنورمان ، بفضل المساعدة التى تلقاها من البندقية ، ثم اضطر روبرت جوسكارد Robert Guiscard للعودة إلى وطنه ، للقضاء على الاضطرابات فى جنوب إيطاليا ، حيث مات ١٠٨٥ م . وحقق أهالى البندقية ، مكاسب كبيرة ، ذلك لأنهم حصلوا على امتيازات تجارية ضخمة ، فى مقابل ماقدموه من مساعدة . إن تلك الامتيازات قوضت أركان النظام التجارى التقليدى فى بيزنطة ، وعملت على ترسيخ النفوذ السياسى الطويل المدى للبندقية ، فى بحر الادرياتيك the Adriatic ، وقدمت نقطة انطلاق توسع أكثر تجاه القسطنطينية ، وشرق البحر المتوسط ، ومنطقة الشرق الأوسط .

ومع ذلك، فقد ظهر المسلمون على أنهم يمثلون تهديداً ، أشد خطورة ، من النورمان بالنسبة لبيزنطة . فبعد وفاة محمد – صلى الله عليه وسلم – أصبح واضحاً ، أن الدين الجديد { الإسلام } ، كان يمتلك قوة دفع سياسية هائلة . والواقع أن العرب سيطرت عليهم فكرة الجهاد قلباً وقالبا ، والحرب المقدسة ، لذلك شقوا طريقهم شرقاً وغرباً، واتسع نفوذهم توسعاً على نحو مثير جداً .(وإذ كانت الحرب المسيحية المقدسة ، عملية دفاعية ، من الناحية النظرية ، إذا لم تكن دائما من الناحية العلمية ، فإن الجهاد*، كان منذ البداية حرب عدوان تماماً) ففى النصف الثانى من القرن السابع ، فتح العرب كل شمال أفريقيا . وفى سنة ٧١١م عبر طارق ، فى العصر الأموى ، مضيق جبل طارق ،

★ الجهاد فى سبيل الله : هو الدفاع عن المؤمنين ولذلك أختلف مع المؤلف فيما كتب .(الشاعر) .

وقضى على مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا . ولم يتم كبح جماح السيل العربى العـــرم قبـــل سنة ٧٣٢م ، عندما انتصر عليهم شارل مارتل الكارولنجى ، فى موقعـــة بواتيـــه Poitiers . بيد أن الفتح العربى لم يكن قاصراً على هذا الجزء من أوربا . ففى الشـــرق مارس العرب تهديداً خطيراً لبيزنطة . وفى الغرب ، اجتاحوا صقلية فى القرن التاســـع ، ورسخوا أقدامهم ، فى جنوب إيطاليا ، حيث هزموا الإمبراطور أوتو الثانى Otto II سنة ٩٨٢ م . وقام العرب بمحاولات لفتح جنوب فرنسا وسويسرا ، مستخدمين قواعد علـــى شاطئ إقليم بروفانس Provence . وسيطر العرب على الممــــرات الألبيـــة ، وأســـروا ماجولوس Majolus ، الرئيس العالمى المبجل لدير كلونى Cluny سنة ٩٧٢ م . وكـــان هـــذا الهجوم المشهور بداية نقطة تحول . إذ قام الفرنسيون بهجمـــات مضـــادة نشـــطة تدريجياً ، إلى أن تمكنوا من إخراج العـــرب من فرنسا ، وأخرج النورمان العرب مـــن إيطاليا وصقلية . ومع ذلك رسخت أقدام العرب فى أســـبانيا إلـــى أن نجحـــت حركـــة الاسترداد Reconuista ، التى استمرت حتى نهاية العصور الوسطى .

انقسم العالم الإسلامى إلى مذهبى السنة والشيعة . ويجب تتبع نشـــأة هذا الانشقاق، وتطوره بتفصيل أكثر قدر المستطاع نظراً لأنه كان له تأثير كبير، على التاريخ الإسلامى فى فترة الحروب الصليبية . (٢) إن بدء قصة هذا الانشقاق ترجع إلى الأحوال عند موت محمد – صلى الله عليه وسلم – ، حيث نادى جماعة بتولى أبى بكر { الصديق رضـــى الله عنه} ، الخلافة . واعتقدت جماعة أخرى بأحقية على { بن أبى طالب كـــرّم اللـــه وجهه } – لأنه ابن عم محمد – صلى الله عليه وسلم– ، وزوج ابنته{ فاطمة الزهراء}. وأن هذه الأحقية استناداً إلى القرابة والنسب *. وفى الواقع لم يصبح على { كـــرّم اللـــه وجهه } الخليفة الرابع **. وقدعرف أنصار على { كرّم الله وجهه } بالشيعة (أى أتباع على) ، وأنهم لايعترفون ســـوى بذرية على كخلفـــاء . أما الفرق الأخرى ، فقد عرفوا

* من الواضح أن المؤلف غير ملم إلماما كافياً بمسألة خلافة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه)، كما أنه خلط بين إدعاءات الشيعة ، وهو مذهب لم يظهر على الإطلاق فى عهد أبى بكر الصديق (رضى اللـــه عنه) (الشاعر) .

** ربما يقصد المؤلف أن الأمر لم يستتب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه مثلما حدث للخلفـــاء الثلاثـــة الذين سبقوه . (الشاعر) .

بأصحاب المذهب السنى ، لأنهم اعتقدوا بأنهم ظلوا متمسكين بمـا سـار عليـه السـلف {الصالح } .ودان الخلفاء العباسيون فى بغـداد بالمذهب السنى ، إذ كان عليهم التمسـك بالسنة النبوية ، لكى يعوضوا عن استيلائهم على السلطة فجأة ، والقضـاء على الخـلافة الأموية الشـرعية فى دمشق .

وعلى الجانب الآخر ، كان من المحتم أن ينقسم الشيعة إلى أكثر من طائفة لأن علياً { كرم الله وجهه } ، كان متزوجا من أكثر من واحدة . ووافق الشيعة علـى أن سـلالة الأئمة (خلفاء على) ، سوف يتوقفون فى وقت ما ، لأن الإمام الأخير ، سوف يعمل فـى الخفـاء ، لكى يظهر فى المرّة الثانية ، على أنه المهدى ، أى المنفذ الذى سـوف يقيم العدل فى العالم ، ويحول كل البشر إلى المذهب الشيعى . بيد أنهم لم يتوقفوا على من من الأئمة كان الأخير . واعتماداً على عدد الأئمة ، فقد اعترفوا بأن الفرق الشيعية المختلفـة هى ، الخمسية ، والسبعية ، والإثنى عشرية . وشكلت الفرقة الأخيرة الجنـاح المعتـدل للشيعة ، فى حين أن السبعية ، الذين اعتبروا إسماعيل هو الإمام السـابع ، وعلـى أنـه المهدى – ومن ثم أطلق عليهم الإسماعيلية – كونوا الجماعة المتطرفة . وبفضل تعاليمهم تجاه الثورة الاجتماعية ، وعلاقاتهم الوثيقة بالنقابات المهنية الإسلامية ، كـانوا قـادرين على زيادة أعدادهم ، وفى سنة ٩٠٩ م ، أقاموا الخلافـة الفاطمية فـى شـمال أفريقيـا (وبعد سنة ٩٧٣ م فى القاهرة) ، كمنافسة للعباسيين فى بغداد .

وفى ذلك الحين كان الخليفة الفاطمى ينظر إليه على أنه المهدى . وسرعان ماأصبح الخليفة الفاطمى خاضعاً للجيش ، والجهاز الحكومى ، كما كان حال الخليفة الذى ينافسـه فى بغداد تماما . وما أن قام الأفضل الوزير المصرى باختيار الابن الأصغر المسـتعلى كخليفة جديد سنة ١٠٩٤ م ، لأنه كان لين العريكة ، ومن ثم أهمل نيزار الابن الأكـبر ، حتى فقد الفاطميون تأييد الطائفة الإسماعيلية . وفى نطاق الحركة الإسـماعيلية ، انتقـل مركز الثقل إلى جناحه المتطرف ، وهم النيزاريون ، وهو الفرع الفارسى ، والذى أصبح مشهوراً باسم الحشاشين. والاسم تم اشتقاقه من كلمة لاتينية محرفة عن الحشيش ، وهـو المخدر الذى قيل أن الإسماعيلية، اعتادوا تعاطيه . وقاموا بتنظيم أنفسهم بإحكام شـديد ، تحت نوع من التعاطف المطلق فى الوجدان والمشاعر ، ورفعوا القتل العمد ، إلى مستوى

الواجب الديني ، بالإضافة إلى اعتباره سلاحاً سياسياً . وفي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، استقر بعضهم في شمال سوريا . ونظراً لتعرضهم للاضطهاد على أيدي السنيين ، فقد أصبحوا مصدراً لعدم الأمن ، والذعر ، لكل من السنيين ، والنصارى على حد سواء . وقدم الشعراء الغنائيون والشعراء الموسيقيون الذى اشتهروا فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا من القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر troubadours ، تعبيراً بليغاً ، عن المخاوف التى عانى منها النصارى . وحرص الحشاشون، على منع إقامة جبهة سنية موحدة ، حتى لا توجه ضدهم ، مثلما قدر لها أن توجه ضد الإمارات الصليبية ، التى قامت كنتيجة للحملة الصليبية الأولى . وبهذه الطريقة قدم الحشاشون مساعدة غير مباشرة للإمارات الصليبية .

إن العالم الإسلامى الذى كان ذات مّرة تحت حكم العرب ، قد أخذ طابعاً سياسياً جديداً ، نتيجة لقدوم الأتراك من أواسط آسيا (٣). ولما كان الأتراك يؤمنون، فى الأصل، بوجود عالم آخر محجوب ، به الآلهة والشياطين ، وأرواح السلف ، فإنهم أصبحوا سنيين ، إبان القرن العاشر الميلادى . وحافظ الأتراك على الإسلام إلى حد ما ، لأنهم أضفوا عليه الروح القتالية ، فى الوقت الذى بدأ الهجوم السياسى للعرب ، يخبوا تدريجياً. وكان الأتراك السلاجقة على درجة من الأهمية بصفة خاصة . ونجحت القبائل التركية فى إقامة إمبراطورية ضخمة، امتدت من خراسان وبلاد الفرس ، إلى بلاد القوقاز ، ومن بلاد ما بين النهرين إلى سوريا ، وفلسطين ، وحتى بلاد الحجاز مهد الإسلام . إن الخلفاء السنيين ، كانوا بعيدين عن السيادة العليا الشيعية فى بلاد الفرس ، وكانوا أدوات، فى أيدى السلاطين السلاجقة . فالسلطان ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٣ م) ، ظل يزحف غرباً، وفى سنة ١٠٧١م هزم الجيش البيزنطى ، فى موقعة مانزكرت ، فى شرق الأناضول . ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً ، هاجر الأتراك إلى الأناضول ، تدريجياً تقريبا وببطء ، غير أنهم ولا ريب ، قوضوا النظام الإدارى الإقليمى البيزنطى . وشهد عهد السلطان ملك شاه (١٠٧٧ - ١٠٩٢ م) ، طرد البيزنطيين من المنطقة التى كان بها مصدر قوتهم الحقيقية . وترك هذا الموقف الكنيسة اليونانية فى الأناضول فى موقف صعب ، وفى الوقت نفسه، كان ذلك الموقف ، بمثابة إضافة، إلى المشاكل التى واجهت

الحجاج النصارى ، عبر الطريق البرى إلى الأرض المقدسة ، على الرغم بأن ذلك لم يكن أكثر مما توقعه العلماء ذات مرّة . بيد أن فقدان بيزنطة لإقليم الأناضول ظل بمثابة كارثة .

والواقع لا يمكن إثبات أن الأتراك اضطهدوا النصارى فى الشرق، كما أكدت على ذلك المصادر الغربية ، بما فيها الخطاب الذى نسب إلى البابا أوربان الثانى فى كليرمون . ففى الأقاليم التابعة للأتراك لقى النصارى من أهل تلك الأقاليم نفس المعاملة التى عاملهم بها المسلمون من قبل – كرعايا سكانية يمثلون أقلية تدفع الجزية ، وتنعم بالحماية وفقاً للشرعية الإسلامية ، وبحرية العبادة . وماحدث للأقلية النصرانية إبان الحرب كان نتيجة حتمية لتلك الحرب . وبصفة خاصة الكنائس التى لم تكن تابعة للكنيسة البيزنطية فى الشرق ، مثل طائفة اليعاقبة، والنساطرة ، الذين لايتحدثون اللغة اليونانية ، والذين تعرضوا لاضطهاد الكنيسة الأرثوذكية اليونانية ، بسبب تعاليمهم تجاه المونوفيزيتية ، والهرطقات الأخرى ، لم يكن لديهم ما يدعون للأسف على هذا التغير فى السيادة على الإطلاق. وباستثناء الاضطهاد فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (١٠٠٩م) ، ليس هناك دليل ، على حدوث مذبحة منظمة ، ضد النصارى ، فى القرن الحادى عشر. على أن الاضطهاد الذى أطلق له العنان ، فى بيت المقدس سنة ١٠٧٨ م ، على يدى أطز التركمانى ، كان بلا ريب موجها للفاطميين بصفة خاصة، وربما استثنى النصارى من ذلك الاضطهاد . ومن المهم أن النصارى الشرقيين لم يتصلوا بالغرب ، من أجل طلب المساعدة . وعندما أكد أوربان الثانى ، والدعاة للحرب الصليبية على إضطهاد النصارى الشرقيين ، كان ذلك إما أنهم لم يكونوا على معرفة بالوضع الحقيقى، أو أنهم أرادوا إثارة شعور غامض من الاستياء فى أوربا .

وفى أوربا ، كان على الإمبراطور البيزنطى أن يواجه مشكلة أيضاً . ذلك أن إحدى القبائل التركية الأصل ، وتدعى قبيلة بيتشنج ، استقرت فى ذلك الحين ، فى وادى نهر الدانوب ، وتحالفت مع سلاجقة آسيا الصغرى ، وهاجمت بيزنطة من جهتين ، فيما بين ١٠٩١ – ١٠٩٢م . غير أنه فى أبريل ١٠٩١ م ، نهض الإمبراطور إلكسيوس بفعالية مميزة ، وهزم قبيلة البيتشنج التركية ، هزيمة ساحقة ، حتى أنهم اختفوا إلى غير رجعة من صفحة التاريخ . ومع ذلك ، ففى آسيا الصغرى كان السلاجقة قد رسخوا أقدامهم ،

بكل ثبات ، إلى الحد الذى ، لم يمكن إلكسيوس من أن يتعامل معهم ، بنفس الفعالية ، التى تعامل بها مع قبيلة البتشنج فى وادى الدانوب . وكان على إلكسيوس أن يقنع بالتوصل إلى تفاهم سنة ١٠٩٢ م مع السلطان قلج أرسلان (١٠٩٢- ١١٠٧م) . وعندما تفسخت إمبراطورية السلاجقة الكبرى ، عند موت ملك شاه سنة ١٠٩٢ م ، كان نصيب قلج أرسلان ، من هذا الميراث ، جزء من الأناضول ، حيث ظهرت سلطة سلاجقة الروم تدريجياً . وقد أعطت معاهدة ١٠٩٢ م إلى إلكسيوس ، فترة استراحة ، من هجمات السلاجقة ، وسمحت للسلطان بأن يدعم مركزه ، فى آسيا الصغرى .

أما فى سوريا ، فمع أن موت ملك شاه ، أدى إلى حالة تدهور خطيرة ، لمدة زادت على عشر سنوات ، فإنه بنهاية تلك المدة ، ظهر نظام إمارات سلجوقية ، مع بعضها البعض ، كان ينشأ عنه بالضرورة ، إعادة تنظيم هذا النظام كلية من جديد . ويفسّر هذا التغير المستمر ، فى نموذج التحالف السورى المعقد فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . وأصبحت الإمارات الصليبية التى نشأت فى ذلك الحين ، نماذج ممتازة على المسرح السياسى .

وفى ذلك الحين جرت تغيرات فى الغرب الأوربى . وكان البابا جريجورى السابع Gregory VII قد مات سنة ١٠٨٥م ، وبعد مرور فترة البابوية القصيرة التى قضاها البابا فيكتور الثالث Victor III ، تولى أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) البابوية . وحاول أوربان الثانى إصلاح العلاقات مع بيزنطة ، لأنه كان رجلاً دبلوماسياً أكثر مرونة من جريجورى السابع . (٤) وفى ١٠٨٩ م ، أرسل البابا أوربان الثانى ، وفداً بابوياً ، لتسوية الخلافات مع إلكسيوس، وأسقط عنه عقوبة الحرمان الكنسى. وكان إلكسيوس إسترضائى أيضاً ، وكهذا قامت علاقات ودية ، بين إلكسيوس والبابا أوربان الثانى ، عن طريق عدم التأكيد على الخلافات اللاهوتية . وكان إلكسيوس على إستعداد بأن يستأنف العادة القديمة الخاصة بإدراج إسم البابا ، فى قائمة البطارقة (فى الدبّتك diptychs)، إذا ما أرسل البابا أوربان الثانى بيانا مرضيا عن الإخلاص فى مدى فترة محددة من الزمن . غير أنه لم يتحقق شيئاً من ذلك القبيل لأن أوربان الثانى لم يكن مستعداً للقيام بذلك. وكان أوربان الثانى قانعاً تماماً بأن إلكسيوس سوف يوقف المفاوضات

مع الإمبراطور هنرى الرابع ، الذى كان قد سعى إلى تحقيقها من قبل بتحمس شديد ، وذلك بعد أن أمن هجمات النورمان ، وأصبح على علاقات ودية مع البابا .

واستطاع إلكسيوس من ناحيته فى ذلك الحين، أن يكثف جهوده ، نحو إعادة تنظيم الجيش البيزنطى، الذى كان قد اعتراه التدهور، منذ الهزيمة النكراء ، التى منى بها فى موقعة منزكرت . وكان استئجار جنود مرتزقة من غرب أوربا ، إحدى وسائل تنظيم ذلك الجيش البيزنطى . وكان ذلك أحد الأسباب التى جعلته يدخل فى مفاوضات مع البابا أوربان الثانى ، من أجل وحدة الكنيسة ، حتى يحقق أمله ، فى الحصول على هؤلاء الرجال . ولم يكن وجود جنود مرتزقة من غرب أوربا أمراً جديداً فى بيزنطة . وفى القرون الباكرة ، وشكل الجنود الأجانب حرس الإمبراطور البيزنطى ، وكانوا من أهالى إسكندناوا ، ومن الأنجلوا سكسون ، وغيرهم ، وعرفوا باسم " الحرس الاسكندنافى Varangian Guard " فى القسطنطينية .وعلى الرغم من الخصومة التقليدية بين النورمان والإغريق ، فغالباً ما كان هناك جماعات محاربة من الجنود النورمان فى صفوف الجيش البيزنطى، والذين كانت روحهم القتالية عالية، ويخافهم الأعداء . بل وبرغم تمتع بيزنطة بفترة راحة من الحروب بعد سنة ١٠٩٢ م ، فإن هذا لم يعن أن إلكسيوس استطاع تحمل الاستغناء عن الجند المرتزقة . ولذلك عندما قابل الكونت روبرت حاكم إقليم فلاندر Count Robert of Flanders ، فى زيارة حج للأراضى المقدسة ، طلب منه أن يساعده بإمداده ، بمثل تلك القوات . وعندما عقد أوربان الثانى مجمعاً فى بيسنزا Piacenza ، فى مارس١٠٩٥م ، فليس من المدهش أن أرسل الإمبراطور البيزنطى ، وفداً سياسياً لحضور ذلك المجمع ، للإعلان عن ترحيب الإمبراطور بقدوم جند مرتزقة . ومن الواضح أنهم بالغوا فى ذكر المخاطر التى تواجه الإمبراطورية ، ولذلك كون الحاضرون فكرة ، بأن الإجراءات العنيفة وحدها ، هى القادرة على حماية بيزنطة - وهى إجراءات من الممكن أن تؤدى إلى إعادة توحيد الكنائس ، تحت السيادة العليا للبابا فى روما . ونستمد معلوماتنا عن مجمع بيسنزا من حولية بيرنولد من كونستانس Bernald of Constance ، وهى مقبولة فى الوقت الحاضر بصفة عامة ، على أنها جديرة بالثقة ، برغم وجود كثير من الشكوك فى معلومتها فى وقت ما . ومنذ حوالى

عشرين عاما ، تم اكتشاف حولية بيزنطية ، كتبت فى القرن الثالث عشر الميلادى ، مالت إلى التأكيد على صدق رواية بيرنولد Bernold، مع أن تلك الحولية تمت كتابتها ، بعد ذلك الحدث التاريخى بكثير ، واتضح أن الحولية تضمنت مقتطفات ، من كتابات مؤرخين معاصرين ، موثوق فيهم . وتخبرنا الحولية أيضاً ، أنه عندما طلب إلكسيوس المساعدة الملحة والعاجلة ، فى بيسنزا Piacenza ، أكد بتعمد على فكرة مساعدة بيت المقدس ، لأنه توقع أن هذا سوف يجعل شعار الدعاية فعالاً فى أوربا . وبالطبع ، كان هدفه ، مختلفاً فى الحقيقة . إن أمل إلكسيوس كان إسترداد إقليم الأناضول ، وكانت الحرب الصليبية هى آخر شئ كان يفكر فيه . إن إلكسيوس كان يتوقع بعض جماعات الجند المرتزقة ، فى مجموعات صغيرة ، إلى الحد الذى يمكن فيه السيطرة عليها ، ولم يكن يتوقع جيوش ضخمة من الفرسان، وهى التى تحركت مع الحملة الصليبية الأولى . وقد تم استخدام كلمة بيت المقدس باعتبارها الكلمة الدليلية التى تفسر الدعوة للحرب الصليبية، وتلاحقت الحوادث التاريخية ، واتخذت مجراها. فبعد مضى حوالى ستة أشهر من طلب إلكسيوس للمساعدة فى مجمع بسنزا ، دعا البابا أوربان الثانى لحملة صليبية فى كليرمون .

٢- أصول الحملات الصليبية

افتتح البابا أوربان الثانى مجمع كليرمون فى الثامن عشر من نوفمبر ١٠٩٥م - ولقى ذلك قبولاً فى التاريخ كنقطة بداية للحروب الصليبية .(٥) ومنذ صيف ذلك العام ، كان البابا أوربان الثانى، يجوب أنحاء جنوب وجنوب شرق فرنسا ، وفى مدينة لى بوى Le Puy ، أصدر الدعوات لذلك المجمع ، فى الخامس عشر من أغسطس . وعلى الرغم من أن أوربان الثانى أجرى استعدادات دقيقة لمناقشة قضية حملة صليبية فى اجتماع كنسى ، ففى بداية الأمر لم يكن هناك شىء يعطى أى إشارة عن الحوادث التاريخية غير العادية التى قدر لها أن تحدث فيما بعد . وحضر الاجتماع الأساقفة الفرنسيون بصفة أساسية ، وعالج المسائل الكنسية الداخلية ، فى أغلب الأحوال التى كانت تخص رجال الإكليروس الفرنسيين بصفة خاصة ، وبحث قضايا إصلاحية عامة ، ومسألة تعيين العلمانيين لرجال الدين ، ومسألة بيع وشراء المناصب الدينية ، بالإضافة إلى إرتكاب ملك فرنسا جريمة الزنا . وتضمن جدول الأعمال أيضا " سلام الله " ونعنى بذلك تحريم القتال فى أيام معينة، وإعفاء بعض الشخصيات من الالتزامات والواجبات . إن حضور البابا كان يعنى أن حركة سلام الله ، التى كانت من قبل منظمة على أساس إقليمى تماما، صارت فى ذلك الحين ، تحظى باعتراف وإقرار البابوية ، وأن تطبيقها ، امتد ليشمل كل الكنيسة. ولم يعالج مسألة الحرب الصليبية سوى قرار واحد من قرارات المجمع. إن هذا القرار عالج مسألة الشروط التى تجعل الصليبى مؤهلاً ليحظى بالمكافآة الروحية .

إن اللحظة التى أعطت المجمع مكانته الخاصة فى التاريخ كانت فى نهاية السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م . ففى ذلك اليوم كان متوقعاً أن يلقى البابا أوربان الثانى خطابا مهما . وكانت أعداد رجال الدين والعلمانيين ، الذين تجمعوا للاستماع لخطاب البابا كثيرة جداً للحد الذى جعل اللقاء ، ينعقد فى قطعة أرض فضاء ، خارج مدينة كليرمون . ولدينا أربع روايات لخطاب البابا أوربان . ولا ريب أن الروايات الأربع ليست هى النص الأصلى لخطاب أوربان . فإن محتويات تلك الروايات الأربع تختلف

عن بعضها البعض إلى حد كبير . ومع ذلك فمن الممكن إعادة صياغة خطاب أوربان في موجز تقريبي برغم أن الكلمات الحقيقية من الطبيعي تعذر معالجتها . (٦) وقدم أوربان صورة وصفية قوية مفعمة بالحيوية ، بلغة فرنسية فصيحة ، عن الاضطهاد المفترض الذي تعرضت له الكنائس في الشرق . فقد استولى السلاجقة على آسيا الصغرى ، وانتهكوا حرمة الكنائس والأماكن المقدسة ودمروها. بل إنهم استولوا على مدينة أنطاكية، وهي مدينة القديس بطرس . وهنا فرصة أداء عمل جليل ، لفرسان العالم المسيحي ، الذي حددت أنشطتهم هدنة الله وسلامه. وفي كلمات مثيرة للمشاعر ، ناشد البابا الأغنياء، والفقراء ، لمساعدة إخوانهم النصارى ، في الشرق. وبهذه الطريقة ، من الممكن عودة السلام للعالم المسيحي، ووضع نهاية للحروب التي يقتل فيها الأخ أخاه في أوربا ، ووضع حد للظلم الذي يقع على الأرامل ، واليتامى ، والتهديدات التي تتعرض لها الكنائس ، والأديرة ، على يد طبقة النبلاء ، الذين مالوا للسلب والنهب . وفي الواقع ، حاول البابا شجب حالة الحرب الأهلية ، (وفقاً لنص رواية الراهب روبرت) ، وفسرها بحالة الفقر المنتشرة ، وسوء التغذية ، وهي أمور نتجت عن عدم كفاية المنتجات الزراعية التي تغلها التربة الزراعية .

إن نجاح الدعوة للحرب الصليبية لم يسبق له مثيل . فقد كانت الصيحة التي أطلقتها الجماهير التي استمعت لخطاب البابا هي " إن الله يريدها Deus Lo Volt " . كما أن الأسقف أدهيمار Adhemar ، وهو أسقف مدينة لي بولي Le Puy ، والذي كان بلا أدنى ريب ، يعلم أهداف البابا ، منذ بعض الوقت ، وكان أول من أعلن انضمامه للحملة الصليبية التي دعا إليها البابا . وتبع ذلك الأسقف كثير من الحاضرين . وتم تقطيع العباءات ، والأرواب ، والمعاطف ، على شكل صلبان ، وقام كل فرد من المستمعين للخطاب ، بتثبيت صليب على كتفه ، اقتداء بتعاليم المسيح . وفي أول ديسمبر ١٠٩٥ م ، قابل البابا رسل ريموند الرابع من سانت جيل Raymond IV of St. Gilles ، معلنين استعداد سيدهم الإقطاعي للمشاركة في الحرب الصليبية . ونظراً لأن ريموند قد أرسل رسله للبابا ، قبل أن يسمع أي أنباء عن خطاب أوربان ، فمن الواضح أنه كانت لديه معلومات مسبقة ، عن نوايا وأهداف البابا. فالحماس والتعصب الديني كان قد انتشر إلى

ما أبعد من كليرمون بكثير . وكان البابا أوربان قد بقى فى فرنسا لعدة أشهر ، وواصل الدعوة للحرب الصليبية ، فى مدينة ليموج Limoges ، على سبيل المثال . وقام البابا أوربان بإرسال دعوات مكتوبة للمشاركة فى الحرب الصليبية أيضاً . وتوجد ثلاث رسائل منها ، حتى وقتنا الحاضر ، وهى التى أرسلها إلى الفلمنكيين the Flemings ، والبولونيز the Bolognese ، ورهبان فالومبروزا Vallombrosa . ولعب الأساقفة دورهم فى الحرب الصليبية ، وأرسلوا الدعاة بين الجماهير . وكانت درجة الاستجابة للحرب الصليبية كبيرة ، وبخاصة فى جنوب فرنسا ، وفى ماكوناس the Maconnais ، وفى اللورين Lorraine ، وفى الأجزاء الغربية من الإمبراطورية، وفى شامبن Champagne، وفى نورماندى Normandy ، وفى بلاد الفلاندز Flanders . وفى كل مكان ، رجال الحرب ورجال السلام على حد سواء ، على استعداد للمشاركة فى الرحلة إلى بيت المقدس ، وكانت أعدادهم أكثر مما كان يتصوره أوربان بكثير .

إن نجاح دعوة كليرمون ، لم يتم تفسيرها التفسير الكامل حتى الآن ، وربما لن يمكن تحقيق ذلك. ولن تكون هنا أية تفسيرات حاسمة ، فالأكثر أهمية من كل شيء ، هى أسباب الانضمام للحملة الصليبية ، التى اختلفت إلى حد كبير من شخص لآخر. وكل ما يستطيع المرء أن يفعله ، هو دراسة سلسلة كاملة من الدوافع الدينية ، والدنيوية لقطاعات مختلفة ، والتى اندمجت مع بعضها البعض ، وأطلقت شرارة ذلك النجاح الفريد والعفوى فى كليرمون ، وكذلك إشعال نيران الحريق الذى ظل مشتعلاً لمدة قرنين من الزمان .

ومنذ البداية كان الهدف من الحروب الصليبية مساعدة الكنائس فى الشرق . والواقع أنه من المفترض أن البابا أوربان تحدث فى نطاق تلك المساعدة . بيد أنه بعد مرور وقت قصير ، أصبح هناك هدف محدد فى الفكر : وهو تخليص الأرض المقدسة ، وبيت المقدس ، وقبر المسيح، من السيطرة الإسلامية. ويبدو أن أوربان نفسه لم يستعمل كلمة بيت المقدس فى خطابه فى كليرمون. وعلى أية حال ، فإن بيت المقدس لم يذكره فولشر الشارترى Fulcher of Chartres ، الذى كانت روايته عن خطاب أوربان الرواية الأقرب إلى الحوادث التاريخية لمجمع كليرمون. ولم تظهر دعوة البابا أوربان الثانى

المثيرة للعواطف، من أجل استرداد بيت المقدس من المسلمين ، سوى فى النسخ التى ظهرت مؤخراً لخطابه . بيد أنه مازال هناك دليل أفضل فى خطابات أوربان نفسه التى كتبها ؛ وهى أن نص الخطاب الذى ألقاه أوربان فى كليرمون وذكر فى الحوليات ، تعرض للتحريف، على أيدى كتّاب تلك الحوليات ، بهدف تفاخرهم بمهارتهم البلاغية . وفى الخطاب الذى أرسله البابا أوربان الثانى ، إلى الفلمنكيين ، فى أواخر ١٩٠٥م ، كان الحديث عن تحرير الكنائس الشرقية ، أما ذكره لمدينة بيت المقدس فكان عرضاً. أما الخطابات التى أرسلها أوربان إلى بولونا Bologna، وإلى فالومبروزا ، فى سبتمبر وأكتوبر ١٠٩٦ م ، كانت بيت المقدس الهدف والغاية بكل وضوح. ومن ناحية أخرى ، فقد أشار القانون الثانى لمجمع كليرمون إلى الحصول على غفران الخطايا مقابل، " الذهاب إلى بيت المقدس لتحرير كنيسة المسيح ". وتمنى المؤرخ إردمان Erdmann حسم المشكلة ، بوضع فرق بين الدافع للحرب ، وتحرير الكنائس الشرقية ، والمسير إلى بيت المقدس . وربما كان ذلك تفسيراً أكثر دقة. إن ذكر بيت المقدس لا يمكن اتخاذه كمجرد عامل إغراء ، فالإسم قوى ومقنع للحد الذى يجعل من المحتم تحويل العمل كله نحو هذا الاتجاه . بل إن ذكر اسم بيت المقدس ، لابد وأن كان له روعه فاتنة وبراقة بالنسبة للإنسان فى القرن الحادى عشر ، وهو الشيء الذى لم نعد قادرين على الإحساس به فى الوقت الحاضر . (٧) إن كلمة بيت المقدس كانت الكلمة الدليلية ، التى نتج عنها ردود فعل نفسية ، ذات طبيعة خاصة ، واستحضرت فى أذهان الناس ، أفكار مهمة ، تتعلق بالبعث والحساب . وبالطبع فكر الإنسان فى المدينة الفلسطينية التى عانى بها المسيح عيسى { عليه السلام } . والأكثر من ذلك ، أنهم رأوا فى خيالهم ، مدينة بيت المقدس السماوية ، بأبوابها المصنوعة من الياقوت الأزرق ، وأسوارها ، وجوانب ساحاتها ، بأحجارها الكريمة اللامعة _ كما جاء فى الوصف بكتاب سفر الرؤيا the Book of Revelation . إنها قلب العالم الروحى ، مثلما تكون بيت المقدس الدنيوية، فى كلمات حزقيال Ezekiel ، " وسط الأمم والشعوب " . إنها كانت مكان لقاء ، لكل أولئك الذين انتشروا فى الأرض ، وغاية كل الحجاج ، حيث يوجد الله بين شعبه ، والمكان الذى يصعد إليه الأخيار ، ومدينة الفردوس ، ومدينة شجرة الحياة التى تشفى كل الناس .

ونظراً لأن نسبة كبيرة من الصليبيين ، لم تكن قادرة على التمييز بين بيت المقدس الدنيوية والسماوية ، فإن تلك الانطباعات الذهنية، لابد وأنها كان لها تأثير قوى عليهم . واعتقدوا أنهم يزحفون صوب مدينة النعيم الأبدى مباشرة. والأكثر أهمية من كل شيء، أن الفقراء والمعدمين ، كان ورعهم المتعلق بالبعث والحساب متبلوراً في رؤية بيت المقدس . وقام المؤرخ الفانديرى Alphande`ry بدراسة منذ عهد قريب ، عن نظرة الجماهير ، المتعلقة بالإيمان بالعصر الألفى ، والذى من خلال أبحاثه ، قد ساهم بكثير من الأفكار الجديدة ، والجديرة بالملاحظة ، المتعلقة بمسألة أصول الحروب الصليبية، برغم أنه على الأرجح ، قد مال إلى المبالغة بالنسبة لأهمية مثل تلك التأثيرات المتعلقة بالإيمان والبعث والحساب. إن تلك التأثيرات، والتى كان من الممكن إدراكها فى أغلب الأحوال، على شكل رؤيا وتخيل ، لم تكن موجودة بشكل متساوى على امتداد الحرب الصليبية . إن تلك التأثيرات كانت تظهر قبل وأثناء الرحيل إلى بيت المقدس ، بيد أنها لم تكن موجودة بشكل متساوى على امتداد الحرب الصليبية. إن تلك التأثيرات كانت تظهر قبل وأثناء الرحيل إلى بيت المقدس ، بيد أنها لم تكن تظهر بأعداد مهمة ، إلاّ بعد الاستيلاء على أنطاكية ١٠٩٨ م . ويشير هذا إلى أن الجماهير التى تحركت ، تحت سحر أفكار البعث والحساب، كانوا فى حالات معينة فحسب، ولم يكونوا عندما كانت الحملة الصليبية تتقدم بهدوء. وقد تم إقحام بعض الرؤيا والتخيلات ، وإستغلالها بمعرفة القادة ، لكى يرفعوا الروح المعنوية ، فى المراحل الحرجة . وكانت مسألة اكتشاف الحربة المقدسة أكثر الأمثلة . غير أنه توجد أيضاً علامات واضحة لوجهة النظر المتعلقة بالبعث والحساب وبخاصة عندما بدأ الفقراء مسيرهم دون إنتظار الحملة الصليبية الرسمية . وتلك العلامات – كارثة الجراد ، ووابل من النجوم تهبط من السماء – فى وصف خاص بالرؤيا . ويخبرنا بودرى من دول Baudri of Doll أن هذا الجو المشبع بالرؤيا لم يكن من تأليف الدعاة الرسميون الذين يعملون بناء على تكليف من الأساقفة . وبدلاً من ذلك كانت تلك الأمور تنتشر تلقائياً من خلال عملية متبادلة ، مشابهة للعظات والمواعظ إلى حد ما ، والتى استجاب إليها الفقراء عن طيب خاطر إلى حد ما ، نظراً لأن المحاصيل

الزراعية القليلة للسنوات التى سبقت ١٠٩٦ م ، جعلت من السهل مغادرة الوطن والحقول ، لكى يتبعوا طريق الخلاص، وهو طريق إلى مستقبل أفضل - وهو مستقبل ملأه الجماهير التى ليست على معرفة بالناحية اللاهوتية بالأحلام المتعلقة بحياة البحث والحساب المشوشة والغامضة وغير واضحة ، وربما كانت صورتها على نمط مادى تماما . ولاريب أن بعض الفقراء ، اعتقدوا أنهم من بين الأخيار ، واعتقدوا أن كلمات المزمور * Psalm رقم ١٤٧ ، قد أشارت إليهم : " إن الرب يبنى أورشليم ويجمع معا المشردين من إسرائيل " . ونظراً لإيمانهم بذلك ، فلم يترددوا بين الفينة والفينة ، فى ممارسة الضغط ، لربط القادة الصليبيين بما يعتقدون، ومن ناحية أخرى، فإن القادة من أمثال ريمون التولوزى Raymond of Toulouse قدروا تلك المشاعر ، واستثمروها فى تحقيق أهدافهم. بيد أنه لا يجب المغالاة فى تقدير تأثير الأفكار المرتبطة بالبعث والحساب . وتأتى البينة من كتّاب الحوليات ، الذين حاولوا بكل نشاط ، إيجاد مفهوم عقائدى للحرب الصليبية ، والذين كتبوا بعد الحادث التاريخى، وبعضهم كتب بعد مرور ذلك الحدث التاريخى بوقت طويل. وهناك الكثير عن الحروب الصليبية أكثر من هذا . أولا وقبل كل شىء، تحركت جماعات كثيرة للحج إلى بيت المقدس ١٠٣٣م ، بمناسبة الذكرى الألفية لآلام المسيح . فقد سبقهم أيضاً علامات خارقة للطبيعة ، وكانت كل مشاعرهم وأفكارهم متأثرة بالبعث والحساب، وهو ما يبدو على أنه إعلان بمقدم للمسيح الدجال Antichrist ، والذى سوف يسبق القدوم الثانى للمسيح. ومع ذلك فإن الجماعات الذاهبة للحج تلك ، لم تتحول إلى حملة صليبية . وفوق كل شىء ، فلم يكن هناك مثيل للحركة الجماهيرية المتكاتفة التى حدثت ١٠٩٥ - ١٠٩٦م . ولكى نعرض موجز ختامى، فإن ما كان حاسما ، هو تسليح الجماعات الذاهبة للحج ، وفكرة المكافأة التى كانت كامنة فى الغفران الكنسى ، الذى كانت تمنحه الكنيسة مقابل المشاركة فى الحرب الصليبية ، وليس التفكير المتعلق بالإيمان بالعصر الألفى السعيد .

* المزمور : هو أحد الأناشيد والترانيم والصلوات المائة والخمسين التى يتألف منها سفر المزامير - (الشاعر) .

إن عادة الذهاب للحج إلى بيت المقدس المتوارثة جيلاً بعد جيل مساوية تماماً لعادة استحضار الإيمان الروحى فى الذهن بالصور والأيقونات والتماثيل ، والذى ينم على البساطة . (٨) فمنذ ٣٣٣ م ، وصل إلى فلسطين أحد الراغبين فى الحج إلى الأراضى المقدسة من أهالى بوردو Bordeaux ، وبعد ذلك التاريخ بوقت قصير زارت الأماكن المقدسة إحدى النبيلات الغاليات (من غاليا Gallic) اسمها إيجيريا Egeria . وفى ٣٣٦م، استقر القديس جيروم فى بيت لحم، وبعد ذلك بنصف قرن ، ذهبت الإمبراطورة Eudocia إلى بيت المقدس بهدف الانقطاع للعبادة ، والدراسات الدينية . وتم بناء الأديرة ، والنزل لاستقبال المسافرين ، الذين اتبعوا السلوك الجديد – كما يمكن تسميته إلى حد ما – ووصلوا إلى فلسطين . ولم يتوقف تدفق الحجاج لزيارة الأراضى المقدسة ، على الإطلاق ، حتى بعد الفتح العربى لها . ولعبت تجارة الآثار المقدسة المتزايدة بين الشرق والغرب دوراً إلى حد ما فى إثارة الاهتمام بالأراضى المقدسة باستمرار ، بيد أن التزايد التدريجى للحج إلى الأراضى المقدسة من أجل التكفير عن الخطايا والذنوب هو الأكثر أهمية . وهذا تم فرضه كعقاب ، وفقاً للقانون الكنسى ، وعلى الجرائم التى عقوبتها الإعدام ، مثل جريمة قتل الأخ أوالأخت التى كان من الممكن أن تمتد إلى سبع سنوات لزيارة كل الأماكن المهمة وهى روما ، وسان ميشيل San Michele فى مونت جارجانو Monte Gargano ، وسانتيا جو دى كومبوستيلا Santiago di Compostella ، والأهم من ذلك كله ؛ زيارة بيت المقدس ، وبيت لحم . ومع الاعتقاد بأنها أساليب فعّالة ، من أجل الخلاص ، فقد تزايدت رحلات الحج، إلى الأماكن المقدسة بسرعة ، منذ القرن العاشر للميلاد فصاعداً . وسافر القديس حنا من بارما Saint John of Parma ، ست مرات، على الأقل إلى الأرض المقدسة – مع الوضع فى الاعتبار أن ظروف السفر فى ذلك الحين جعله إنجازاً مدهشاً . أما الرجال الذين عانوا من الإحساس العنيف بالألم ، مثل فولك من نيرا Fulk of Nerra ، وكونت أنجو Count of Anjou ، وروبرت الشرير Robert the Devil ، وكونت نورماندى Count of Normandy ، فقد ذهبوا جميعاً للحج إلى بيت المقدس ، عندما عذبتهم ضمائرهم ، بسبب جرائمهم التى كانوا قد ارتكبوها ، تجاه الكنيسة والدير، ولذلك كان عليهم أن يذهبوا أكثر من مرّة . وقام النظام الديرى

الكلونى Cluniac Order ، الذى خطى بالاهتمام والاحترام ، والنفوذ بصفة مستمرة ، باستخدام اتفاقيته الواسعة الانتشار ، ونبوغه فى التنظيم ، فى حث الناس على الذهاب ، إلى الأرض المقدسة للحج ، مع تقديم التسهيلات ، لمن يرغب فى ذلك . وبالنسبة لكثير من الحجاج ، فى القرن الحادى عشر الميلادى ، اتخذت الرحلة إلى بيت المقدس معنى دينياً أكثر عمقاً ؛ فوفقاً لرؤية رالف جلابير Ralph Glaber ، الذى كان راهباً كلونيا ، كانت النظرة لتلك الرحلة على أنها قمة الحياة الدينية للإنسان ، وأنها أسمى رحلاته التى قام بها فى حياته . فما أن كان يصل الرجل إلى الأماكن المقدسة حتى يظل هناك إلى أن يتوفاه ملك الموت .

ومن الواضح أنه فى منتصف القرن الحادى عشر ، بدأت الصعوبات التى واجهت الحجاج فى الازدياد . وكان ذلك إلى حدما ، نتيجة لغزوات السلاجقة ، التى جعلت الأمور أكثر صعوبة أمام الراغبين فى السفر عبر الأناضول – وهو الطريق المفضل للجميع لأنه يسمح بزيارة القسطنطينية . غير أن ذلك كان أيضاً نتيجة للعدد المتزايد من الحجاج ، وقد سبب قلقاً وانزعاجاً للسلطات الإسلامية فى آسيا الصغرى ، وفى فلسطين ، مثلما نظر اليونانيون ، فى جنوب إيطاليا ، بشك إلى مجموعات النورمان " الحجاج" الذين يعرضوا جميعاً للإغراء بسهولة من أجل الإقامة الدائمة فى الأراضى المقدسة . وهناك إشارة إلى أن للمسلمين مصلحة اقتصادية فى تشجيع رحلات الحج إلى الأراضى المقدسة، غير أنه فيما عدا بيت المقدس نفسها على مايبدو ، فإن الدخل من هذا المصدر لم يكن له أهمية ، ومع ذلك فالفقر كان أحد المثل العليا للحاج. ولذلك لم يكن هناك أى حافز لهم على جعل الرحلة إلى بيت المقدس أكثر سهولة . وبالطبع ، فإن الأحوال لم تكن أسوأ مما كانت إبان اضطهاد المسيحيين فى عهد الخليفة المخبول الحاكم بأمر الله ، الذى قام بهدم كنيسة القبر المقدس سنة ١٠٠٩م ، فى بيت المقدس ؛ كما أن الأحوال لم تكن مقبولة مثلما كان الحال ، عندما كانت الإمبراطورية البيزنطية فى أزهى عصورها، أو فى عصر شارلمان ، الذى أولى اهتماماً شديداً بنفسه بالحجاج إلى فلسطين . بل وبرغم وجود مصدر للإزعاج من حين إلى آخر ، فإن عدد الحجاج كان فى تزايد باطراد . وفى عامى ١٠٦٤ – ١٠٦٥ م ، قام الأسقف جونثير من بامبرج Gunther

of Bamberg ، جماعة من الأقوياء ، يزيد عددهـــم علـــى ســبعة آلاف إلـــى الأرض المقدسة. وبالقرب من الرملة فى فلسطين ، تعرضت تلك الجماعة لهجوم مفاجئ من قبل المسلمين، واضطرت تلك الجماعة لخوض معركة دفاعية لعدة أيام . وليس مـــن الســـهل تفسير كيفية معالجة هذا الموقف ، نظراً لأن الحجاج كانوا دائما غير مسلحين .

وهنا قد وصلنا إلى النقطة الحرجـــة الخاصة بالفرق بين المشـــــارك فـــى حـــرب صليبية، وبين الحاج . إن المشارك فى حملة صليبية كان يحمل أسلحة . والحملة الصليبية كانت زيارة للحج للأماكن المقدسة ولكن الحجاج كانوا يحملون الأســـلحة ، وهـــم الذيـــن منحتهم الكنيسة امتيازات خاصة ، وأنهم تم اعتبارهم أهل للمكافأة والتقديـــــر الخـــاص . وكانت الحملة الصليبية امتداد منطقى لرحلة الحج إلى الأراضى المقدسة. ولم يكـــن لأى شخص أن يتوجه، على الإطلاق ، لاستخلاص الأراضى المقدسة ، من أيدى المسلمين ، لولا قيام الناس برحلات الحج للأراضى المقدسة على مر القرون. ومن المحتم أن السيل المتدفق المستمر من الحجـــاج ، عضد فكرة أن قبر المســيح ، يجـــب أن يظـــل تحـــت سيطرة مسيحـــية ، وذلك ليس لمجرد حـــل للمشاكل المعتادة التى واجههــــا الحجـــاج، ولكن لأن المعلومة المتزايدة ، بأن الأماكن المقدسة ، إرث للمسيح ، والتى تحـــت أيـــدى المسلمين ، أصبحت لاتطاق أكثر فأكثر . وإذا كانت الرابطة بين الحج إلـــى الأراضـــى المقدسة ، والمشاركة فى حملة صليبية واضحة ، فيعود الفضل فى ذلـــك إلـــى أوربـــان الثانى. وعلى الرغم من أن المؤرخين فى العصر الحاضر ، أقل ميلاً إلى محاولة تقديـــم الأدلة ، على أن الحروب الصليبية ، سببها الصعوبات المتزايدة ، التـــى تعـــرض لهـــا الحجاج، فما زالت هناك حقيقة أن رحلات الحج إلى الأراضى المقدسة لها أهمية حاسمة فى ظهور الحركة الصليبية. وجاء فى كتـــابات المؤرخ إردمان Erdmann ، " أن البابـــا أوربان الثانى تبنى الفكرة الشعبية المتعلقة بالحج إلى الأراضى المقدسة، والتى لـــم تكـــن مثمرة ، وفقاً للعرف العملى، وقام بتطويعها بهدف إثراء الحرب المقدسة " . ومن المهـــم أن المعاصرين ، لم يكونوا قادرين على التمييز بجلاء بين الحالتين فى بداية الأمر . ولم تكن هناك كلمة لاتينية تعنى "حملة صليبية " قبل منتصف القرن الثالث عشر ، بل وحتى ذلك الحين كان استخدام تلك الكلمة نادراً .(ولم يتم ظهور الكلمة التـــى تعنـــى " حملـــة

صليبية " فى اللغتين الانجليزية والألمانية سوى فى القرن الثـامن عشـر فقـط) وفـى العصور الوسطى ، اعتاد الناس دائما تقريباً على استعمال أسلوب الإطناب مثل (الحملـة إلى الأرض المقدسة) – وبخاصة فى أوائل فترة الحروب الصليبية – واستخدموا كلمـة Peregrinatio ، وهو اللفظ العملى لكلمة الحج إلى الأرض المقدسة . إن الحد الفـاصل بين حملة صليبية والحج إلى الأراضى المقدسة كان حداً غير واضح بجلاء .

والأهم من ذلك كله أن فكرة الحج المسلح إلى الأراضى المقدسة كان من الطبيعـى أن تروق لطبقات الفرسان . وكما أشار المؤرخ إردمان ، فـالفضل يعـود للمصلحيـن الكولونيين the Clunia Reformers ، الذين استهوتهم فكرة الحرب المقدسة تدريجيـاً ؛ وهى معركة الكنيسة ضد غير المسيحيين. وكان موقف الكنيسة تجاه الحرب موقفاً دقيقـاً نظراً لأنها واجهت مشكلة التوفيق بين كارثة حتمية ، وبيـن تعـاليم المسـيح المسـالمة والبعيدة عن العنف ، وكان علماء اللاهوت فى العالم البيزنطى قـد شـجبوا بالإجمـاع الحرب، بيد أنه من الناحية العملية كان لشجبهم تأثير ضعيف . أما فى الغرب اللاتينـى ، فلم يكن الناس على استعداد لمثل تلك الفكرة المتطرفة والعقيمة . وعلى امتداد العصـور الوسطى، ظلت تعاليم القديس أوغسـطين St. Augustine الخاصـة بـالحرب العادلـة Bellum Justum جديرة بالقبول وتحظى بسلطة الأمر . (٩) وكانت الحرب مباحة عنـد وجود قضية عادلة ، وذلك عندما تدور رحاها ، دفاعـاً عـن ممتلكـات شـرعية أو لاستردادها . ومن الواضح أن المؤيدين لتلك المبررات تركـوا مجـالاً كبـيراً لتفسـير الظروف السياسية .

إن الهجمات الشرسة التى قام بها المسلمون على كل أوربا المسيحية فـى القرنيـن التاسع والعاشـر ، أعطت لمفهوم الحرب الدفاعية أهمية جليّة . فـالجيوش النظاميـة ، والجماعات المغيرة من الفايكنج ، والمجر ، والعرب إلى داخل الأراضـى المسـيحية ، وكان على السكان تحمل الأوقات القاسية تحت وطأة هذا الهجوم فى العصور الوسـطى ، فى السنوات التى تلت انهيار الإمبراطورية الكارولنجية . ونظراً لأن ثـروة الكنـائس ، والأديـرة ، كانت أهدافاً واضحة أمام الغزاة ، الذين كانوا تواقين للسلب والنهب ، فكـان من الطبيعى ، فى نهاية الأمر ، أن على الكنائس مساندة حالة الحرب الدفاعية الواضحـة

المعالم. وحيث أن كل أولئك الغزاة كانوا لايدينون بالمسيحية – فالفايكنج لم يتحولوا إلـــى المسيحية إلا بعد ٩١١م ، عندما استقروا فى إقليم نورماندى – فــإن تلك المرحلة مهمة فى تطور الفكر الصليبى . إن فكرة الحرب العادلة Bellum Justum أصبحت مرتبطـــة ارتباطاً وثيقاً بالحرب ضد غير المسيحيين . ففى القرن التاسع الميلادى وعد كل من البابا ليو الرابع Leo IV ، والبابا حنا الثامن John III بالحياة الأبدية ، لكـــل أولئـــك الذيـــن يسقطون جرحى أو قتلى فى معركة وهم يقـــاتلون العـــرب أو الفـــايكنج . ثـــم حصـــل المشاركون فى حملات صليبية على الوعد نفسة فيما بعد . ومع ذلك ، فمـــن الخطـــأ أن نعتبر تلك الوعود على أنها علامات مبكرة ، عن المثل الأعلى للمشاركة فـــى حمـــلة صليبية . ولقد تأثر كل من البابوين بالقول المأثور عن إزدور من ســـيفل * Isidore of Seville ، الأسقف الأسبانى الشهير فى القرن السادس ، عندما قال : " إن الرجال الذيـــن جعلتهم حكمتهم وشجاعتهم جديرين بالنعيم فى الفردوس ليطلق عليهم أبطال . " وتكمـــن أهمية تلك الدعوة البابوية فى تأييدهم، ودعمهم الحاسم ضد غير المسيحيين. وكانت هـــذه الحرب عينها واجبا إمبراطورياً وملكياً بصفة خاصة . فلقد كان واجب الملـــك الخـــاص على الدوام ، المحافظة على السلام فى الإطار الكنسى ، والعمل علـــى تدعيـــم انتشـــار المسيحية فى الخارج . وبمرور الوقت تحول الناس من الدفاع إلى الحرب على أنها حرب عادلة ، وفقـــاً لمفهوم القديس أوغسطين ، وهى حرب من أجل استرداد ما كـــان ملكهـــم بحق . وكان من الممكن دائما القـــاء لوم شـــن الحرب على الطرف الآخـــر ، ويمكـــن قبوله كمبرر لشن حرب. ويجب علينا أن نحكم على كتـــاب الحوليـــات فـــى العصـــور الوسطى، وعلى البابوات ، وعلى المبشرين ، والكهان من وجهة النظر تلك ، وبخاصـــة منذ الحملة الصليبية الثالثة ، والحملات التى تلتها ، حيث غالباً ما أشار إلـــى الأراضـــى المقدســـة على أنها إرث المسيح ، وأنها مملوكة للعالم المسيحى، ومن الواجـــب الدفـــاع عنها أو استردادها. وكانت هذه العبارة وحدها مبرراً كافياً لشن الحملات الصليبية .

---

* إزدور من سيفل أسقف وعالم أسبانى (حوالى ٥٦٠ – ٦٣٦ م) ويقام له احتفال فى الرابع من أبريل من كل عام . (الشاعر) .

إن حركة سلام الله أثرت على موقف الكنيسة تجاه الحرب ، أيضاً . وكانت هــــذه الحركة فى بدايتها حركة آلية للدفاع عن النفـــس مـــن قبـــل الكنيســـة . وكـــان تفســـخ الإمبراطورية الكارولنجية ، قد جلب معه تدهور سلطة الدولة والسلوك الأخلاقى العـــام . ففى القرن العاشر الميلادى تكونت طبقة المقاتلين ، فى كل مكان ، من رجـــال ، صـــار يطلق عليهم فرسان ، تدريجياً ، واتسمت تلك الطبقة بالوحشية بكـــل وضـــوح . وهـــاجم هؤلاء الفرسان، الممتلكات الخاصة ولاسيما ممتلكات الكنيسة، بشراهة وجشع مثلما كـــان يفعل الفايكنج أو المجر. ولم يكن فى مقدرة الدولة ، سوى القيام بالقليل حيال تلك الحالـــة التعسة ، وأصبح من الصعب تدريجياً ، ظهور بارقة أمل ، فيما يتعلق بالنظـــام العام ، أو الأمن والطمأنينة . وبالرغم من أن الاهتمام الأول للكنيسة ، كان منصباً على ممتلكاتهـــا، فمع ذلك لم تغفل عن الشئون المفيدة ، لكل البنية الاجتماعية . وقـــد ورد فـــى اتفاقيـــات السلام الإقليمية الباكرة، قدر كبير من الأدلة، منذ نهاية القرن العاشر فصاعداً ، أنه كـــان من المألوف بالنسبة لطبقة النبلاء المحلية ، أن تقسم على مراعاة حصانة رجال الديـــن ، والأفراد العزل من السلاح ، والممتلكات الكنسية . ثم منذ حوالى ١٠٤٠ م ، أصبح مألوفا أكثر فأكثر ، إصدار قرارات لمنع وتحريم الأعمال العدوانية ، فى أيام متفـــق عليهـــا ، وكانت المرحلة الأخيرة ، هى محاولة إلغاء العداء كلية ، وأن يحل التحكيم محله. ويعود الفضل ، فى تشجيع تلك الحركة، للرجال الذين ارتبطـــوا بحركـــة الإصـــلاح الكلونـــى Cluniac Reform ، فى المقام الأول . وفى كلونى Cluny ، التى لاتبعـــد كثـــيراً عـــن ماكون Macon ، فى إقليم بورجوندى Burgundy ، تم إنشاء دير سنة ٩١٠ م ، الـــذى تعاقب على رئاسته بعض الرؤساء الأقوياء ، حتى بلغ ذلك الدير مرتبة سامية ، وأصبـــح أحد المجمعات الديرية المهمة فى الغرب الأوربى . وانطلقت من هـــذا المركـــز حركـــة إصلاح ، كان هدفها الأساسى ، تحقيق نظام ديرى ، أكثر صرامة وعمقاً ، وفقاً للنظـــام البندكتى ، بالإضافة إلى تحرير الدير ، من النفوذ الأرستقراطى الخارجى . بيد أنه فـــى الوقت نفسه ، لم يتم إهمال العالم الخارجى على الإطلاق . ولقد بذلت جهـــود لإحـــداث تمسك بالقيم الروحية ، وتعميق الحياة الدينية عند الفـــرد العلمانى ، حتى يكـــون وثيـــق الصلة بالقوى التى بالكنيسة ، وفقاً لمفهوم المصلحين الذين عملوا على مراعـــاة النظـــم

الأخلاقية . وكانت تلك الأهداف مقصود بها جماعات الفرسان الأكثر توحشاً على وجـــه التخصيص ، وكان سلام الله مجرد أحد الوسائل المستعملة للوصول إلى هذه الجماعـــة . ومع ذلك ، فهذا يعنى أن الكنيسة إتخذت خطوة حاسمة تجاه الحرب ، وهى فـــى الواقـــع مشاركة عملية فى الحرب ، لأن حث طبقة النبلاء على أداء قسم السلام كان ، ببســـاطة محاولة غير كافية ، واتخذت بعض التدابير لإجبار الرجال على حفظ الســـلام ، وعنـــد الضرورة ، وضعت موضع التنفيذ . وكهذا ، أصبحت الكنيسة مشغولة بتنظيم الحمـــلات العسكرية وتوجيهها ، لكى تعـــاقب كل الذين يثيرون الاضطرابات ، ويعكـــرون صفـــو الأمن .

إن الحروب الكنسية من هذا النوع ، كان ينظر إليها على أنها " حـــروب مقدســـة " دارت رحاها لصالح الكنيسة التى تحظى بالقبول من الجميع . غير أن تعاليم أوغســـطين قدمت اختلافات فى التفسير بخصوص تلك القضية ، وهكذا اختلفت وجهات نظر رجـــال الكنيسة من أصحاب الشخصيات المتميزة ، وفى أواخر القرن العاشر الميلادى ، كـــانت التعاليم كلها فى حالة من التغير. وقدم المصلحون تأييداً لهذا المفهوم عن الحرب المقدسة فى القرن الحادى عشر ، من هؤلاء الذين كانوا مرتبطين بالأديرة ، ومن الذيـــن كـــانوا تحت إمرة القيادة البابوية ، وكلهم جميعـــاً كانوا حريصين على إصلاح أحوال الكنيســـة كلها . ولاريب أن المصلحين أدركوا إلى حد ما ، أن فى " الحرب المقدســـة " امتلكـــت الكنيسة سلاحاً سياسياً مفيداً . كما أن الرجال الذين لعبوا دوراً حاسماً فى تحـــول طبقـــة المحاربين إلى نظام قام على الفروسية ، كانوا مشغولين أيضاً فى تحمل مسئولية حـــرب مقدسة ، خارج سيطرة الملك ، الذى كان من قبل المسئول الوحيد عن الحرب ، وانتقلـــت تلك المسئولية على عاتق طبقة الفرسان جميعا. وكان هذا التطور شرط مسبق لنمو فكرة الحرب الصليبية وتطورها .

غير أن هناك افتراض بأن الإصلاح البابوى لم يكن الوحيد فى تحبيذ فكرة الحرب المقدسة بارتياح . إذ ينسب إلى إثنين من البابوات وضع خطط حملات صليبية حقيقية قبل الأزمنة التى حدثت فيها فترة إصلاح الكنيسة . (١٠) ومن بين الرســـائل التـــى كتبهـــا جيربرت من أوريلاك Gerbert of Aurillac ، وفيما بعد حمل اسم البابا سلفستر الثـــانى

Pope Sylvester II (٩٣٣-١٠٠٣ م) ، توجد رسالة كتبها قبل أن يصبح بابا . وعلى الرغم من وجود خلاف كثير حول أصالة هذه الوثيقة ، فمن الصعب رفضها كلية . واعتقد بعض المؤرخين ، أنهم تمكنوا من معرفة أن جيربرت ، طلب مساعدة عسكرية لكنيسة بيت المقدس . غير أن إردمان Erdmann أشار إلى أن جيربرت ، كان في الحقيقة مهتما بجمع الصدقات فقط . ومن الصحيح أن فكرة التدخل العسكرى جالت بخاطره ، بيد أنه استبعدها على الفور على أساس أنها غير قابلة للتطبيق . ومن ناحية أخرى ، فقد أمر البابا سير جيوس الرابع Sergius IV (١٠٠٩ - ١٠١٢ م) ، بتوزيع منشور بابوى عام ، يبدو أنه أكثر أهمية . وفى هذا المنشور البابوى العام ، ظهر بكل وضوح ، أن البابا يدعو إلى نوع ما من الحرب الصليبية . وكان ذلك البابا وصلته أنباء هدم كنيسة القبر المقدس بأمر من الخليفة الحاكم بأمر الله (سنة ١٠٠٩م) ، وأعلن البابا عن عزمه على قيادة أسطول للإبحار صوب سوريا لإلحاق هزيمة بالمسلمين ، ولإعادة بناء القبر المقدس . وفى بداية هذا المنشور البابوى إشارة واضحة إلى التقاليد الخاصة برحلة الحج إلى الأراضى المقدسة . وكان من الصعب المغالاة فى تقدير أهمية هذه الوثيقة الخاصة بأصل وتطور الفكرة الصليبية ، لولا أنه منذ حوالى عشرين سنة ثبت أنها مزورة. إذ قام المؤرخ جيزتور Gieysztor ، بتقديم بحث علمى رائع، أثبت فيه أن تلك الوثيقة تمت كتابتها سنة ١٠٩٦م، بعد انعقاد مجمع كليرمون بقليل ، فى دير القدس بيير دى مويزك St. Pierre De Moissac ، بالقرب من تولوز Toulouse . وبعبارة أخرى فهذا " المنشور البابوى " ينتمى إلى مجموعة الوثائق التى حملت اسم المثيرات للمشاعر Excitatoria ، والتى مازال يوجد العديد منها على شكل خطابات. وأنها كتبت بهدف الدعاية لدق الطبول تأييداً للحرب الصليبية .

وفى الحقيقة لم تكن البابوية قد وصلت إلى القدر الذى يسمح لها بالتفكير فى القيام بحملة عسكرية إلى الشرق قبل عهد الإصلاح فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى . كما أن السياسات النشطة التى مارسها بابوات تلك الفترة شغلتهم فى اتجاه جديد نحو الحرب . وفى سنة ١٠٥٣ م ، قام البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٨-١٠٥٤م) ، أحد البابوات المصلحين الأول ، تولى بنفسه قيادة حملة عسكرية ضد

النورمان في جنوب إيطاليا لأنهم تصرفوا مثلما يفعل غير المسيحيين، ولذلك تمت معاملتهم بالمثل . وبالنسبة للألمان الذين شاركوا في الحملة العسكرية ، فقد صلى البابا من أجل إعفائهم من العقاب على خطاياهم ، وإلغاء الكفارة . وكان هذا الوعد أكثر شبها بالوعد الذي صدر عن البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ م من الوعدين اللذين صدرا عن البابا ليو الرابع ، والبابا حنا الثامن . ثم حاول البابا نيقولا الثاني (١٠٥٨ - ١٠٦١م)، حل المشكلة النورمانية بالتحالف مع قادتهم ؛ ريتشارد من كابيو Richard of Capua، وروبرت جيزكارد Robert Guiscard ، في ميلفي Melfi سنة ١٠٥٩م . ووافق العاهلان النورمان على الاحتفاظ بما تحت يديهما على أن يكونا تابعين إقطاعيين للبابا ، باعتبار ممتلكاتهما منحة إقطاعية بابوي. وهكذا أصبحا تابعين إقطاعيين للكنيسة ، وعلى مثال كل الأتباع الإقطاعيين ، كان عليهما واجب الخدمة الحربية ، وفقاً لرغبة سيدهم الإقطاعي ، على الرغم من أنه في هذه الحالة كانت تلك التعهدات لا بد لها من أن تتفق مع تعاليم الكنيسة . والآن امتلكت الكنيسة قوة عسكرية إقطاعية مستعدة للدفاع عن الولايات البابوية ، وهي قوة يمكن استخدامها لأهداف الحرب المقدسة. وأدرك النورمان من ناحيتهم فائدة حرب مقدسة ، مثل رجال الكنيسة تماماً بتمام . وقام روبرت جيزكارد بتنفيذ هجومه على صقلية الشمالية (١٠٦١- ١٠٧٢ م) على نمط حرب مقدسة ذات بواعث دينية ، وكانت حرباً ضد غير المسيحيين. وكان جيز كارد قد أعلن عن نيته في القيام بهذا العمل عندما أقسم في ميلفي Melfi سنة ١٠٥٩ م ، ومن ثم حصل على موافقة الكنيسة على الخطة الجزئية . واعتقد المؤرخ إردمان Eermann ، أن غزو صقلية هذا ، كان نوعاً من الحرب الصليبية ، بيد أنها في الحقيقة افتقرت إلى مقوم أساسي لحملة صليبية . فليس هناك دليل على وجود مشاركة بابوية نشطة ، على الرغم من أنه من الصعب الاعتقاد بأن البابوات لم يعملوا على تشجيعها سراً .

وبالإضافة إلى تلك الحروب النورمانية ، فقد وصف الصراع ضد المسلمين في أسبانيا بعبارات ملائمة لحرب صليبية . (١١) وعلى وجه التخصيص ، فإن غزو بربشتر Barbastro في ١٠٦٤م، والذي شارك فية كثير من الفرنسيين ، قد ارتقى إلى حالة أول حملة صليبية . بيد أنه أيضاً ، يبدو أن العنصر الأساسي ، وهو التعاون البابوي الفعّال،

لم يكن موجوداً . وكانت موافقة البابا الاسكندر الثاني ، وتأييده لغزو بربشـــتر ، قـــاصراً على منح نوع من الغفران الكنسى لكل المشاركين. فحقيقة أن الحرب ضد المسلمين فـــى أسبانيا كانت عملاً يستحق المكافأة والتقدير ، ومن ثم جذبت عـــدداً مـــا مـــن الفرســـان الفرنسيين لا يجعلها حرب صليبية . وبصفة عامة ، كانت الحرب ضد غير المســـيحيين ينظر إليها على أنها عمل يستحق المكافأة والتقدير . والواقع أن ماحدث فى أسبانيا كـــانت حرباً مقدسة عادية تماما ، وفقاً لمفهوم النظام الديرى الكلونى ، الذى ظهر فـــى فرنســـا ٩١٠م . والأهم من كل شئ ، فقد كان النظام الديرى الكلونى – وهو المشجع للحج إلـــى سنتياجو دى كومبوستيلا Santiago deCompostella – الأكثر نشـــاطاً فـــى مجـــالات النشاط الثقافى وإنشاء المستعمرات. وكانت الحرب فى أسبانيا ضد المسلمين، تتلاءم مـــع المقاومة التقليدية القديمة ضد المسلمين ، ونظراً لأن تلك المقـــاومة الجديدة كانت جـــزءاً من النمط القديم للمقاومة ، فإنها لعبت دوراً مهما فـــى أصـــول الحمـــلات الصليبيـــة . وساعدت تلك الحملات على بقاء فكرة مقاتلة المسلمين فى طليعة ذاكرة الرجـــال، وفـــى فرنسا قبل أى مكان آخر ، حيث وجدت الحملات الأسبانية إستجابة قويـــة جـــداً . ومـــن الواضح وجود علاقة ، مهما كانت طفيفة ، بين المقاومة ضد العرب من ناحية ، وبيـــن الحروب الصليبية من ناحية أخرى . وذلك فليست الحرب فى أسبانيا حربـــاً صليبيـــة . وفيما بعد أصبحت محاربة المسلمين فى أسبانيا بديلاً عن المشاركة فى حملة صليبيـــة ، واستطاع الفرسان الفرنسيون ، محاربة المسلمين فى أسبانيا ، بدلاً من التعرض لمخـــاطر الرحلة الصعبة إلى بيت المقدس . وقام البابوات بتشجـــيع ذلك ، بعـــد اعـــترافهم بـــأن المشاركة فى الحرب ضد المسلمين فى أسبانيا مساوية للمشاركة فى حملة صليبية . بيـــد أن هذا لم يخف حقيقة أن هذه الحروب ضد المسلمين فى أسبانيا ، كـــانت مـــن الناحيـــة الواقعية حروباً مقـــدسة تماماً . وقبل إعتلاء أوربان الثانى العرش البـــابوى كـــان مـــن الممكن ملاحظة أثر أسبـــانيا على تطور مفهوم حملة صليبية .

واستطاع أوربان الرجوع بأفكاره إلى سلفه جريجورى السابع عندمـــا أراد وضـــع خططه الصليبية موضع التنفيذ ، وبعد موت جريجورى أطلق على فترة بابويته بالعصـــر الجريجورى. وكان جريجورى أحد البابوات الذين تميزوا بالنشاط الفائق ، والولع الشديد

للقتال ، وقدر لهم الجلوس على عرش القديس بطرس . وبالنسبة لجريجورى لم يعد الأمر مجرد قضية حرية الكنيسة ، وعدم تبعيتها للسلطة العلمانية . فقد أعلن جريجورى السابع حق البابا فى السيادة العليا والمطلقة . وقد أدت تلك السياسة إلى وجود صراعات حتمية حول الخلاف بشأن تعيين رجال الدين بمعرفة العلمانيين . ولجأ كل من الجانبين إلى الكتابات الجدلية كحرب دعائية ، وبدافع من الإحساس بالمرارة التى جعلتهم يشنون القتال، حتى صار حتمياً إلى حد كبير، أنهم أصبحوا بطريقة أو بأخرى مشغولين بمسألة الحرب المقدسة ، ولا سيما منذ أن بذل جريجورى السابع جهوداً كبيرة مع طبقات الفرسان ، وحاول أن يكسبهم إلى صفه للقتال فى جانب مصلحة الكنيسة . ولكى يحقق ذلك عاد البابا جريجورى السابع إلى المفهوم القديم الخاص بجند المسيح Militia Christi. وكان ذلك من قبل يعنى رجال الدين الذين حاربوا بأسلحة السلام . وفى عهد البابا جريجورى السابع أصبح "جيشاً نموذجيا جديداً" فرسان القديس بطرس the Militia Sancti Petri، واحتفظ بشيء من المضمون السلمى القديم. إن فرسان القديس هم جنود الكنيسة الذين يحملون السلاح . وكان الأسقف بونيزو من سوترى Bishop Bonizo of Sutri ، من أشد الناس اقتناعاً بأفكار البابا جريجورى السابع ، ولذلك وضع كتاباً فى الفترة مابين (١٠٩٠ - ١٠٩٥ م) عن الحياة المسيحية De vita Christiana ، وفى هذا الكتاب كان أول من صنف قائمة عن واجبات الفارس المسيحى. وعند صدور هذا الكتاب كانت الكنيسة قد توصلت إلى موقف بشأن الحرب . وكان الفرسان ، باعتبارهم طبقة ، قد حققوا لأنفسهم سجاياهم الأخلاقية الحِرفية - وهى سجايا تأصلت بثبات فى مفهوم الكنيسة عن العالم - فى تعبيرهم الدينى المنظور فى احتفال حصولهم على اللقب . ومهم أن نقبل قبولاً تماما بأنه فى الفترة التى سبقت حدوث الحملات الصليبية مباشرة ، كانت توجد طبقة من الفرسان متطورة بكل مافى الكلمة من معنى ، وتشارك بعضها البعض فى مجموعة من المبادئ الأخلاقية ، التى كانت تسمو فوق اعتبارات الحدود السياسية ، وقد مكنتهم تلك المبادئ من القيام بمغامرات مشتركة .

ومن ناحية ثانية فقد أنكر بونيزو بكل وضوح فكرة محاربة غير المسيحيين the heathen . فلم يعد الذين لا يدينون بالمسيحية يمثلون تهديداً مباشراً ، وفى ذروة الخلاف

حول تعيين العلمانيين لرجال الديـــن the Investiture Contest ، كـــان مـــن الشـــائع لاعتبارات أخرى ، قبول نظرية الكنيسة بشأن الحرب باهتمام اكبر . وبدلاً من محاربـــة غير المسيحيين ، فكر الناس فى محاربة الهراطقة heretics ، والمنشقين Schismatics ، وهى أفكار القديس أوغسطين St. Augustine، والتى كانت موجودة من قبل ، وعـــادت للمرة الثانية . وبدون الخوض فى التفاصيل ، فمن الممكن التمييز ، تقريبا ، بيـــن أتبـــاع البابا جريجورى ، الذين أيدوا حرباً عدوانية ضد الهراطقة ، وبين أنصـــار الإمـــبراطور الذين لم يؤيدوا تلك الحرب .

وبرغم ذلك فإن فكرة محاربة غير المسيحيين كانت لم تزل بعيدة عـــن الخمـــود . وتطلع إيفو الشارترى Ivo of Chartres ، إلى حل وسط ، لمشكلة الخلاف حول تعييـــن رجال الدين على أيدى العلمانيين ، وإستمر يعرض هذا الحل الوسط . وطـــوال ســـنة ١٠٧٤ م ، لم توجد شخصية مهمة اكثر من البابا جريجورى السابع الذى تعلـــق فكـــره بمشروع إرسال حملة إلى الشرق . إذ أراد أن يقود تلك الحملـــة بنفســـه ، ليدافـــع عـــن الإمبراطورية البيزنطية المسيحية ، ضد المسلمين الذين يتقدمون عليها . ومن الصعـــب القول ، إذا ما كان جريجورى ، أراد الذهاب إلى بيت المقدس نفسها، غير أنه ورد ذكـــر قبر سيدنا ، – وهى كلمات كانت لها فعالية كبرى . ونعلم عن الخطة من رسائله ، أمـــا عن كيفية إعداده لها فما زالت لغزا محيراً . وبين الفينة والفينـــة ، تـــم اســـتخدام نوايـــا جريجورى للتعبير عن العبارات الخالية والمحفوفة بالمخاطر ،حتى أنه من الصعب فهـــم مايكمن خلف تلك العبارات . ولاريب أن حالة الإمبراطورية البيزنطية ، كانت تبعث على اليأس ، إلى الحد الذى كان يبرر مثل ذلك التدخل . فقد تم إبادة الجيش اليونانى على أيدى السلاجقة فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م ، وصارت هضبة الأناضول تحـــت رحمـــة هجمات التركمان ، نتيجة لذلك . وفى الوقت نفسة كان البيتكين Petchenegs يهـــاجمون أراضى البلقان ، وفى سقطت ميناء Bari (البيزنطية) والتى تقع فى جنوب شرق إيطاليا على بحر الإدرياتيك فى أيدى النورمان (فى صقلية) . وبالإضافة إلى ذلك، كان لـــدى جريجورى السابع وأوربان الثانى وكثير من البابوات من بعدهما ، أمل فى إنهاء الانشقاق الكنسى لعام ١٠٥٤م، وأنه من الممكن تماما أن بعض أفكار إعادة توحيد الكنائس ثانيـــة

تكمن خلف خطة عام ١٠٧٤ م . والواقع أن خطة البابا جريجورى السابع كانت غير قابلة للتنفيذ. إذ لم يكن فى استطاعة البابا السفر لاندلاع نيران الصراع حول تعيين العلمانيين لرجال الدين ولايوجد أمل فى تعاون ألمانى . وبالإضافة إلى هذا ، كان النورمان فى نزاع مع بيزنطة ، وأن جريجورى كان يحرض طبقة النبلاء الفرنسية على القيام بعمل ما ، ضد ملكهم لمساندة السياسة الكنسية . وبرغم ذلك ، كانت خطة جريجورى مهمة ، لأنه للمرة الأولى أمكننا التحقق من فكرة القيام بعملية عسكرية فى الشرق الأوسط بتوجيه بابوى فى هذا المجال . وبعبارات واضحة ، فما إقترحه أوربان الثانى فى كليرمون كان شديد الشبه لما كان جريجورى السابع ينوى أن يفعله ، ونظراً لأن أوربان حرص كثيراً على تنفيذ تكملة الخطط التى لم يتمكن جريجورى نفسه من إتمامها ، فربما من المستحسن أن التشابه كان متعمداً .

ويبدو من المحتمل أن اهتماماً كثيراً ، قد تم بذله ، بخصوص التطورات الخاصة ، بمفهوم الكنيسة ، فى القرن الحادى عشر ، بالنسبة لحرب مقدسة ، وذلك على ضوء الأبحاث التاريخية المتعلقة بأصول الحروب الصليبية . فعلى وجه التخصيص ، كان إردمان ميالاً لإبراز هذه الأهمية. ولكن من ناحية أخرى، لا ريب أن أبحاثه أثبتت : أن الحملة الصليبية لم تكن ممكنة إلاّ بعد أن مهدت الكنيسة لها بعرض نظرية الحرب المقدسة a theory of holy war ، وكونت فرقة من الفرسان المسيحيين .

وبرغم كل ماقيل عن الذهاب لزيارة الأماكن المقدسة والحرب المقدسة ، فمن الخطأ الرغبة فى تفسير الدور الكبير الذى لعبه الفرسان فى الحملة الصليبية من منطلق الدين، وعلم النفس الجماعى والمفاهيم الأخلاقية المهنية المشتركة فقط . إذ كانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية القاسية مهمة أيضاً، وفى الواقع أكثر عما هو مسلّم به فى العادة فى العصر الحاضر . وقد مال المتخصصون فى السنوات القلائل الماضية ، إلى عدم الاهتمام بهذا الجانب من المسألة، برغم أنها مهمة بكل تأكيد . وبدلاً من ذلك قيل الكثير عن حب الفارس للمغامرة ، وعن شغفه فى الحصول على الغنائم . ففى الشرق كانت الفرصة متاحة للفارس ، فى الحصول على ثروة سريعة ، وفى ارتقاء وضع أعلى بكثير عما كان يأمل إذا ماقدّر له البقاء فى وطنه . إن الغزو النورماندى إلى إنجلترا قد

أوضح ما يمكن عمله . ولاريب أن بعض قادة الحملة الصليبية الأولى ، فكروا فى مثـل تلك النتائج ، وبخاصة النورمان فى جنوب إيطاليا ، وتنكريد Tancred ويوهيموند مـن تارانتو Bohemund of Taranto ، وربما روبرت النورماندى أيضاً . ومع ذلك فقد وعد البابا أوربا نفسه، فى كليرمون بأن كل أولئك الذين يشاركون فى الحملة الصليبية سـوف ينعمون بامتلاك الأراضى التى يستولون عليها دون منازع .

اشترك كل الأفراد فى صفتين بارزتين هما حب المغامرة ، والتلهف على الغنائم . ومن ناحية ثانية ، فبفضل الكتاب الذى ألفه كل مـن ديونـى وهـيرليهى Duby and Herlihy عرفنا المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى تتعلق بطبقة الفرسـان بأجمعهـا والتى دفعتها للنظر إلى الحملة الصليبية كمخرج . (١٢) وقد حاول هيرليهى البرهنه على وجود أزمة فى الاقتصاد الزراعى، فى جنوب فرنسا وإيطاليا، بدأت حوالى سنة ٨٥٠م، وتطورت من سئ إلى أسوأ باطراد ، حتى وصلت إلى ذروة السوء، حوالى سنة ١٠٠٠م. ولعدة سنوات تلت عام ١٠٠٠ م لدينا أوصاف تاريخية قوية ، عن مجاعـات متكـررة ، يمكن تفسيرها ، نتيجة لفشل الإنتاج الزراعى فى مواكبة ازديـاد السكان . كما أن بقـاء العادة الكارولنجية الخاصة بتوزيع الإرث على كل الورثة سائدة، أدى إلى إعاقة الجهـود لزيادة الإنتاج . ثم بدأ الموقف يتحسن بعد سنة ١٠٠٠م رويداً رويداً ، فى بداية الأمـر ، ثم بقوة دافعة متجمعة بعد ذلك . وتحقق ذلك ، فى الدرجة الأولى ، بالتخلص من عـادة تقسيم الأرض الزراعية إلى قطع أصغر من خمسين فدان . ولم يكن هناك تخفيف للضغط السكانى . وبدأت الكنيسة وطبقة النبلاء ، فى شراء المحصول أو أكبر قدر ممكن منـه ، من ملاك الأراضى الصغار ، لكى يوجدوا مجموعات إقتصاديـة فعالّـة . وتـم اتخـاذ الإجراءات اللازمة لضمان عدم تفتيت الأراضى ، التى تم ضمها إلى بعضها البعـض ، وصارت قطعة واحدة . وفعلت طبقات الفرسان – طبقات الصليبيين بدون منازع – هـذا بطرق مختلفة. وفى شمال فرنسا طوروا نظام الميراث ، حتى أصبح الابن الأكبر يـرث الإرث كله. وكان على الأبناء الأصغر، رعاية أنفسهم بأنفسهم ، سواء بدخولهم الكنيسـة، أو باختيار العمل العسكرى كوسيلة لكسب عيشهم . ومن الواضح أن الحـرب الصليبيـة كانت بمثابة نوع من صمام أمن لطبقة فرسـان ازدادت أعدادها باستمرار . وفى سـياق

هـذه المعلومات علينا أن ندرك حب الفـرد للمغامرة أو رغبته الجامحة للحصول علـى الغنيمة .

وأقيمت أشكال مختلفة للملكية المشتركة فى إيطاليا ، وفـى منطقـة اللـوار Loire جنوب فرنسا ، والأهم من ذلك فى إقليم بورجوندى Burgundy ، لتجنب تفتيـت الأرض الزراعية . ولدينا معرفة جيدة بصفـة خاصـة عـن أحـوال أهـالى الماكونيـاس the Maconnias *حيث كانت هناك رابطة قوية جداً ربطت الفرد بالأسرة. وفى ذلك المكان كانت الأرض المملوكة ملكية خاصة دون ارتباطات بأحـد allodial land تمثل ملكيـة مشتركة دائمة تقريباً بين أفراد الأسرة الواحدة . وكان هذا نظاماً قانونيـاً عـرف باسم التعايش وفقاً لمبادئ الأخوة (fraternitia) . وظل هذا النظام قائماً قوياً وفعالاً ، حتـى الجيل الثانى ، ومنع عملية تقسيم أرضى الملكية الخاصة . وانتقلت عملية تنظيـم الإرث إلى الإخوة المشاركين فى الملكية ، أو كانت تقسـم الأرض ، أحيانـا ، بيـن الأعمـام والأخوال، وأبناء الإخوة والأخوات، بل والأشخاص الذين لهم حق شرعى فى المشـاركة فى الملكية. وحتى لو كانت حصة الفرد الواحد بصفة إجمالية مجرد حصة صغيرة ، فقد ظلت الجماعة على قدر من الثراء يسمح لها بالإنفاق على فارسين مزوديـن بفرسـين . وبهذه الوسيلة صارت المنزلة الاجتماعية للأسرة قائمة ، وفى الوقت نفسة ، تـم اتخـاذ الترتيبات لبقاء النظام الإدارى مستمراً ، دون عائق ، على يد الذين ظلوا يقيمـون فـى عزبتهم الزراعية. بيد أن ذلك كان عرفاً ، جرى سريانه ، عندما كان الفرد ، يسلم نفسـه لنظام محكم – ويقوم رئيس العائلة بالتنظـيم والتوجيه ، ويبدو أن ذلـك التنظيـم كـان صارماً ، على نحو يفوق العادة ، فى أواخر القرن الحادى عشر . وكان ذلك يتـم بكـل وضوح ، فى المسائل المتعلقة بالزواج ، نظراً لأن نجاح التعايش وفقـاً لمبـادئ نظـام الأخوة، اعتمد على عدد المشاركين فى الملكية ، وذلك لأسباب إقتصادية . وعلى عكـس إتجاه ازدياد عدد السكان بصفة عامة ، فإن عدد الأطفال يجب أن يظل ثابتاً تقريباً .

---

* نسبة إلى مدينة ماكون Macon فى جنوب بورجوندى بفرنسا (الشاعر) .

وفى ذلك الحين كانت هناك طريقة واحدة فقط فعّالة حقاً لتحقيق ذلك : وهى التقييد المتعمد للزواج . وبرغم ما تقدم ، فإذا ما ظل هناك كثير من الورثة المحتملين ، تم إلحاق بعضهم بالأديرة ، أو ضمهم لجماعات رجال الكنيسة الملحقين بالكاتدرائية . والواقع أنه من الممكن تتبع أبعاد تلك السياسات التى مارستها أسر الماكونياس .

ومن ثم فإن استمرار المركز الاقتصادى والاجتماعى للأسرة ، وبعبارة أخرى مستوى المعيشة ، استلزم قدراً كبيراً من التضحيات من جانب الفرد . وربما شعر أصحاب وجهات النظر المستقلة بالإحباط بسبب تلك السلطة الأسرية المتزمتة ، وهم الذين ليسوا على استعداد للانحناء لتلك الشروط القاسية للجماعة ، كما أنهم ليسوا مستعدين للتخلى عن حقهم فى الزواج أيضا . والمخرج الوحيد بالانضمام إلى الكنيسة ، بيد أن ذلك كان يعنى استبدال جماعة بجماعة أخرى. وكانت الحملة الصليبية صمام أمن كبير آخر ، حيث قدمت فرصة حقيقية للهروب من نفوذ ووصاية نظام الأخوة ، وكما كانت تلك الحملة فرصة حقيقية للفرد ليصبح مستقلاً . بيد أنه إذا ماكان هناك بعض الرجال الذين انضموا إلى حملة صليبية ، لكى يفروا من نظام مجتمع الأسرة ، القائم على القهر ، ولكى يحققوا لأنفسهم حياة أكثر حرية، فإن هناك آخرون، الذين اختاروا الذهاب لخدمة المصالح العليا للأسرة ، وبخاصة فى حالة وجود عدد كبير من الورثة ، وحيث يبدو أن تفتيت الملكية لا مفر منه ، إذا لم يغادر بعضهم الوطن . وحدث مثل ذلك فى أسرة الماكونياس التى كانت أصولها مجرية . فكانت تلك الأسرة تتكون من خمسة رجال. انخرط اثنان منهم فى سلك الرهبنة ، وذهب اثنان إلى بيت المقدس ولم يرجعا. وبذلك أصبح هومبرت Humbert ، الذى بقى فى موطنه الوريث الوحيد للممتلكات الزراعية. وفى ١١٤٧م شارك أحد أحفاد هوبرت ، فى الحملة الصليبية الثانية ، تاركاً الإرث كله، إلى أخيه . ونتيجة لذلك ظلت الأسرة المجرية the la Hongre Family فى رغد من العيش فى بداية القرن الثالث عشر، فى حين أن الأسر الأخرى ، من طبقتهم ، كانت قد بدأت تعانى بالفعل من جراء نقص المواد الأساسية ، بسبب التطورات الاقتصادية الجديدة. وبلا مقابل كان التشريع الباكر لقوانين مملكة بيت المقدس الصليبية مناسباً بوضوح لاحتياجات أصحاب الروابط الأسرية القوية ، على مثال الذين عاشوا وفقاً لمبادئ نظام

الأخوة . فكان من الممكن أن تنتقل ملكية الأراضى الزراعية التى تحــت قبضــة أســر الفرسان إلى البنات وإلى ذوى القربى أيضاً ، وقبيل ١١٥٠م كان حق الإرث قاصراً على الأخلاف المباشرين . وجرت العادة الباكرة عن عمد بوضــوح علــى إقنــاع الفرســان بالاستقرار فى الأرض المقدسة ، ومن ثم كان لابد قبول الشروط الأساسية لنظام الأخوة . فعند موت الصليبى ، كان فى استطاعة أسرته فى الوطن، اختيار فرد آخر ليضع يديــه على الإرث فى فلسطين ، فى نطاق مبادئ نظام الأخوة .

ليس من قبيل المصادفة أن سكان إقليم الماكونياى كانت لهم أهمية كبرى فى هــذه الدراسة . إذ قوبلت دعوة أوربان الثانى باستجابة جديرة بالملاحظة والذكــر . ونعــرف أسماء كثير من المشاركين فى الحرب الصليبية الذين شاركوا من هذا الجزء من أوربــا (المنطقة التى بها مدينة ماكو Macon فى جنوب بوجوندى بفرنسا) ، فى النصــف الأول من القرن الثانى عشر . وليس هذا مجرد نتيجة وجود دليل بمحض الصدفة. إنها تعكــس الحالة الاجتماعية والاقتصادية لطبقة كانت تنظر إلى الحملة الصليبية على أنهــا وســيلة لحل المشكلات المادية أو – أقل مما يقال – والتى كانت وفقاً لهذه الحالة ، على استعداد كلية ، للتفكير فى المشاركة فى حملة صليبية .

ويوجد حافز آخر للمشاركة فى حملة صليبية يظل يؤخذ بعين الاعتبار ، ذلك لأنــه يجعل كل الدوافع الأخرى أقل أهمية عند المقارنة. إنه مفهوم المكافأة، التى كان يحصــل عليها كل من شارك فى حملة صليبية ضد المسلمين فى الشرق ، وهى صيغــة غفــران كنسى ، تمنحه الكنيسة الكاثوليكية، يترتب عليه غفران كل ما تقدم من ذنب ، وماتــأخر ، مع دخول الجنة بغير حساب the crusading indulgence . (١٣) وفى شريعة القــانون الكنسى الكاثوليكى الرومانى الحديث ، من الممكن الحصول على الغفران الكنسى ، بعــد إتمام عملية صفح كامل عن الخطايا. فيجب على المذنب الراغب فى التوبة ، أن يعترف أولاً ، ثم يتلقى غفــران حتى يمكن إلغاء الذنب، وبدلاً من المعاناة الأبديــة ، عليــه أن يعانى من عقوبات مؤقتة فحسب وفقاً للذنب . (ومن المهم الملاحظة بأن تلك العقوبــات من الممكن أن تحــدث ، إما فى الحــياة الدنيا أو فى الآخــرة ، بما فى ذلــك المــرور

على المطهر)*. وعـــلاوة على ذلك ، ففى مقــابل الحصول على الغفران الكنسى ، فمن الممكن أن تمنحه الكنيسة الصفح عن كل أو جزء من الغفران ، اعتماداً على إذا ما كـــان الغفران الكنسى كاملاً أم لا . وهذا عفو قانونى بنعمة إلهية ، مبنى على حق الكنيســة فى سلطتها على المفاتيح، وهو منفصل تماما عن سر التوبة ، the sacrament of penance. وكان الغفران الكنسى الذى تمنحه الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى حملة صليبيــة ، يؤثر على العقوبات القانونية التى تفرضها الكنيسة – وهى العقوبات التى تفرض للتكفــير عن الذنوب – والعقوبات الدنيوية التى يفرضها الله ، نظراً لأن الكنيسة، فى اســتطاعتها تقديم العمل التكفيرى البديل من " خزانـــة الحســنات Treasury of Merits " – وهـــى مستودع للخيرات لا ينضب ، جمعها المسيح، وأضاف عليها القديسون على نطاق يفـــوق بكثير ما يطلب منها . ولاريب أن الغفران الكنسى الذى تمنحة الكنيسة الكاثوليكية ، لكـــل من شارك فى حملة صليبية، كان له نتيجة تفوق قدرة المعرفة البشرية أمام الله{ سبحانه وتعالى } (in Foro Dei) . وأينما اختلف علماء اللاهوت ، مع بعضهم البعض ، ويكون ذلك على مسألة إذا ما استطاع المرء ضمان أن هذا العمل الكنسى الشـــرعى ، ســيؤتى بنتيجة إيجابية أمام الله { سبحانه وتعالى } أو أنه العكس . وفى هذه الحالة ، فإن النتيجة الإيجابية يتم التأكيد عليها على نحو غير مباشر ومن الناحية المعنوية فحسب ، بقدر مـــا تضمن الكنيسة ، بأن عـــرض العمل التكفيرى البديل ، كان للإعفاء مـــن كـــل العقوبـــة الواجبة الأداء ، ونعنى بذلك بأن المذنب لايمكن أن يحرز أى نتيجة أفضل، حتى لو أنـــه نفسه قد قام بأداء عمل تكفيرى كامل . ولكن عندما نفكر فى الغفرانات الباكرة ، وبخاصة غفرانات الحملة الصليبية الأولى ، فمن الأهمية بمكان ، تذكـــر أن هـــذا المبـــدأ الدينـــى المنطقى ، كان تنظيماً تالياً لإعطاء الوزن اللاهوتى لعادات كانت مـــن الناحيـــة العمليـــة موجودة من قبل .

وبعد مرور وقت على الحملـــة الصليبية الأولـــى ، اســـتنبط رجـــال اللاهـــوت ، وأولهم Hugh of St. Victor ، الفرق بين الشعور بالذنب ، والعقاب المناســـب للذنب ،

* المطهر purgatory وهو موطن تطهر نفوس الأحرار بعد الموت بعـــذاب محـــدود الأجـــل ، وفقـــاً للمعتقدات النصرانية . (الشاعر) .

والذى له أهمية خاصة حاسمة بالنسبة لنظرية الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشاركين فى الحملة الصليبية . وليس قبل حوالى ١٢٣٠م ، كان المبدأ الدينى الخاص بـ " خزانة الحسنات Treasury of Merits " ، الذى قدم بديلاً مساوياً إذا ماتم الصفح عن العقوبات ، الذى صاغه هوج من شير Hugh of St. Cher. إن المسائل المفصلة للصفات المميزة الدقيقة للغفران الكنسى ، الذى كانت تمنحه الكنيسة الكاثوليكية ، للمشاركين فى الحرب الصليبية والتبرئة التى يحملها ذلك الغفران، كانت جميعها موضوع جدل عنيف طوال القرن الثانى عشر ، وأوائل القرن الثالث عشر . وحيث وجد علماء اللاهوت ، كثيراً من الغموض ، فقد كانت هناك فرصة ضئيلة عن الرأى العام ، بصفته على معرفة جيدة . ويجب أن تأخذ أى دراسة للحروب الصليبية ، هذه النقطة الأساسية فى الاعتبار الكامل ، أكثر مما هو مألوف حتى الآن . وعند تحديد أهمية تأثير الغفران الكنسى ، الذى كانت تمنحه الكنيسة الكاثوليكية لمن شارك فى حملة صليبية ، فإن المهم هو نظرة الناس إلى ذلك الغفران أو اعتقادهم فيه ، وليس فى حقيقته من الناحية الواقعية . ومن الجدير بالذكر أن المناقشة التى دارت حول الغفرانات الكنسية ، التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية لمن شارك فى حملة صليبية ، والتى بدأت حوالى ١١٣٠ م ، اكتنفها الحماس والنشاط، على أساس أنه قد تم إستخدامها على نحو غير سليم . وطالما لم تكن المساوئ والمفاسد صارخة وشديدة الوضوح ، فإن الناس نظروا إلى الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشاركين فى الحروب الصليبية، على أنه فكرة مقبولة ، دون إجهاد أنفسهم كثيراً حول لاهوتية الموضوع . ويجب علينا أن نتذكر دائماً أن الإعلان عن الغفران الكنسى الصليبى الأول ، حدث فى جو كان خالياً من القيود المفروضة، إما عن طريق القرار الكنسى الرسمى ، أو عن طريق المناقشة اللاهوتية الدقيقة . إن الطريقة الوحيدة التى يمكن بها تعريف العناصر الجديدة ، كانت عن طريق مقارنتها بالممارسات التوبية ، التى كانت تحدث فى الأزمنة السابقة على ظهور الغفران الكنسى ، الذى كانت تمنحه الكنيسة الكاثوليكية للمشاركين فى حملة صليبية .

والواقع أنه يجب النظر إلى الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشاركين فى الحملة الصليبية الأولى ومابعدها ، على أنه تطوير للنظام الخاص بأعمال

التوبة قبل ظهور الحروب الصليبية ، وكان ذلك فى الأصل ينقسم إلى ثـــلاث مراحـــل : الاعتراف ، والتكفير عن الخطيئة ، وترويض النفس على الخير ، (ونعنى بذلك الإعتراف للمرة الثانية بالمشاركة فى الصلات الحميمة مع الجميع) وكانت النظرة إلى التكفير عــــن الخطايا ، على أنه العنصر الذى يؤدى إلى محو الخطايا ، ومن ثم يجعل ترويض النفـــس على فعل الخير والتعايش الودى مع الآخرين ممكناً. وفى ذلك الحين لم يكن هناك فـــرق بين الصفح عن الذنب، والصفح عن العقوبة . ومن حيث المبدأ ، فإن الكفارة لا بـــد وأن تكون مساوية للإثم الذى تم اقترافه. وعلى المرء أن يدفع جنيها مقابل جنيـــه ، إذا جـــاز التعبير . ولكن من الواضح أن المسألة كانت مجرد صدفه سواء أكان هناك كفارة مساوية تماما أم لا : ومن ثم فبالإضافة إلى ذلك ، كان لا بد من وجود عقوبـــات دنيويـــة وفقـــاً للذنب، وهى التى فرضها الله . ونظراً لأن المرء كان يخاف عقاب الله الدنيـــوى أكـــثر بكثير من الكفارة الدنيوية الممكنة، فقد ظهر نظام تكفيرى شديد القسوة، وتطور للـــــرأى القائل ، بأنه كلما إشتدت آلام الكفارة فى هذه الحياة الدنيا ، كلما كان الحساب قليـــلاً فـــى الآخرة. ولما كانت الذنوب الكبرى فقط خاضعة للكفارة بمعرفة الكنيسة– وهـــذه حقيقـــة حتى القرن السادس الميلادى – فقد ساعد ذلك على وجود صرامة فى التطبيـــق العملـــى للعمل التوبى. بل وعندما تغير هذا لأسباب لا يمكن بحثها ومناقشتها هنا ، إلـــى حـــد أن الكفارة ، كان لابد من أدائها ، عن الخطايا العرضية أيضاً، فإن النظام القديم ظل ســـارى المفعول . ولكن الآن ، فإن الأعمال الشاقة القاسية ، والكفارات طويلة الأمد والتى ظـــل المذنب خلالها محروماً من الأسرار المقدسة ، لم تعد مناسبة دائماً ، وكان من المحتـــم ، ظهور اتجاه نحو نظام للعقاب أكثر اعتدالاً ، وأكثر اختلافاً. وفى بادئ الأمر ، كان ذلـــك يتم باللجؤ إلى ، إبدال العقوبة ، والتخليص من الخطيئة بتضحية يقوم بها لمصلحة الآثم ، ونعنى بذلك ، أن يتم استبدال أسلوب عقوبة بأخرى ، والتى كانت لم تزل مساوية للخطيئة التى تم اقترافها من الناحية النظرية. وإذا كانت المدة أقصر ، فمن المفـــترض أن تكـــون أشد قسوة أيضاً ، بيد أنه من الناحية العملية تميل إلى أن تكون أكـــثر رفقـــاً وتســـاهلاً . وهناك قوائم العقوبات وفقـــاً للذنوب المختلفة ، وقد تم ترتيبها على نمط تحـــديد الذنـــب والعقوبة المناسبة لذلك الذنب ، فى أعمال التوبـــة " Penitentials " ، بالإضافـــة إلـــى

التخليصات المناسبة من الخطايا ، بتضحية تتم لمصلحة الآثم . وفى ذلك التخليصات من الخطايا وعواقبها بتضحية لمصلحة الآثم redemptions نجد أحد الجذور الأساسية للغفران الكنسى، الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية، إبان الحروب الصليبية the crusading indulgence . وفى القرن الحادى عشر ، أصبح النظام أكثر اعتدالاً ، حتى ذلك الحين، عندما أصبح من المألوف السماح بترويض النفس ، أن يحدث بمجرد أن يكون الشخص، قد بدأ كفارته ، برغم أنه كان عليه أن يكملها. وهكذا فإن الحرم الكنسى الطويل الأمد – وهو أحد النتائج المخيفة والرهيبة للخطيئة – قد تم إبطاله وإلغائه . وكان هذا التحول يعنى أيضاً انتهاء العادة القديمة ، الخاصة بالترويض الكلى للنفس. وحل الغفران الكنسى محله ، وكان هذا الغفران الكنسى ، يتم منحه ، فور الانتهاء من الاعتراف للكاهن . وتضمن ذلك المصالحة مع الله والكنيسة ، ونعنى بذلك المغفرة من الشعور بالذنب ، بيد أن ذلك لا يعنى الصفح الكامل عن العقوبة وفقاً للذنب. وبرغم ذلك فقد ذهب الغفران الكنسى absolution أبعد من التخليص من خطيئة وعواقبها بتضحية لمصلحة الآثم redemption ، ومن ثم إقترب ذلك الغفران الكنسى من الغفران الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية لمن شارك فى الحروب الصليبية indulgence ، وفى ذلك قدمت الكنيسة حجة قوية للغفران a powerful plea for pardon وعلى ذلك كان المقصود تأثيراً فائقاً على الأقل . وحتى ذلك الحين ، لم يكن ذلك عملاً شرعياً ، وعلى أية حال ، فلم يكن صفحاً عن عقوبة ، وتم منح هذا الصفح وفقاً للسر المقدس للكفارة the sacrament of penance بيد أنه من هنا ، كان ذلك مجرد خطوة قصيرة نحو الغفران الكنسى ، الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى الحملة الصليبية indulgence ، ونعنى بذلك صفح مؤثر بلا ريب ، ومحدد بوضوح عن الكفارة التى فرضتها الكنيسة . وعن طريق عفو عام ، فقد يصدر السماح من أجل أثر فائق أمام الله سبحانه وتعالى in Foro Dei بناء على طلب الكنيسة . ومن ثم يجعل هذا من الممكن اختصار الكفارة التى فرضتها الكنيسة . ووفقاً لما ذكره بوشمان Poschmann ، أحد الخبراء الكاثوليك المرموقين فى هذا الموضوع ، " فإن الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشاركة فى الحرب الصليبية ، لم يعد مجرد جزء من المكافأة فى الحياة الآخرة ، وإنما كان أيضاً شعورا

غامراً بالراحة والارتياح فى هذه الحياة الدنيا" . إن الصورة الخاصة للغفران الكنسى ، الذى منحته الكنسية الكاثوليكية للمشاركة فى الحرب الصليبية ، كانت فى أن مفهوم التكافؤ لم يعد متقيداً بالناحية التطبيقية. وفيما بعد تطور الاعتقاد فى ، " خزانة الحسنات Treasury of Merits " ، لكى يتم تبرير هذا التطبيق .

ومن الواضح أن فكرة الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشارك فى الحرب الصليبية ، أصبحت نافذة المفعول ، دون ريب ، عندما كانت مرتبطة بالزيارة إلى بيت المقدس . وبين الفينة والفينة ، أصدرت البابوية قرارات Pronouncements، قبل قيام الحروب الصليبية ، وكانت تلك القرارات ، شبيهة إلى حد ما ، بالغفرانات الكنسية التى صدرت عن الكنيسة الكاثوليكية لمن شارك فى الحرب الصليبية ، بيد أن تلك القرارات التى أصدرتها الكنيسة ، كانت فى الواقع ، غفرانات كنيسة .فعلى سبيل المثال ، وعد البابا الإسكندر الثانى المقاتلين الذين شاركوا ، فى حملة (بربشتر) Barbastro ، سنة ١٠٦٣ م ، بإلغاء الكفارة a remission of penance . وبالإضافة إلى ذلك ، أكد لهم أيضاً عزمه على إلغاء العقوبات الدنيوية حسب الذنب أيضاً . ولقد جرت محاولات لإثبات أن خطاب البابا ، كان خطاباً مزوراً ، بيد أنه فى الواقع كان غفراناً كنسياً تاماً منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشاركة فى حملة صليبية ، وكان غفراناً حقيقياً تماما. ومع ذلك فقد كان له تأثير ضعيف جداً لأسباب عديدة . ذلك لأنه كان موجها إلى مجموعة أصغر بكثير من المجموعة التى عرض عليها الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى الحملة الصليبية سنة ١٠٩٥م. وانطبق عرض البابا الاسكندر الثانى على أولئك الذين قد قرروا بالفعل المشاركة فى الحملة الإسبانية، وترك ذلك البابا العرض مفتوحاً حتى يمكن أن تمتد شروط الغفران الذى كانت تمنحه الكنيسة الكاثوليكية ، لمن شارك فى الحملة الصليبية ، ليشمل هؤلاء الذين شاركوا فيما بعد . وعلاوة على ذلك ، فإن الممارسة للعمل التكفيرى الطبيعى صار مرتبطاً بالكفارة التى فرضتها الكنيسة منذ البداية ، من الناحية العرفية على الأقل، قبل اعتبارها ملغية بفعل وجود الغفران الكنسى الذى منحته الكنسية الكاثوليكية لمن شارك فى حرب صليبية indulgence . وأخيراً فالحملة العسكرية فى أسبانيا ، لم يكن لها الإغراء الكبير نفسه ، الذى كان عند الحملة

الصليبية الأولى إلى الأرض المقدسة . ويوضح هذا المثال ، سبب الإهتمام بالنتائج الكاملة للغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية ، لمن شارك فى حرب صليبية ، عندما ارتبط ذلك الغفران بالحج إلى بيت المقدس .

ومن سياق هذا الكلام ، من المهم الاعتقاد بأن الرحلة التكفيرية إلى بيت المقدس the penitential journey to jerusalem ، جديرة بالتقدير ومفيدة بصفة خاصة . ومن الناحية النظرية ، كانت الكنيسة قد تبنت ، على الدوام أن فكرة الانتقال من مكان إلى آخر لم تقرب أى إنسان من الله ، بيد أنه من المتعذر القضاء على الاعتقاد الشائع ، فى أهمية الحج إلى بيت المقدس . وتأكدت شعبية الحج إلى بيت المقدس من اللحظة التى تحركت فيها المصالحة مع الكنيسة إلى الأمام ، إلى بداية العمل التكفيرى ، وهو الحج إذا صح ذلك. وبالطبع انطبق ذلك على أى رحلة حج تكفيرى، ذلك لأن التحدار (أى انتقال العادات والمعتقدات من جيل إلى جيل) الخاص بالأماكن المقدسة ، هو الذى أعطى بيت المقدس أهميتها الخاصة. وهناك دليل ، يرجع إلى القرن الثامن الميلادى ، للاعتقاد الخاص بالصفح عن الخطايا ، الذى يمكن الحصول عليه ، عند زيارة كنيسة القبر المقدس . غير أن أولئك الذين شاركوا فى الاعتقاد ، فى أهمية الذهاب للحج فى بيت المقدس ، قد تعرضوا للشجب فى مجمع شالون Chalons ٨١٣ م . وكان المجمع معتمداً على نص مستشهد له عن جيروم Jerome ، الذى كان قد قال بأن ممارسة الحياة الفاضلة فى بيت المقدس هى التى تستحق الثناء والتمجيد وليست مشاهدة المدينة . والواقع أنه حتى فى نظر جيروم ، فإن هذا لم يكن له أهمية تطهيرية خاصة . وذكر جيروم فى كتاباته أنه قد ذهب إلى فلسطين ، لكى يدرس الكتاب المقدس على نحو أفضل ، وليس للحصول على المزايا الروحية . بيد أنه نظراً لأن المجمع ، استشهد بالتعبير الأول لجيروم ، ولم يستشهد بتعقيبة عليه ، فمن الممكن الإعتقاد، بأن كلاً من جيروم والمجمع كانا على استعداد ، لتقديم أهمية تطهيرية غير مباشرة ، للرحلة إلى بيت المقدس ، ويعنى بذلك ، عندما تؤدى تلك الرحلة ، إلى الإقامة هناك ، فترة طويلة من الوقت . وفيما بعد فشلت الكنيسة فشلاً ذريعاً ، فى مقاومة الإعتقاد بأن الحج ، إلى بيت المقدس، كان مساوياً ، للغفران الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى حملة صليبية

an indulgence . والواقع أن الكنيسة سلمت بالغفرانات الجزئية Partial indulgences من الناحية الرسمية ، مثلما حدث سنة الغفران الذى أقره البابا الاسكندر الثالث . وكـــان هذا إبان ذروة الحروب الصليبية ، عندما حصل كل من شارك فى حملة صليبيـــة علـــى غفران كنسى كامل تماما ، أما الحاج المسلح ، فقد حصل على مجرد غفران جزئى .

وهناك بعض الأسباب الوجيهة ، لافتراض أن الحج إلى بيت المقدس ، فى الفـــترة التى سبقت عهد الحرب الصليبية ، كان لها قدر كبير فى المكانة الدينية يفوق الذهاب لأى مكان آخر ، لدرجة أن أولئك الذين شاركوا فيه ، حصلوا على وعود على شكل الغفرانات التى حصل عليها الذين شاركوا فى الحملات الصليبية إلى حد ما . ويرجع الفضل للبابـــا أوربان الثانى لأنه أصدر القرارالأول بخصوص هذا الموضوع . وفـــى ســنة ١٠٨٩ م أعاد إحياء أبرشية تراجونا Tarragona وأمر طبقة النبـــلاء الكاتالانيـــة the Catalan nobility وطبقة رجال الدين بالمساعدة لإعادة بناء المدينة . ثم أضاف أن هؤلاء الذيـــن فى نيتهم التقوى والتوبة ، وعقدوا العزم على الذهاب إلى بيت المقـــدس ننصحهـــم بـــأن الأموال التى أعدوها للإنفاق على حجهم إلى بيت المقدس أن يحولوها إلى إعـــادة بنـــاء كنيسة تراجونا. وبهذه الطريقة سوف تصبح المدينة مشهورة كحصن للعالم المسيحى فـــى مواجهة المسلمين . وأن كل فرد يعمل بهذه النصيحة سوف يحصل على نفـــس الغفـــران الكنسى الذى كان سيحصل عليه ، لو أنه قد ذهب إلى بيت المقدس . (وآنذاك ، مثل الآن، كان من الممكن إستخدام كلمة غفران كنسى " indulgence " ، فى معنى فنـــى دقيـــق ، وأيضاً فى معنى عام شامل أكثر بكثير). إن الحكم النهائى للأمر البابوى ، جرت العـــادة على معالجته ، بقدر كبير من الشك ، بمعرفة الباحثين ، فـــى المعـــاملات الدبلوماســية للبابوية ، بيد أن أصالتها قد ثبتت مؤخراً . ومع ذلك يعد من الممكن التحقـــق مـــن قـــدر الشمول للمكافأة التى قدرت للحجاج الذين لم يذهبوا إلـــى بيـــت المقـــدس ، وإســـتبدلوه بالمساعدة فى إعادة بناء مدينة تاراجونا . ولاريب فى أنه لا يوجد تبرير لتســـمية ذلـــك غفرانا كنســـياً كاملاً a plenary indulgence .

إن أهمية تراجونا التى تعود إلى أصول الحروب الصليبية واضحـــة – برغـــم أن المؤرخ إردمان Erdmann هو الوحيد الذى أعطاها الاهتمام الذى تستحقه. وهـــنا فالفكرة

المسيحية عن الحج إلى الأماكن المقدسة مرتبطة بمشروع الهدف منه تشجيع مقاومة المسلمين . وقبل ست سنوات من انعقاد مجمع كليرمون كان البابا قد منح بالفعل غفرانا كنسياً an indulgence ، وكان غفراناً مقابل شن حرب ضد المسلمين the heathen . ومن المفروض أن الحرب الصليبية كانت عملية هجومية ، فى حين أن إعادة تعمير تراجونا كان عملاً دفاعياً فى طبيعته. غير أن تلك المعارضة لا يمكن تحملها وتأييدها . وعندما عاد البابا أوربان إلى الموضوع نفسه ، فيما بين ١٠٩٦ ، ١٠٩٩م ، اقترح على بعض الكونتات الكاتالان Catalan ، بضرورة المساعدة فى العمل بمدينة تراجونا ، لكى يحصلوا على غفران الخطايا remissio peccatorum . وحاول البابا أوربان الثانى البرهنة على أنه ، طالما أن فرسان البلاد الأخرى ، قد قرروا بالإجماع مساعدة الكنيسة فى آسيا ، وتحرير إخوانهم من استعباد المسلمين لهم ، فمن الصواب ، أنهم بدورهم يجب عليهم مساعدة الكنيسة فى كاتالونيا Catalonia ، ضد هجمات المسلمين هناك . ثم قدم البابا الغفران نفسه ، الذى كان قد منحه المشاركين فى حرب ضد صليبية ، لكل الذين قتلوا فى الدفاع عن تراجونا Tarragona . ومن الصحيح أنه فى هذه الرسالة نسمع عن مكافأة لأولئك الذين قتلوا فحسب ، بيد أن تراجونا ، لا يمكن أن يعاد بناؤها بمعرفة المرشحين للاستشهاد وحدهم . إن الغالبية العظمى من أولئك الراغبين فى القتال ، أرادوا الحصول على الغفران الكنسى ، الذى منحته الكنيسة للمشاركين فى الحرب الصليبية an indulgence ، والعودة بسلام إلى ديارهم ، وهذه الأغلبية هى التى حثها أوربان على الذهاب إلى تراجونا . ومن الواضح أن أولئك الذين كتبت لهم النجاة ، بعد أن شاركوا فى الدفاع عن تراجونا، لابد وأنهم حصلوا على الغفران ذاته الذى حصل عليه ، من شارك فى حملة صليبية ، وعاد سالما بعد مشاركته فى تلك الحملة . وإذا لم يكن الأمر كما ذكرنا ، لكان منع أبناء أسبانيا من الذهاب للمشاركة فى حملة صليبية إلى بيت المقدس ، عملاً ينطوى على عدم الإحساس بالمسئولية – لأنه على سبيل المثال ، فعل ذلك البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٩م، عندما أعاد رئيس أساقفة طليطلة Toledo ، إلى موطنه ، على أساس أن لديه فى بلده ، الكثير من المسلمين ، للتصدى لقتالهم. وبعبارة أخرى ، لم يكن موقف أوربان من إعادة تعمير

تراجونا قد تغير . وفى سنة ١٠٨٩ م ، رأى البابا أوربان الثانى ، أن الذهاب إلى إعادة تعمير تراجونا مساوياً للحج إلى الأراضى المقدسة، وفيما بعد إعتبر ذلك مساوياً للمشاركة فى حملة صليبية . وحقيقة أنه وعد فى بداية الأمر بمنح المشاركة فى إعادة تعمير تراجونا مكافآة حاج ، ثم منح ذلك المشارك . فيما بعد غفران المشارك فى حملة صليبية ، يعطينا الكثير عن الطريقة التى كان يفكر بها البابا أوربان الثانى . وبالنسبة إليه كانت الحرب الصليبية عملية إمتداد للحج إلى الاراضى المقدسة .

وإقترب المؤرخ إردمان Erdmann من تلك الحقائق بطريقة مختلفة إلى حد ما. إذ اعتقد أن فكرة حرب مقدسة فروسية ومسيحية ، كانت فى طليعة أفكار البابا أوربان ، وأن الحج إلى بيت المقدس ، كان مجرد حدثاً عرضياً . ويبدو أن العكس كان صحيحاً على الأرجح، ويلائم على نحو أفضل منطق الأحوال والحوادث التاريخية . فمن السهل تسليح حاج ، والسعى من أجل تحقيق أهداف جديدة تماما ، على الرغم من المحافظة على الأعراف والتقاليد القديمة، بيد أنه من الصعب إجبار محارب على تقمص تقاليد وعادات الحاج ، مهما كانت قدسية القضية التى يحارب من أجلها. وذكر المؤرخ إردمان ، أن وجهة الكنيسة ، هى أن الحادثة المهمة الحاسمة فى كليرمون ، لم تكن الغفران الكنسى الممنوح لمن شارك فى الحرب الصليبية ، وإنما إضفاء الصفة العسكرية على عملية الحج إلى بيت المقدس ، والجزاء الكنسى مقابل هذه العملية. فالمشارك فى حزب صليبية حاج أرفع مقاماً ومنزلة ، وهو حاج يتمتع بشرف حمل السلاح . فهذا المشارك فى حرب صليبية يقف فى درجة أعلى من الحاج الذى يحمل السلاح ، بيد أن الفرق بينهما درجة واحدة فقط . تلك كانت نظرة المعاصرين لهذا الموضوع . فسيف المشارك فى حرب صليبية كانت تتم مباركته بمعرفة قسيس ، وذلك برسم شارة الصليب عليه، والدعاء إلى الله أن يسبغ نعمته على حامله ، وكذلك تتم مباركة العكاز وصك الغفران – وهما رمزان تقليديان للحاج . وبعد ذلك بمائة عام ، استلم فريدريك بربروسا Frederick Barbarossa، وملكى فرنسا وإنجلترا العكاز وصك الغفران ، قبل بدء المشاركة فى حملة صليبية . وفى الحقيقة ، أشار المؤرخ إردمان Erdmann إلى أن التعبير الصليبى ، " جندى المسيح " أصبح يقصد به ، " كل من شارك فى حملة عسكرية باركتها الكنيسة الغربية " فى حين

أن كلمة " حاج " ، انسحبت إلى الخلف . ولاريب أن هذه الملاحظة لعبت دوراً جديراً بالاعتبار ، في رأي أردمان العلمي القائل بأن الحج إلى بيت المقدس كان عاملاً ثانوياً ، في أصول الحرب الصليبية . واعتمد إردمان على كتاب الحوليات وعلى رسائل الذين شاركوا في حملة صليبية. ومع ذلك فالحوليات دليل غير كاف . إذ أن تلك الحوليات كتبها رجال الكنيسة ، بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبين، وكان رجال الكنيسة ، يعملون على تطوير مفهوم الحرب الصليبية . وتصل إلينا أدلة لها قيمتها من وثائق الاقتراض التي ثبت فيها اقتراض الناس أموالاً من الكنيسة، لكي يغطوا نفقات مشاركتهم في الحروب الصليبية . فنادراً ماتظهر فكرة محاربة غير المسيحيين the heathen . وكتب المؤرخ المجهول لكتاب أعمال الفرنجة the Gesta Francorum عن شعب مقدونيا، "إنهم لم يصدقوا أننا حجاج ، وإنما ظنوا أننا قد أتينا لتدمير دورهم وتخريبها وقتلهم" . وفي الجيش الصليبي نفسه حدث تغيير مفاهيمي من حاج مسلح إلى جندي من أجل العقيدة. بيد أنه في ١٠٩٦ م ، عندما بدأ المسير – بصرف النظر عن مظاهر الإيمان بالبعث والحساب – انتمى كلية إلى التقليد العالمي الخاص بالحج إلى بيت المقدس.

هذا هو ما لا بد أن رآه أوربان الثاني . فاستغاثة تراجون Tarragona التي تكررت للمرة الثانية ، تظهر بوضوح أن فكرة البابا أوربان الثاني عن الحرب الصليبية ، كانت مبنية على الحج إلى بيت المقدس. وفي هذه الحالة ، تكون الحرب في أسبانيا قد أضافت إلى أصول الحروب الصليبية . وليس حدوث نجاح مدهش في أسبانيا ، هو الذي أقنع أوربان ، لتطبيق الربط بين زيارة الأراضي المقدسة والحرب ضد المسلمين . وبالرغم من الوعد البابوي المتعلق بالمكافأة الروحية ، والمساهمة المالية التي قدمها كونت برشلونه ، فإن إستغاثة تراجونا الأول ١٠٨٩م ، حققت القليل . وفي الواقع ، ساعد ذلك الإفتقار إلى النجاح، على إظهار أن الحج إلى بيت المقدس كان أكثر جاذبية عن الحرب في أسبانيا . بيد أن فشل تحقيقة في أسبانيا كان من الممكن تحقيقة ، إذا ماتم الربط بين محاربة المسلمين، وبين فكرة المكافأة التي إنتقلت إلى الشرق المسيحي الذي كان الهدف الأساسي للحجاج. ومن الواضح أن فكرة الحج إلى بيت المقدس ، كانت أكثر إقناعاً عن فكرة محاربة المسلمين في أسبانيا. وكان ذلك ظاهراً بوضوح ، نتيجة لحقيقة أن البابا ، لم

يتمكن من إقناع كونت برشلونه ، بالبقاء فى أسبانيا ، برغم أن هذا السيد المحلى ، كان أكثر انشغالاً عن غيره ، فى إعادة بناء تراجونا . ومات كونت برشلونه فى الأراضى المقدسة ١٠٩٦ م . ومن الصعب على المراقب اليقظ عدم رؤية أن موضوع الحج إلى الأرض المقدسة ، كان مصدر عون كبير ، فى تنظيم حملة عسكرية إلى الشرق .

وعلى الرغم من أن إردمان ، لفت الانتباه إلى طلبات النجدة التى صدرت من تراجونا ، فإنه أيضاً أنكر صراحة أن أوربان كان لدية أى اهتمام بفكرة الحج إلى بيت المقدس ، ما لم تكن إلاّ دعوة لحرب صليبية . وفى الحقيقة ، لم تقدم لنا خطابات البابا أوربان الثانى ، القليلة العدد عن الحرب الصليبية ، شيئاً عن وجهة نظره بخصوص الحج إلى الأراضى المقدسة. ولم يتضمن خطاب البابا أوربان الثانى فى كليرمون ، أى إشارة عابرة عن الحج إلى الأراضى المقدسة ، فى أى من النصوص الأربعة لخطابه ، برغم وجود لمسات عن كل الدوافع الممكنة ، من الناحية الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية من الناحية العلمية . وكان ذلك ملحوظاً تماما ، لأن البابا أوربان الثانى ، لا بد قد إستخدم فى كليرمون كل وسائل الإقناع التى إعتبرها ذات التأثير الأقوى ، على كل الذين حضروا للاستماع إليه . ومع ذلك فإذا ماستطعنا ، تصديق كتساب الحوليات ، الذين أغفلوا بالإجماع أى إشارة عن الموضوع ، فإن زيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين لم تكن إحدى الحجج والبراهين – وهذا برغم حقيقة أن أوربان الثانى كان بالفعل شاغلاً نفسة بمشكلات زيارة الأماكن المقدسة بفلسطين عندما كان يتعامل مع الحملات العسكرية الأسبانية . وعندئذ ، فإنها لم تكن وسيلة دعائية بالنسبة لأوربان . بيد أنها كانت إحدى المصادر الأساسية لمفهومه عن الحرب الصليبية . والواقع أنه فيما بعد قام الداعون للحرب الصليبية ، بالعناية بتسليح الحاج على الدوام ، عندما أصبح من الواضح مدى أثر تنفيذ تلك الفكرة . وكان المنشور البابوى الزائف ، الذى أصدره البابا سيرجيوس الرابع Sergius IV ، والتى تم تلفيقه فى ذلك الحين ، دليلاً واضحاً على ذلك . وكان الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الغربية لكل من شارك فى الحرب الصليبية indulgence مهما أيضاً فى أعين الجمهور العام ، وبخاصة ما أن كان مرتبطاً بالفكرة الشائعة العظيمة عن الحج إلى الديار المقدسة فى فلسطين . والواقع أنه لم يكن هناك شيئاً جديداً بخصوص

" الغفران الكنسى " الذى صدر فى مجمع كليرمون . ولا ريب أن قرار مجمع كليرمون كان مرسوما قانونيا ، بيد أنه كان تقليدياً تماما إلى حد بعيد — ولم يكن غفراناً كاملاً بالمعنى الحديث . إذ كان المعلن فى كلمات دقيقة ، لا غموض ؛ أن كل من شارك فى الحملة الصليبية وحمل شارة الصليب لأسباب دينية فحسب ، سوف يحصل على إعفاء من الكفارات التى تفرضها الكنيسة . وفى خطاب البابا أوربان الثانى فى أغسطس ١٠٩٦م إلى بولونيا Bologna ، تكرر ذلك بالضبط . ولا يمكن أن أتفق فى الرأى مع وجهة النظر المقبولة عادة ، أن ذلك كان غفرانا كاملاً ، نظراً لأن قرار المجمع يشير إلى أثر متجاوز للحد فى أى مكان . إذ أنه لا يخوّل أكثر من التخلص من الخطيئة وعواقبها redemption ، أو الغفران الكنسى absolution ، ونعنى بذلك الصفح عن الذنوب ، وفقاً لكفارات الكنيسة القانونية ، بواسطة نوع من التخليص من الخطيئة وعواقبها بتضحية تتم لمصلحة الآثم ، ونعنى بذلك بالمشاركة فى حملة صليبية ، وهو عمل تكفيرى كان مساوياً للصفح الكامل للذنوب . ومن المتعذر رؤية كيفية اعتبار ذلك أقل من الغفران absolution والصفح عن الذنوب الذى منحه البابا جريجورى السابع للإنجليز ١٠٧٩ م . والواقع أن غفران البابا جريجورى السابع للإنجليز قد تم صياغته بدقه فاقت صياغة الغفران الذى صدر عن مجمع كليرمون ١٠٩٥ م . وبرغم ذلك ، يعتبر علماء اللاهوت قرار البابا جريجورى السابع مجرد غفران كنسى absolution . والحقيقة أن تفسير قرار مجمع كليرمون، أثرت عليه التطورات اللاحقة فيما بعد كثيراً عن النص الحقيقى. وعلى قدر معرفتى ، كان بوشمان Poschmann ، الوحيد الذى أدرك هذا ، عندما كتب أن الغفرانات التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى حرب صليبية ، كانت فى بداية الأمر غفرانات كاملة plenary ، بمعنى أنها كانت تعنى الصفح عن كل الكفارات ، وأنها لم تكن تعنى بعد الصفح الكامل عن كل العقوبات الدنيوية الواجب العقاب عليها فى الآخرة . غير أنه فى مقابل هذا التفسير ، توجد صيغة متعارف عليها ، وهى برغم ذلك لم تظهر فى قرار المجمع ، كانت تعنى الصفح عن الذنوب الدنيوية ، متضمنة الصفح عن العقوبات فى الآخرة. وربما ترجع الصيغة نفسها، إلى الوقت الذى كانت فيه عملية التفكير القانونى عن الخطايا تتم فى وقت واحد لكل من المعصية والعقوبة . بيد أنها

لم تستخدم فى الرسائل البابوية ، حتى النصف الثاننى من القرن الحادى عشر ، وأصبحت حتميا غامضة أكثر فأكثر ، مثلما تطور الفرق بين الإثم والعقاب . وأصبحت حجة بوشمان Poschmann شائعة ، عندما حاول أن يحل المشكلة ، وذلك بتقديم توكيد غير مبرهن ، أنه فى ذلك الحين كان تعبير remissio peccatorum يعنى كفارة الصفح عن الذنوب فقط . ومع ذلك ، ليست هناك حاجة ، إلى أن نجد فى هذا الدليل محاولة لتنفيذ الهجوم اللاهوتى البروتستانتى الباكر earlier Protestant polemic ، على الغفرانات التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية ، لكل من شارك فى الحرب الصليبية ، بعضها كان فى أسلوب شديد اللهجة ، والذى قد مال إلى التركيز بشدة على صيغة غفران الذنوب بتقديم الكفارات .

وفى كليرمون جرى إختيار الألفاظ ، بكل دقة وإحكام شديد ، وكل ماتم عرضه كان الإعفاء من الكفارات الدنيوية التى فرضتها الكنيسة . ثم انطلق الوعاظ والمبشرون للحرب الصليبية ، وكانت دعوتهم تعنى حرفياً غفران الذنوب ، ومن الناحية اللاهوتية أشار إلى غفران العقوبات الدنيوية وفقاً للذنوب ، على الرغم من أن هذا التعريف لم يتضح بوضوح ، قبل عهد هوجوكو Hugucio (ت ١٢١٠م) . وعلى الفور ، انطلقت الدعوة الشعبية للحملة الصليبية ، أبعد بكثير عن الصيغة المحددة المستعملة فى مجمع كليرمون ، دون تردد . ولم يقم أحد من كتاب الحوليات المعاصرين بذكر المفهوم الرسمى فى أوصافهم للمجمع . وكان كاتب الحوليات أورديريك فيتاليز Orderic Vitalis الوحيد الذى ذكر الإعفاء من الكفارات ، وحتى من وجهة نظرة تلك ، فإن الصفح عن العقوبات- وهو الأمر الذى لم يشر إليه فى كليرمون على الإطلاق - كان أكثر أهمية . وأخفق المؤرخ إردمان Erdmann، فى الوصول إلى لب الموضوع، عندما قال، بأنه فى نظر العالم ، كان ذلك فقراً لا معنى ، ونرى هنا أن نتيجة الاعتقاد الشعبى الخاص بالذهاب للمشاركة فى حرب صليبية للحصول على مغفرة الذنوب . فالواقع أن الرجال الذين أبلغونا عن الصفح عن عقوبات الذنوب، كانوا على دراية بعلم اللاهوت، وكانوا قادرين على إبراز الفروق . ومع ذلك ، لم يتفوه أحدهم بكلمة نقد أو تفسير . ومن الواضح أن الدعاة للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى كانوا قد حركوا قرار مجمع كليرمون إلى

خلفية الموضوع عن عمد . ويبدو من الناحية الواقعية ، أن رجال الدين دعـــوا للحـــرب الصليبية ، أوضحوا الفرق والاختلاف – ثم أشاروا إلى غفران عقوبات الخطايا (أوربمـــا ببساطة غفران الخطايا) ، وهو الغفران الذى منحه مجمع كليرمون . ومنذ ذلك الحيـــن فصاعداً ، كانت فكرة المكافأة ، هى السمة المميزة المهيمنة ، فى الإعلان عـــن الحـــرب الصليبية – وعلاوة على ذلك مكافأة خاصة يمكن الحصول عليها بالانضمام إلـــى حملـــة صليبية فقط .

إن معنى قرار مجمع كليرمون ، الذى يحمل أكثر من تفسير ، يعرض المرء إلـــى سوء الفهم . إذ قد فاقت الوعود قدرة العطاء ، وفقاً للتعاليم الكنيسة الصارمة . بيـــد أنـــه يجب أن نتذكر أن الدعاة للحرب الصليبية ، كانوا يعملون فى فراغ ، إذا جاز التعبـــير . ولم تكن هناك فائدة، فى التطلع إلى التوجيه والإرشاد، من قبل التعبير الرسمى للكنيســـة، أو من الأدب اللاهوتى ، لأنه حتى ذلك التاريخ، لم يكن هناك بعد نظرية أو فكرة ، عـــن الغفرانات الكنيسية التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى حملـــة صليبيـــة . وفى الحقيقة ، تم استخدام الغفران الكنسى، فى القرن الثالث عشر ، لأغراض سياســـية ، وبرغم ذلك لم يكن ابتكاراً بابوياً . وعلاوة على ذلك ، ليس هناك من ســـبيل ، لتفســـير نجاح الدعوة للحرب الصليبية فى ١٠٩٥ – ١٠٩٦ م ، سوى أنها نتيجة لهذا الاتســـاع ؛ فى معنى الحرب الصليبية ، لتشمل تأثير فائق ، لأنه وبرغم كل شىء ، فـــإن البديـــل – الحرب الصليبية – كان فى كل الحالات أشد صعوبة العمل التكفيرى. ومن ثم فيبدو مـــن المرجح أن الغفران الكنسى الكامل ، الممنوح لكل من شارك فى حملة صليبية ، لم يكـــن من صنع البابا أو الكنيسة الرسمية ، وإنما كان من صنع الداعين للمشاركة فى الحـــرب الصليبية ، الذين تحدثوا عن قرار كليرمون ، مع وضع تفصيلات إضافية من عندهـــم . وبعبارة أخرى ، أنه ظهر رداً على إحتيجات الناس، ومتطلبات الحرب الصليبية. ويبـــدو هـــذا واضحاً كثيراً ، من النقـــد اللاذع ، الذى تعـــرض له الغفـــران indulgunce ، بداية من حوالى ١١٣٠م وكان بطرس أبيلارد Peter Abelard الأول فى هذا المجـــال . وفى هجومه العنيف لفت النظر إلى أن الكنيسة كانت قد تمسكت دائمـــا بنظريـــة العمـــل التكفيرى المتكافئ . غير أن الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة لمن شارك فى الحـــرب

الصليبية ، لايمكن أن يكون هناك ما يساويه – على أية حال، ليس قبل أن كان الناس قد علموا عن وجود خزانة الحسنات the existence of the Treasury of Merits . وفــي عهد أبيلارد، فـإن الأساقفة الذين منحوا الغفران الكنسى المرتبط بالمشاركة فى الحـرب الصليبية ، اعتمدوا على سلطتهم الخاصة بالمفاتيح relied upon their power of the keys (john 20: 23) . بيد أن اللاهوتى الفرنسى ، كان يعمل فى نطاق التعليم التقليدى تماما ، عندما رفض ذلك باعتباره ناقصاً. وإلى أن تم تحديد خزانة الحسنات وتعريفهـا ، لم تكن الكنيسة فى وضع يسمح لها بغفـران العقوبات الدنيوية المؤقتـة الناجمـة عـن الخطايا ، لأنها لم تكن قادراة على حفظ مايتسـاوى مع الكفارة . مع ذلك فممـا لايقبـل الجدل ، أن الغفران الكنسى الذى كانت تمنحة الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى حملة صليبية ، كان يمنح حلاً { أى غفرانا }. ويبدو واضحاً أن الممارسة التى بدأت خـارج روما دخلت فى إطار الكنيسة أما الجانب النظرى منها فقد تم وضعة كله موضع التنفيـذ فيما بعد. إن الالحاح الشعبى لصالح التطبيق كان يعنى استحالة التصـدى له ، ولكن لـم يكن من السهل صياغته ، وكان هناك حـالة سـائدة من العجـز بين رجال اللاهـوت ، فى القرن الثانى عشر بشأن محاولات القيام بذلك. وظل بطرس كـانتور Peter Cantor (ت ١١٩٧م) ، وهو أول رجل لاهوت حاول أن يجد شيئاً له أهمية واقعية ، فـى هـذا الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة الكاثوليكية للمشاركة فى حملة صليبية ، من الناحيـة الواقعية على ضوء التخليص redemption المألوف منذ أمد بعيد ، برغم مضـى مائـة عام على بحث هذا الغفران الكنسى بالتفصيل . ولم يحاول رجال اللاهوت فـى الوقـت الحاضر، حتى ولو من الناحية الإفتراضية، وضع مبرر لاعيب فيه عن نظام الغفرانـات التى قدمتها الكنيسة الكاثوليكية ، بخصوص المشاركة فى الحـرب الصليبيـة ، والتـى اعتبرها الجميع طيبة حتى فى وقت لم تكن فيه خزانة الحسنات معروفة بعد . ولم يكـن فى مقدرتهم القيام بذلك – حتى ولو من الناحية الافتراضية – بدون إجبارهم علـى إمـا يصنف خزانة الحسنات على أنها ليست ضرورية على نحو قاطع أو تغيرها علـى أنهـا (مازالت غير معترف بها) ، أسـاس شفاعة رسمية للكنيسة من أجل غفران الله للعقوبات الدنيوية وفقاً للذنب .

وعلاوة على ذلك يبدو صحيحاً أن الزمام ، قد أفلت من أيدى الإدارة البابوية، عند بدء الحركة الصليبية . فلقد عرفنا كيف أن الجماهير تجاهلت المشروعات البابوية ، واختارت بيت المقدس هدفاً لها ؛ وسوف نعلم إلى أى مدى تغلبت الحوادث التاريخية المتلاحقة على خطط البابوية لإعداد الحملة . وحدث شيء مشابه بالنسبة لحالة الغفران الكنسى الخاص بالمشاركة فى الحرب الصليبية . وكانت أساليب أوربان فى التعبير عن هذا الموضوع غامضة . ففى رسالته إلى أهالى إقليم الفلاندر the Flemings فى أواخر ١٠٩٥ م تحدث عن إلغاء عقوبات الذنوب remission of the penalties due to sin . ولكن رسالته إلى أهالى بولينيا the Bolognese ، استعمل أوربان الصيغة الأكثر تحديداً لمنع الكفارة the more limited Formula of the remission of penance . ولا ريب أن الرسالة الأولى كان المقصود منها الدعوة إلى تجنيد المشاركين فى الحرب الصليبية، بينما كان الهدف من الرسالة الثانية منع الكهنة من المشاركين فى القتال . وعلى أية حال ، لم تمنع الإدارة البابوية التفسير الشعبى لقرار كليرمون . والواقع أنه أصبح من الضرورى على البابوات فى السنوات التالية ، أن يجعلوا هذا التفسير خاصاً بهم . وبدأ هذا التطور فى عهد البابا إيجينيوس الثالث Eugenius III ، الذى - وفقاً لاعترافه الشخصى - نظر إلى سجلات الحوليات ، وليس إلى امتيازات أوربان، عندما أعلن عن غفران كنسى عند بدء الحملة الصليبية الثانية. وليس من المدهش أن هذا جعل غفران الخطايا موضع شهرة .

وحاول بعض البابوات ، مثل جريجورى الثالث ، إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. حيث تجنبوا تعبير غفران الخطايا remissio peccatorum الشديد الغموض ، وقدموا غفران الكفارة a remission of penance ، كما فعل مجمع كليرمون. غير أن هذا التعبير نجح نجاحاً عظيماً ، إلى حد إستحالة توقفه فى ذلك الحين ، ووصل إلى وضعه النهائى في القرار الصليبى لمجمع اللاتيران الرابع لسنة ١٢١٥م. وألف هذا القرار عنصراً أساسياً للنظرية البابوية عن الحروب الصليبية منذ ذلك الحين فصاعداً. وبالنسبة لكل الذين شاركوا فى حملة صليبية ، شخصياً ، وعلى نفقتهم الخاصة ، فإن هذا القرار، وعدهم بالغفران الكامل ، لكل تلك الخطايا ، التى اعترفوا بها بصدق ، بقلب نادم .

والآن كان الخلط كاملاً ، لأن هذا يبدو أنه كان يعنى غفرانا كاملاً للخطايا ذاتها، وإعفاء كامل تم الحصول عليه من الكنيسة بواسطة كفارة مقدسة إضافية . وربما لا يمكن في النهاية الإشارة إلى العقوبات وفقاً للذنب، ذلك لأن الخطايا يمكن الاعتراف بها وليست العقوبات . واحتل هذا المفهوم مكانته عندما صاغه هوجوكو Huguccio ، ثم بلوره أكونياس Aquinas فى شكله النهائى. وكان هناك معنيات يمكن بهما غفران الذنوب وفقاً لهذا المفهوم . أولا ، الشعور بالذنب من خلال الاعتراف ، وثانيا العقاب. ولكن كيف استطاع دعاة الحرب الصليبية تفسير هذا ؟ وكان الدعاة للحملة الصليبية ، " صيادين للرجال " – مثلما أطلق ذلك أحدهم على نفسه – مشيرا إلى متى ١٩:٤ -Matthew وكان لديهم أمل فى الفوز الطيب من جمهور تألف من أميين إلى حد كبير . ولم يكن هناك مجال للفروق التى ليس من السهل وصفها ، والتى مازالت غير مقبولة على نحو محدد: ولم يكن من المناسب أن يكون المرء متمسكاً بالتعاليم البابوية أكثر من البابا، الذى برغم كل شيء ، قد قال غفران الخطايا ، حتى لو كان لا يعنى أكثر من غفران العقوبات وفقاً للذنب. على أية حال ليس هناك دليل على أن الدعاة حاولوا إعطاء توكيد خاص للمفهوم الأدق .وعلى العكس تماماً ، عندما دعا مارتن الباريس Martin Pairis ، رئيس دير الرهبان ، إلى الحملة الصليبية الرابعة ، فى باسل Basle فى مطلع القرن الثالث عشر كانت الكلمات الختامية لخطبتة الدينية : " لكن إذا ماسألتم، عن نوعيه المكافأة الاكثر من الله{سبحانه وتعالى}، التى ترجونها ، مقابل مثل تلك الجهود ، فى هذه الحال أعدكم وعداً مطلقاً ، أن كل إمرئ منكم يلتحق بحملة صليبية ، ويعترف للكاهن باخلاص ، فإنه سوف يتطهر تماماً من كل الخطايا التى ارتكبها . " ثم أى مستمع ، إذا لم يكن درس فى علم اللاهوت ، يمكن أن يستمع إلى هذا الكلام، ولا يؤمن بأنه معنى للتطلع إلى غفران كامل للخطايا ، أى كل من الذنب والعقاب ؟ .

ولعب حافز المكافأة ، مع بعض الأفكار الأخرى ، دوراً دعائياً مهما طوال فترة الحروب الصليبية ، بفضل اتساع تفسير قرار كليرمون . ولم يكن فى مقدرة أحد من الدعاة للحروب الصليبية العمل بدون هذا القرار . ومن الواضح أنهم استخدموا أساليب بلاغية مثيرة ، ولم يكن لديهم تردد فى التحدث بضجيج وصراحة . فلقد عرض على كل

مؤمن صفقة روحية رابحة ، وسوف يكون أحمقاً إذا ما رفض . ورسم القديس برنارد من كليرفو St. Bernard of Clairvauy ، صورة مؤثرة بكل وضوح عن " رجل الأعمال الذكى " حيث تم التأكيد بكل قوة على الغفران الكنسى المرتبط بالمشاركة فى الحروب الصليبية . فقال : " أيها الجندى القوى ، يارجل الحرب ، الآن لديك قضية تستطيع من أجلها النضال دون أن تعرض نفسك للخطر ، وإذا قضيت نحبك من أجلها فلك الفوز أيضا . أم أنت رجل أعمال ذكى ، لديك القدرة السريعة على معرفة مكاسب هذه الدنيا ؟ إذا كنت كذلك ففى إستطاعتى أن أقدم إليك صفقة عظيمة . ولا تدع هذه الفرصة تفوتك . التحق بحملة صليبية . وعلى الفور سوف تحصل على الغفران indulgence لكل الذنوب التى تعترف بها بقلب نادم على ما صدر منك . وإذا ماحملت علامة الصليب بتواضع فسوف تجد أنه يساوى مملكة السماء " .

ومنذ بداية القرن الثالث عشر ، فإن أحاديث جيمز فيترى James Vitry عن الحرب الصليبية مازالت موجودة. وفى إحدى هذه الأحاديث قصة لا بد أنها غير حقيقية ، وإن كان من المحتمل أنه لم يرويها ، إنها توضح الحالة النفسية لمستمعيه . وهى أن زوجة حجزت زوجها فى البيت حتى لا يتمكن من الإنصات إلى الدعوة لحملة صليبية . غير أنه نجح فى الاستماع إلى ما قيل من خلال نافذة . وما أن علم أن الإنسان فى استطاعته الحصول على غفران يعادل ارتداء حزام التوبة والندم لمدة ستين عاما متى التحق بحملة صليبية ، وأنه بكل تأكيد سوف ينجو من المطهر* Purgatory ، وسوف ينجو من جهنم ، لذلك قفز من النافذة معترفاً بذنوبه ، ليلتحق بحملة صليبية .

ولا ريب أنه ليس من الصواب الجزم بأن الداعين للحرب الصليبية ، تجنبوا طريقة أكثر روحية ، وعملوا وفقاً لتلك العبارات التجارية الواضحة تماما . ومع ذلك فقد حدث الكثير بفضل تلك الطرق، وعلينا أن نتذكر أنه كان عصراً شهد ازدهاراً هائلاً فى التجارة الخارجية . وبالرغم من أن القديس برنارد St. Bernard ، استخدم مجموع مفردات طبقة التجار، فلا ريب أنه ذكر أمور مختلفة ، بيد أنه لم يرغب فى التخلى عن هذه الفكرة الدعائية التى حققت نتائج إيجابية للغاية .

* المطهر : موطن تطهر فيه نفوس الأحرار بعد الموت بعذاب ممحدود الأجل ، وفقا لعقيدة النصارى . (الشاعر) .

وربما من الأفضل طرح جانباً مسألة إذا ما كانت الكنيسة أعطت انطباعاً بأن غفراناً كاملاً أم لا ، للذنب والعقاب ، كان ممكناً عن طريق الغفران الذى منحته الكنيسة الكاثولكية ، لكل من شارك فى الحرب الصليبية ، ولذلك عن طريق إجراء خارج نطاق سر التوبة the church`s Sacrament of Penance . ومن الممكن بالتأكيد أن المعاصرين فسروا المصطلحات الكنسية الغامضة أحيانا كذلك . ولكن على أية حال ، فالفرق بين غفران التوبة remission of penance ، وغفران العقوبة الناجمة عن الذنب temporal punishment due to sin ، نشأ وفقاً للمفهوم التقليدى للكنيسة عن الغفرانات ، التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية لكل من شارك فى الحروب الصليبية، والتى كانت فى حد ذاتها كافية تماما لتفسير نجاح مؤتمر كليرمون . ولم يكن هناك شيء جديد بشأن إمكانية الحصول علىغفران التوبة بالذهاب لمحاربة غير المسلمين the heathen. غير أن العقوبات وفقاً للذنب ، من الممكن غفرانها تماما نتيجة للمشاركة فى حملة صليبية – وفقا لما تضمنته أقوال الدعاه للحرب الصليبية – كانت فكرة غير مسموعة – ومن قبل، أثرت عملية حمل النفس على القبول والإذعان reconciliation التى تحدث عند بدء الغفران، وكذلك إبدال العقوبة بأخف منها commutation، للتخلص من الخطيئة وعواقبها على الغفرانات فقط ، ولم يكن لها تأثير فائق على العقوبات المتعلقة بالذنب . والواقع أنه كان من المأمول أن الغفران سوف يكون له مثل هذا الأثر ، بيد أنه لم يكن مضمونا بالتأكيد . ومن ناحية ثانية ، فإن الغفران المستفاد منه عند الله لكى يتم غفران العقوبات المؤقته وفقاً للذنب ، والغفران الدنيوى على نمط قياسى ومعين، لم يعد قائما ، فى حالة غفران كنسى متعلق بالحرب الصليبية تماماً a plenary indulgence. وكان البابا الاسكندر الثانى قد وعد مثل ذلك تقريباً، مقابل شن الحرب ضد غير النصارى the heathen ، ولقد صادف هذا الوعد استجابة ضعيفة commutation ، للتخلص من الخطيئة وعواقبها على الغفرانات فقط ، ولم يكن لها تأثير فائق على العقوبات المتعلقة بالذنب. والواقع أنه كان من المأمول أن الغفران سوف يكون له مثل هذا الأثر ، بيد أنه لم يكن مضمونا بالتأكيد . ومن ناحية ثانية ، فإن الغفران المستفاد منه عند الله لكى يتم غفران العقوبات المؤقته وفقاً للذنب ، والغفران الدنيوى على نمط قياسى ومعين، لم يعد قائما ، فى حالة غفران كنسى متعلق بالحرب الصليبية تماماً a plenary indulgence.

وكان البابا الاسكندر الثانى قد وعد مثل ذلك تقريباً ، مقابل شـن الحـرب ضـد غـير النصارى the heathen ، ولقد صادف هذا الوعد استجابة ضعيفة لأنه كـان موجهـاً لجماعة قليلة فقط . وظهرت القوة المحركة للمشاعر للغفران الكنسى لكل مشـارك فـى حملة صليبية ، عندما ارتبطت بالفكرة الشعبية العالمية لزيارة الأرضى المقدسة. وتحدث إكهارد من أورا Ekkehard of Aura عن " وسيلة جديدة للتفكير عن الخطايا " بفرض عقوبة ذاتية تعبيراً عن التوبة ، متاحة فى ذلك الحين . ومن هنا يكمن سر النجاح المدهش لدعوة البابا أوربان الثانى ، وهو نجاح أدهش الكنيسة بقدر ما أدهـش أى فـرد آخـر . ولنتصور فارس يعيش فى جنوب فرنسا ، مع أقاربه ، وفقاً لنظام أخوى ، غير مرضـى اقتصادياً واجتماعياً . فقد حرّمت عليهم هدنة الله the Peace of God ، العـداوات ، و"الطبقة العليا " وهى نوع من قطاع الطرق ، والتى كانت ترضيهم . ثم فجـأة جاءتـه فرصة الذهاب إلى الأراضى المقدسة – وعلى أية حال كانت أمنية كثير مـن النـاس . وكانت هذه الزيارة المقدسة تحت إشراف الكنيسة ، بالإضافة إلى ذلك فإنها كانت زيـارة مسلحة ، حيث فى إمكانه مزاولة عملة الفروسى ، بالمشاركة فى المعركة . وسوف تكون هناك فرص للغنيمة . وفوق كل ذلك ، كان ثمة عرض جديد تماماً للصفح لكل العقوبـات المؤقته طبقاً للذنب وبخاصة تلك التى تحدث فى المَطْهَـر * purgatory . إن الغفـران الممنوح فى سر التوبة يسقط عنه الذنوب ، وإن الانضمام إلى حملة صليبية كـان يعنـى الغاء كل العقوبة ، حتى قبل أن يبدأ فى تأدية العمل المفروض عليه . وإن عدم قبول مثل هذا العرض ، وعدم أخـذه مأخذ الجد على أقل تقدير – سوف يكون عملاً غير منطقـى فى الواقع . واغتنم " رجل الأعمال الذكى " فرصته. ومن الذى لا يرغب أن يحسب بين الأذكياء ؟

ولا ريب أن الانضمام إلى الحملة الصليبية فى هذه الحال ، كان عمـلاً ينـم عـن الإيمان ، بقدر ماينم عن الثقة المطلقة فى الوعود ، التى قدمها دعـاة الكنيسـة . ومـن الطبيعى أن التقـوى لم تكن الدافـع لكل الصليبيين . وفى العصور الوسطى أيضاً ، كان

* المطْهر : هو موطن تطهر فيه نفوس الأحرار بعد الموت ، بعذاب محدود الأجل ، وهو حاجز بين الجنة والنار ، وفقاً لمعتقدات النصارى. (الشاعر) .

هناك الذين ينزعون إلى الشك فى مبادئ الدين ، وأن بواعث الالتحاق بحملة صليبية كانت كثيرة ، ومتنوعة ، ومتشابكة، وغالباً ما كانت اجتماعية ، واقتصادية فى طبيعتها. بيد أن عرض الغفران الكنسى الذى منحته الكنيسة لكل من شارك فى حملة صليبية indulgence لا بد وأن له جاذبية لا تقاوم لهؤلاء الذين لا يشكون فى تعاليم الكنيسة ، والذين يعتقدون فى حقيقة العقوبات وفقاً للذنب ، أو سلموا بإمكانية وجودها على الأقل . ولا بد أن هؤلاء المؤمنين قد شكلوا جزءاً كبيراً من أولئك الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى – مهما كانت نسبتهم بالنسبة للمجموع الكلى لسكان أوربا. وبالطبع فإن الصليبيين عام ١٠٩٥م لم تكن لديهم المقدرة على التخمين بأن عرض الغفران الكنسى ، الذى سلموا به ، كان فىالواقع محدوداً بكثير عن الوعد الذى حصلوا عليه من "صيادى الرجال Fishers of men " .

٣ - الحملة الصليبية الأولى : ١٠٩٦-١٠٩٩ .

لم تكن الدعوة لحرب صليبية انتهت ، عندما تم عرض الوعد بمكافأة روحية . (١٤) فقد كان من الضرورى الاتفاق على المشروع وفقاً لصيغة قانونية كانت مناسبة لنوعية المشاركين الذين قصدت الدعوة جذبهم . ولم تكن مسألة مشاركة ملوك أوربا واردة كلية. ومن ثم فكر البابا أوربان الثانى ، نتيجة لذلك ، فى جيش من الفرسان تحت سيطرة الكنيسة ، لعدم وجود سلطة عليا أخرى ، فى استطاعتها تولى القيادة . وقبل أن يغادر أوربان كليرمون ، عين أدهيمار ، أسقف لوبوى Adhemar , Bishop of Le Puy، ممثلاً شخصياً له as his legate ، ثم وصفه فيما بعد صراحة ، على أنه قائد الحملة الصليبية . وجرت مناقشة مستفيضة حول مدى تصور أوربان لشخصية أدهيمار منذ البداية كقائد سياسى بالإضافة إلى قائد دينى ، غير أن الجانب السياسى من أعماله لا يجب المبالغة فيه . إذ على الأرجح أن القائد العسكرى للحملة هو الكونت ريمون الرابع من تولوز Count Raymond IV of Toulouse ، الذى بحث أوربان معه المشروع حتى قبل أن ينعقد المجمع فى كليرمون Clermont .

إن كل الفرسان الذين أقسموا على المشاركة فى الحملة الصليبية تم قبولهم ضمن المحاربين الصليبيين فى احتفال رمزى . وفى كليرمون وزع أوربان صلبانا من القماش على الذين استعدوا للذهاب ، ثم قاموا بتثبيتها بالخيط على أكتاف معاطفهم . وهكذا قدر للصليب أن يكون الشارة لكل محارب ضمن كل حملة صليبية. والصليب كرمز كانت له دلالة مزدوجة . **أولا** ، إنه كان علامة على أن الله يحمى حامله من كل شر ، وأنه إشارة إلى أن حامله ومتقلده ينتمى إلى جماعة ذات تنظيم خاص ، وأنه إشارة إلى حاج راغب فى زيارة الأماكن المقدسة مع حصوله على حق حمل الأسلحة . **ثانيا** : أنه كان رمزاً قانونياً يضمن الامتيازات الدنيوية ، لأن الكنيسة أصدرت أوامر بعيدة المدى لصالح المشترك فى الحرب الصليبية . وامتدت هدنة الله * وحماية الكنيسة لتشمل ممتلكات المشارك فى الحملة الصليبية . ومن الناحية النظرية ، ظلت امتيازات المشارك

---

* هدنة الله : من غروب شمس الأربعاء إلى شروق شمس الإثنين . (الشاعر) .

فى حرب صليبية فى ازدياد ، أثناء فترة غيابه . وكانت ممتلكاته معفاة من سيطرة السلطة الحاكمة فى دولته : ومعفاة من الضرائب .(١٥) ومن الطبيعى أن يحصل علــــى قــرار بتأجيل دفع ديونه المستحقة a moratorium ، وبخاصة لأنه سوف يواجه نفقات كثــيرة للإعــداد للسفر ، وقد يستدين من رفاقه أو من الكنيسة. غير أنه ، فى مقابل ذلــك ، إن أى شخص يحنث فى قسمه بخصوص الالتحاق بالحملة الصليبية يتم حرمانه من حقــوق وامتيازات عضوية الكنيسة الكاثوليكية . وربما كان المقصــود مــن توزيــع الصليــب المصــنع من القماش ، بمعرفة رجال الدين ، منع العناصر الغير مرغوب فيهــا ، مــن الانضمام إلى الحملة الصليبية ، لعدم قيمتها العسكرية . وبدا أوربان وكأنه أصبــح قلقــا تدريجياً من أثر الحماس الشديد للهدف الصليبى على الطبقــات الاجتماعيــة مــن غــير الفرسان . وفــى ١٠٩٦م بذل أوربان كل مافى وسعة لمنع كبار السن والمرضــى مــن المشاركة فى الحملة الصليبية . وكان على الكهنة والرهبــان الحصــول علــى موافقــة رؤسائهم قبل سفرهم . وحدد البابا أوربان الثانى يوم ١٥ أغسطس ١٠٩٦ م موعداً لبــدء الحملة الصــليبية . ومن المحتمل أن المقصود كان ضرورة تجمــع الفــرق العســكرية المتعددة للحملة الصليبية عند القسطنطينية .

وظل أوربان مقيما فى فرنسا لمدة ثمانية أشهر بعد انعقاد مجمع كليرمون . وتجنب أوربان الأراضى التى تحت سيطرة أسرة كابيه بفرنسا Capetian Kings of France ، بيد أنه دعا للحرب الصليبية فى أماكن أخرى ، مثــل ليمــوج وآنجيــا Limoges and Angers ، وربما فى تورونيم Tours and Nimes أيضاً . وفى أماكن أخــرى تــرك الأساقفة يتولون الدعوة فى أماكن أخرى . وهذا يفسر سبب ضعف الدعوة فى المنــاطق التى لم يتم تمثيلها فى كليرمون – وهى إنجلترا ، وألمانيا ، وجنــوب إيطاليــا . ومــن الواضح أن الناس فى ألمانيا ، وجنوب إيطاليا لم يسمعوا عن دعــوة أوربــان للحــرب الصليبية إلى أن اجتاز الصليبيون أنفسهم تلك الأقاليم .

وعلى الرغم من أن أوربان مكث فى إقليم للوار Loire ، فــإن الدعــوة للحــرب الصليبية امتدت إلى الشمال أيضاً ، ولم تكن على أيدى الأساقفة فقط . ففى إقليم نورماندى على سبيل المثال كان رئيس أحد الأديرة وهو the abbot of St. B`enigne in Dijon

مفعماً بالنشاط . ولكن فوق ذلك ، كان هناك الدعاة الشعبيون الذين ارتبطوا إلى حد بعيد بحركة الفقر التى أثرت على الطبقات الاجتماعية الدنيا، وهم الذين تولوا الدعوة للحرب الصليبية . وكان روبرت دى أربريزل Robert d`Arbrissel (حوالى ١٠٥٥- ١١١٧م) أحد القادة المفكرين فى هذه المجموعة ، قد حاول التشبه بالمسيح بالحياة فى حالة من الفقر التام ، ودعا للحرب الصليبية ، فى وادى إقليم اللوار . غير أن شخصية بطرس الناسك البارزة فاقته كثيراً . (١٦) وأتى بطرس الناسك من بيكاردى Picardy ، ومن الراجح أنه كان مبشراً نشطاً فى وسط فرنسا قبل الدعوة للحرب الصليبية . ولم يبدو جذاباً إلى حد بعيد ، فعادة ما كان مكسواً بالطين والوحل، لأنه كان يجوب المناطق الريفية على حمار . ومع ذلك كان رجلاً يتمتع بفصاحة مثيرة للمشاعر ، وبتأثير فائق على مستمعيه . وفى العصور الوسطى ارتبطت باسمه مجموعة كاملة من الأساطير حتى أنه – على نحو خاطئ تماماً – حصل على معظم فضل بدء الحروب الصليبية . وهناك زعم بأنه كان يحمل رسالة ، وهى رسالة من السماء ، وجاء فى هذه الرسالة أن المسيحيين سوف يطردون المسلمين من الأماكن المقدسة ، إذا ما كانت لهم الشجاعة الكافية لذلك . وجرى توزيع نسخ من ذلك الخطاب على نطاق واسع . وتحكى إشاعات أخرى عن رؤيا شاهدها عند قبر المسيح ، أثناء زيارته لبيت المقدس . وسبقته شهرته إلى عدة أماكن ، ولا بد أنها أسهمت فى نجاحه إلى حد كبير . ودعا إلى محاربة المسلمين وطردهم ، من الأماكن المقدسة ، فى برى Berry، وفى أورلينيا Orleanias، وفى شامبين Champagne ، واللورين Lorraine ، قبل مواصلة سيره فى أبريل ١٠٩٦م إلى تريه Trier ، وكولون Cologne ، وهو فى طريقه إلى الشرق . وتبعه جيش من الفقراء ، ومن بينهم ولتر المفلس Walter Sans-Avoir . الفارس الذى ذاعت شهرته . وكان ينقص أتباع بطرس الناسك وزميله ولتر المفلس التسلح ، أو ربما لم يكن معهم سلاح على الإطلاق ، وفوق كل ذلك ، كان ينقصهم المال الذى كانوا فى حاجة إليه ، لتلك الرحلة الطويلة جداً. وأثبتت السلطات الكنسية عجزها فى منعهم من الذهاب ، على الرغم من أنها لم يدر فى خلدها ، وجود تجمع من المحاربين الصليبين مثل هذا . وهنا يمكننا معرفة القوة الهائلة التى انبثقت من ربط أوربان الثانى زيارة الأماكن المقدسة ،

بمحاربة المسلمين ، والمكافأة الدينية. واستحوذت الفكرة على كل الطبقات ، ولـــم يمكـــن قصرها على الفرسان – مثلما كانت السلطات تأمل دون شك . ولكن عندما ظهرت تلـــك العروض المفيدة ، لم يكن لدى الطبقات الدنيا الاستعداد للتخلي عنها .

وسار هؤلاء الجنود ، الذين كانت غالبيتهم العظمى من الطبقات الدنيا، مـــن أرض الراين ، تجاه الشرق ، في فرق متعددة ، عبر المجر ، وبلغاريا إلى القسطنطينية. وكـــان ولتر المفلس ، أول من تحرك ، وكانت الغالبية العظمى من أتباعه من الفرنسيين. وفـــي الوقت نفسه ، قضى بطرس الناسك، وقتا أكثر في الدعوة للحرب الصليبية في كولـــون . ووصلت جماعة ولتر المفلس، إلى القسطنطينية ، في منتصف يوليو ١٠٩٦م. ثم وصـــل بطرس بعد ذلك بحوالي أسبوعين ، ومعه جماعات من أهالي اللورين ، ومـــن أراضـــي الراين ، ومن جنوب ألمانيا ، بالإضافة إلى جماعة من الفرنسيين . وفي مدينـــة نيشـــي Nish ، أصبح من الواضح أن بطرس الناسك، كان أقل صلاحية من الفارس ولتر كقـــائد لقوات لا تعرف شيئاً عن النظام . وأدى السلوك الفوضوي للصليبيـــن ، إلـــى حـــدوث معارك عنيفة ، مع الجند المرتزقة من البتشنج Petcheneg ، الذين يعملون في الجيـــش البيزنطي ، وتعرض رجال بطرس الناسك لخسائر فادحـــة فـــي الأرواح . أمـــا الفـــرق الأخرى ، والتي كان أكثرها من الألمان والباقي من الفرنسيين ، فقد كانت تحـــت قيـــادة القس جوتشوك Gottschalk . ورجل يدعى فولكمار Volkmar ، وهو مجهول الجنسية ، والكاونت إميخو من لينين Count Emicho of Leininge ، والفـــايكونت فـــي ميليـــون Viscount of Melun . ولم يقدّر لأي فرقة من تلك الفرق الوصول إلى القســـطنطينية . وبالمقارنة بجيوش ولتر المفلس وبطرس الناسك ، والتي احتفظت بالنظام إلى حد ما ، فإن تلك الفرق التي تلت تلك الجيوش ، تصرفت مثل قبائل البرابرة ، ونتيجة لذلك ، لم يقـــدر لهم أن تطأ أقدامهم الأراضي البيزنطية على الإطلاق . ففي المجـــر ، شـــغلوا أنفســـهم بالتخريب والنهب ، ومن ثم تعرضوا لمذبحة كبرى عن بكرة أبيهم . بل أنهم كـــانوا قـــد نجحوا في اكتساب سمعة رديئة مثيرة للكآبة ، حتى قبل مغادرتهم ألمانيا . وقـــد اقـــترفوا مذبحة منظمة ، ذهب ضحيتها الآمنون من الجماعات اليهودية المهمة، والتي كانت علـــى نطاق كبير ، لم يسبق لها مثيل في العصور الوسطى في ذلـــك الحيـــن ، وذلـــك نتيجـــة

للمبشرين والراعين للحرب الصليبية الذى افتقروا إلى الإحساس بالمسئولية، حيث أثـاروا هؤلاء القتلة ولفتوا انتباههم إلى ثراء اليهود. وترك إميخو من لينين ورجاله سمعة سـيئة تفوق الوصف عن أنفسهم هناك . وسيراً على نهج تراث الملوك الألمان منذ عهد بعيـد ، جعل الإمبراطور هنرى الرابع اليهود تحت حمايته الخاصة . وبالإضافة إلى ذلك ، دفـع اليهود مبالغ ضخمة من المال إلى دوق اللورين السفلى ، مقابل مسـاعدته ضـد الطمـع الوحشي للصليبيين . غير أن كل شئ ذهب أدراج الرياح . وعند مسـيرهم فـى اتجـاه مجرى النهر (وهو ليس الطريق المباشر تماما إلى الشرق) ، قاموا بنهب اليهود وقتلهـم فى كل مدينة بعد الأخرى فى أراضى الراين : سبير ، وورمـز ، وتريـر ، وكولـون Speyer , Worms , Mainz , Trier , and Cologne . وقـامت مجموعـات أخـرى بمهاجمة اليهود فى نيوس ، وإكسانتن ، وحتى بـراغ Neuss , Xanten , and even Prague . إن السجلات التاريخية اليهودية التى مازالت موجودة حالياً تحكى تلك الحوادث تجعل القراءة مثيرة للاشمئزاز. وعبثا حاول بعض الأساقفة ، إنقاذ اليهـود مـن هـؤلاء الغوغاء المتعطشين للدماء . وكما حدث فى الاضطهادات فى أواخر العصور الوسطى ، فإن محاولة إثبات أن اليهود يستحقون العقاب باعتبارهم أعداءً للمسيح ، كـانت مجـرد محاولة واهية لإخفاء الدافع الحقيقى وهو : الطمع . ويمكن القبول كحقيقة أنـه بالنسـبة لكثير من الصليبيين كان ما تم نهبه من اليهود يوفر لهم الموارد المالية لتمويل سـفرهم . لكن ، كما ثبت فى النهاية ، فـإن ثروتهم التى حصلوا عليها مؤخراً لم تجعلهم يصلـون إلى أبعد من المجر ذلك لأنه قد تم إبادتهم عن بكرة أبيهم هناك .

وفى ذلك الحين عسكرت الجيوش التى تحت قيادة ولـتر وبطـرس أمـام أسـوار القسطنطينية . وأتاح الإمبراطور ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus ، الفرصـة لبطرس لمقابلته ، وأعطاه هدايا قيمة ، وزوده بالنصائح المفيدة . وكـان علـى بطـرس الانتظار حتى وصول الفرق الأخرى ، قبل المسير إلى آسيا الصغرى. وكان بطرس على استعداد لذلك ، غير أن أتباعه كانوا تواقين للعبور بشدة. وأصبح أتباع بطرس فى حالـة من القلق والضجـر ، وبدأوا ينهبون ضواحى العاصمة ، إلى أن نصحـه البـيزنطيون بعبور البسفور أيضا ، فى نهاية الأمر. وفى السادس من أغسطس ١٠٩٦ م ، تم نقلهـم

إلى شاطئ آسيا الصغرى ، ثم ساروا عبر نيقوميديا Nicomedia إلى كيفتوت Civetot، حيث وجدوا معسكراً ، كانت للجنود المرتزقة من الإنجليز فى الجيش البيزنطى ، غير أن هذا المعسكر كان مهجوراً فى ذلك الوقت . وفى ذلك الحين وصلوا إلى الحدود التى تحت سيطرة الأتراك ، ولم يستطع رجال بطرس الناسك مقاومة إغراء شن غارات بهدف جمع الغنائم . واستولت جماعة من المغيرين الفرنسيين على غنيمة كبيرة من المنطقة المجاورة لمدينة نيقية . وعندما حاول بعض المقاتلين الألمان تقليد الفرنسيين ، وقعوا فى كمين نصبه الأتراك عند إكسيريجورن Xerigordon . وعندما تقدم الجيش الرئيسى محاولاً مساعدتهم ، هزمه الأتراك هزيمة منكرة ، فى ٢١ اكتوبر ١٠٩٦م. ونجحت جماعة قليلة جداً ، ممن قدر لهم البقاء ، فى العودة إلى القسطنطينية، حيث كان بطرس الناسك هناك منذ وقت قصير ، وكان قد ترك الجيش ، قبل المعركة لكى يتفاوض مع الإمبراطور. وهذا كان يعنى أنه كان قادراً على اصطحاب جيوش الفرسان فيما بعد . وهكذا إنتهت حملة العامة الصليبية The People`s Crusade . وانتهت بكارثة ولم تحقق شيئاً . والأسوأ من ذلك ، أن حملة العامة الصليبية ، تركت انطباعاً سلبياً عند الشعب البيزنطى والسلطات الحاكمة . ومنذ ذلك الحين ، نظر البيزنطيون بارتياب إلى الصليبيين – الحلفاء الذين كانوا قد طلبوا منهم المساعدة . إن احتمالات التعاون بين بيزنطة والصليبيين اعتراها الضعف تماماً منذ البداية ، نتيجة لشبح الارتياب المتبادل .

إن الأمل الوحيد فى حملة صليبية ناجحة توقف على جيوش الفرسان . وسوف يتم وصف حملتهم هنا بشئ من التفصيل لكى يتم توضيح الصعوبات التى واجهت كل الحملات الصليبية . وكان جودفرى من بوايون Goddfrey de Bouillon (ت١١٠٠) ، أول من رحل . وبدأ رحيله فى منتصف أغسطس ١٠٩٦ م ، فى الوقت المحدد ، ومعه حشد كبير من الأتباع من أهالى اللورين Lorrainers ، وسكان شمال فرنسا ، والألمان. وكان أحد أفراد عائلة من الكونتات فى بولون Boulogne ، وفى ١٠٨٧ م عينه الإمبراطور هنرى الرابع دوقاً لإقليم اللورين السفلى Lower Lorraine ، بيد أنه كان غير قادر على جنى الكثير من هذا العمل ، ومن المحتمل أنه وجد فى الحرب الصليبية،

فرصة لتحقيق إنجازات أسمى . وعلى الرغم من أننا لا نعرف شيئاً البتة عن الأسباب التى دفعته إلى الإلتحاق بحملة صليبية ، وحقيقة أنه باع كل أراضيه - بل أنه باع قلعته فى بوايون - كل ذلك يشير إلى أنه قطع على نفسه طرق التراجع جميعها، ولم تعد لديه النية فى العودة للوطن . وباعتباره أول حاكم لبيت المقدس ، قدر له أن يكون مركز الاهتمام ، لموضوع الأساطير التى حولته إلى صليبى مثالى . وبدأت هذه العملية على الفور ، بعد الحملة الصليبية الأولى بمعرفة البرت من إكس Albert of Aix ، الذى جعل جودفرى بطل حوليته. وكان جودفرى على قدر من الثراء إلى الحد الذى مكنه من اصطحاب حاشية كبيرة من الأتباع والفرسان، ومن بينهم أهالى اللورين ، الذين كان لهم النفوذ الأعظم أثناء الحملة الصليبية وبعدها. وأشهر أفراد جماعته هما بلدوين من بولون Baldwin of Boulogne ، وبلدوين من برج Boldwin of Bourg ، علماً بأن بلدوين الأول كان أخاً لجودفرى أما بلودين الثانى فكان أحد أقارب جودفررى . وسار عبر المجر ، وبلغاريا ، وفى طريقه إلى القسطنطينية عن طريق بلجراد ، ونيش ، وصوفيا ، وفيليبوبوليس Philippopolis ، وإدريانويل Adrianople . وبفضل النظام الجيد والاتفاقية مع كولمن ملك المجر King Colman ، الذى تسلم بلدوين من بولون كرهينة ، تمت الرحلة بدون حوادث تقريباً . وفى ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦ م ، وصل جودفرى إلى القسطنطينية ، حيث وجد أن الكونت هوج من فيرماندوا Count Hugh of Vermandois ، كان قد وصل بالفعل. وكان الكونت هوج شقيق ملك فرنسا ، قد تحرك فى الوقت نفسه الذى تحرك فيه جودفرى ، بيد أنه فضل وجيشة الصغير الذهاب بحراً .

ولم يكن النورمان فى جنوب إيطاليا ممانعين أبداً فى الذهاب للشرق . إن بوهيموند من تارانتو Bohemund of Taranto ، أحد أكبر أصحاب الإقطاع (ت ١١١١م) ، والابن الأكبر لروبرت جوسكار Robert Guiscard ، كان فى الخامسة والأربعين فى ذلك الحين . ومن الواضح أنه كان مخططاً للحصول على سلطة أكثر مما ينعم بها فى إيطاليا . أما روجر بروسا Roger Brosa ، الابن الأصغر لجوسكارد ، فقد ورث الممتلكات الإيطالية لوالده ، بينما الأرض الواقعة شرق الأدرياتيك فكانت من نصيب بوهيموند . ومن ثم فإن الهزيمة التى تعرض لها بوهيموند فى الحرب البيزنطية - النورمانية فى ١٠٨٥م ، قد أزعجته بشدة . وكان من المفهوم أنه تمنى أن ينال تعويضاً

عن خسائره فى مكان آخر. ولا ريب أنه كان أكثر القـادة الصليبيين طموحاً ، وأشـدهم بعداً عن المبادئ الأخلاقية. ولما كان بوهيموند قلقاً ومتعطشاً للسلطة لذلك كان نورمانيـاً حقيقياً أكثر من كونه صليبياً حقيقياً . بيد أنه كان يعرف جيداً كيف يستخدم المثـل العليـا الدينية لتحقيق أهدافه الذاتية . وعندما قرر الالتحاق بالحملة الصليبية – كـان يحـاصر أمالفى Amalfi فى الوقت نفسه – قام برفع الكلفـة مـع الآخريـن ، ووزع الصلبـان المصنوعة من القماش على رفاقه بيديه . وكان أتباعة أقل عدداً من أتبـاع جودفـرى . وكان تنكريد Tancred ، ابن أخيه أشهر شخصية بين أتباعه . وكـان مـن بيـن مـن اصطحبهم أيضاً الفارس أوالكاهن المجهول الذى كتب الوصف القيم للحملـة الصليبيـة ، وسماه أعمال الفرنجة the Gesta Francorum ، حيث قدم فيـه وصفـاً مثاليـاً عـن بوهيموند . وعبر النورمان الإدرياتيك فى السفن ، ثم ساروا براً على امتـداد الطريـق القديم إلى القسطنطينية . ونفذ بوهيموند نظاماً صارماً ، نظـراً لأنـه قـرر أن يعطـى البيزنطيين إنطباعاً جيداً ، لأنهم نظروا إلى قدومه بمشاعر مختلفة ، إذ أنهم لـم ينسـوا الحرب مع النورمان . ولهذا السبب لم يكن سكان الأقاليم التى مر عليها متحمسين جـداً لبيع المؤن له . ورغم أن ذلك كان حقيقة ، فإنه تقدم دون عمليـات سـلب كثـيرة ، أو خلافات مع البيزنطيين ، إلاّ أن الأمور أصبحت أسـوأ بعدما ترك بوهيمونـد القـوات تحت قيادة تنكريد ، لكى يسرع صوب القسطنطينية حيث وصلها فى بداية أبريل ١٠٩٧م.

واجتمع الجيش الأكبر فى جنوب فرنسا ، والذى تكون من أهالى بروفنسـال ومـن أهالى بورجوندى فى معظمه . وكان الكونت ريمون من تولوز Raymond of Toulouse قائداً لذلك الجيش ، وكان أغنى شخصية صليبية إلى حد كبير . وكوّن أتباعـه بمفردهـم جماعة كبيرة من الجند المدربة تدريباً حسناً. وسافر أدهيمار من لو بـوى Adhemar of Le Puy ، المندوب البابوى ، فى صحبة ريمون . وكان ريمون رجلاً مسنا بلغ الخامسة والخمسين ، وكان قد تمكن من جعل نفسه سـيداً إقطاعياً على ثلاثة عشـر كونتـاً فـى إقليمى بروفانس ولانجودوك Provence and Languedoc ، بفضل تجمع النشاط الفـائق مع الإقدام والدهاء. وترك أتباعه إلى إبنه برتراند Bertrand، بينما هو نفسه أخذ زوجته معه فى الرحلة الشاقة حيث أنجبت له إبناً ثانياً، وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة. ومن المستحيل التأكيد إذا ما كان قد أقسم على ألاّ يعود ثانية أم لا، غير أنه لم ير وطنـه

مرّة ثانية . وكان ريمون Raymond ظاهر التفوق بين القادة باعتبـاره الوحيـد الأقـل عرضه للإتهـام بالطموح المادى ، مثلما كان دافعـه للالتحاق بحملة صليبية . (١٧) بيد أن شخصيته كانت بعيدة كل البعـد عن كونه (شخصاً من السـهل فهمه وصريح جـداً an open book) . وعلينا أن نتعامل بحـذر مع الأدلة التى قدمها كاتب الحولية ريمون د أجيل Raymond d` Aguilers ، قسيسه المرافق له . ويبدو أن هدفه الأساسى ، إظهار أن إرادة الله ، ظهرت فى التاريخ ، وأنه عرض مادته التاريخية وفقـاً لذلـك . وليـس معروفاً كيف وصل جيش ريمون إلى البلقان ، بيد أنه ما أن وصل هنـاك حتـى سـار الكونت بحذاء الساحل الألبانى جنوباً إلى دراخيوم حيث سلك الطريق إلى القسـطنطينية . ونظراً لأنه لم يبدأ المسير حتى أكتوبر فـإن جيشه كان عليه المعاناه كثيراً مـن شـتاء البلقان القارس ، ولكن على العموم عمل ريمون على المحافظة علـى النظـام الجيـد . وعندما وصلوا إلى الأراضى البيزنطية ، رافقتهم قوات من الجند المرتزقـة Petcheneg للحماية . ومن حين لآخر نشبت متاعب بين الصليبيين والمرافقين لهـم . وفـى إحـدى المصادمات أصيب أدهيمار المندوب البابوى بجرح خطير ، أجـبره علـى البقـاء فـى سالونيكا لفترة من الوقت . وقام أهالى إقليم بروفنسال the Provencals بسـلب ونهـب مدينة روزا Roussa فى إقليم تراقيا Trace . وبعد ذلك بوقت قصـير تـرك ريمـون الجيش ، وأسرع إلى القسطنطينية . وإبان غيابه عامل البيزنطيون الجيش الصليبى معاملة خشنة ، ثم وصل الجيش الصليبى إلى القسطنطينة فى ٢٧ أبريل ١٠٩٧م، بعد ستة أيـام من وصول قائده .

وكان الكونت روبرت الثانى القوى من إقليم الفلاندر Flanders (١٠٩٣-١١١١م)، قد وصل قبل ذلك بقليل . وكان قد بدأ المسير مع الدوق روبرت من نورماندى (١٠٩٣- ١١٠٦م) ، والكونت ستيفن من بلوا (١٠٨٩ - ١١٠٢م) . وكان الدوق روبرت قد وجـد أن مشاكل حكم نورماندى فوق طاقته ، لذلك رهنها بكل إرتياح، عند أخيه وليم روفـوس بانجلترا William of England ، مقابل عشرة آلاف مارك من الفضة . أما ستيفن مـن بلوا Stephen of Blois ، زوج ابنه وليم الفاتح ، " كان يملك قلاعاً بعدد أيـام السـنة " وعلى ذلك لم يجد صعوبة فى تمويل مشاركته فى الحملـة الصليبيـة . وكـان فولشـر

الشارترى Fulcher of Chartres ، أحد أفراد حاشية ستيفن ، وامتطى فولشر فرسه فــى تلك الحملة ، وهو الذى صار قسّيساً خاصا لبلدوين من بولون Baldwin of Boulogne ، فيما بعد ، كما كان فولشر أحد كتاب حوليات الحرب الصليبية . وبدأ جيشهم المسير فــى أكتوبر ١٠٩٧ م أيضاً . وما أن عبروا جبال الألب حتى قابلوا البابا أوربــــان الثــانى ، ومنح البابا سلطات كاملة لكل من أرنولف من روش Arnulf of Roches قسيس روبرت النورماندى ، وإسكندر قسيس ستيفن . وقدر لأرنولف على وجــه التخصيــص أن ينعــم بسيرة ناجحة فى الشرق . ومنذ عهد قريب فحسب ، لم يكن معروفـــاً أن أدهميـــار هــو المندوب البابوى الوحيد المعين . (١٨) وربما كان البابا فكّر على افتراض وجود جيـــش واحد ، وهنا لدينا دلالة أخرى على أن الحملة الصليبية لم تسر وفقاً للنمط الذى تصــــوره أوربان . فقد زادت أعداد الأمراء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية على ما كان متوقعاً . ولم يكن لديهم الاستعداد للعمل تحت قيادة إمرة قائد واحد، ومن ثم تلاشت إمكانية وجـــود قيادة موحدة ، تحت قيادة البابا . ووجد أوربان نفسه مضطراً لتعيين مندوب بابوى لكـــل فرقة عسكرية. وبالرغم من أن تعيين أدهيمار مندوباً بابوياً أوحد لم يتعرض للإلغاء مـــن الناحية الاسمية ، واستمر يمارس دوراً قيادياً ، فإنه سافر مع أهالى بروفنســـال ، ومـــن المحتم أنه كان ينظر إليه على أنه مندوبهم البابوى . ومن مدينـــة لوقـــا Lucca تحـــرك الجيش إلى جنوب إيطاليا ، حيث قضى كل من الدوق روبرت ، والكونت ستيفن شــــهور الشتاء ، فى حين أسرع روبرت من فلاندرز Robert of Flanders إلى القســـطنطينية . وأبحر الإثنان الآخران عبر بحر الإدرياتيك فى إبريل ١٠٩٧ م ، ووصلا القســـطنطينية فى مايو بدون مشاكل . وأصبح تجمع القوات كاملاً فى ذلك الحين .

ولم يدخل فى حساب ألكسيوس Alexius جيوشاً بهذا الحجم ، بيد أن كل ما استطاع أن يفعله فى ذلك الحين ، هو بذل غاية جهده لمعالجة الوضع . وبالطبع ، لم يكن هنـــاك مجال للسماح للقوات بدخول المدينة ذاتها. فأقامت تلك القوات فى معسكرات بالضواحى . وسمح ألكسيوس للقادة ومعهم قليل من رجالهم بدخول القسطنطينية ، لإلقاء نظـــرة علـــى الثروة والآثار المقدسة التى تملأ بيت الكنوز الضخم بالمدينة. وعندما استقبلهم ألكســـيوس عرض عليهم كل شيء رائع فى القصر البيزنطى . وأغدق عليهم الهدايا ، ونعـــرف أن

ستيفن من بلوا ، كان مسروراً جداً بالتأكيد . ولكن لا شيء من هذا استطاع إخفاء حقيقة أن وصول الصليبيين أثار مشكلات سياسية . واستطاع ألكسيوس استغلال حقيقة أنه وحده له حق السيطرة على السفن المطلوبة لنقل الجيوش عبر مضيق البسفور ، لكي يمارس ضغطاً على الصليبيين . ومن ناحية أخرى ، لم يكن فى إستطاعته ترك هذا الأمر لفترة طويلة ، وإلاّ سوف يتزايد عدد القوات خارج القسطنطينية إلى درجات خطيرة . وبالإضافة إلى ذلك فمن الطبيعى أنه يريد الوصول ، إلى اتفاق بشأن الأراضى التى سوف يحتلها الصليبيون . وبالنسبة لبيزنطة ، لا يمكن قبول سوى أن الأرض التى كانت فى يوم ما تابعة لها لابد أن تعود إليها . وكان ألكسيوس محظوظاً بخصوص هذا الأمر ذلك لأن أول جيش وصل إلى القسطنطينية ، كان تحت قيادة هوج من فيرماندوا Hugh of Vermandois ، وكان هذا الجيش صغيراً . وقيد ألكسيوس حرية حركة الرجل الفرنسى بحذر ودون الوقوع فى خطأ ، إلى أن استعد بأن يقسم على أن كل الأراضى التى كانت تابعة قبل الغزوات التركية لا بد من عودتها للدولة البيزنطية. وبالإضافة إلى ذلك ، أى فتوحات تتم شرق هذا الخط (غير محدد) سوف تكون إقطاعات للإمبراطور ألكسيوس .

ولم تكن معاملة ألكسيوس لهوج خافية على الصليبيين الآخرين . وكان جودفرى دى بوايون الثانى فى الوصول ، ورفض عدة دعوات لزيارة المدينة . ورفض أيضا القسم الخاص بتسليم الأراضى التى سوف يستولون عليها إلى ألكسيوس . وأراد أن ينتظر حضور الأمراء الآخرين ، وربما كان لديه شكوك فى القسم الإقطاعى لأنه كان دوقاً لإقليم اللورين الأسفل ، وتابعا إقطاعياً للإمبراطور الغربى . وحاول ألكسيوس مرتين ممارسة ضغوط عليه بالتوقف عن إمداد جيشة بالطعام . فرد أهالى اللورين على ذلك بنهب ضواحى العاصمة . وفى المناسبة الثانية ، فى يناير ١٠٩٧ م ، ضرب جودفرى حصاراً حول القصر الإمبراطورى ، فى بلاشيرناى Blachernae . وكان هذا أكثر مما يتحمل ألكسيوس ولذلك أراد أن يرى جودفرى فى آسيا الصغرى ، قبل وصول قوات صليبية أخرى إلى القسطنطينية . ومن ثم أصدر ألكسيوس أوامره لجنوده بإجبار جودفرى ورجاله على الإذعان، وبذلك كانت اليد العليا للجيش البيزنطى. وفى ٢٠ ينساير ١٠٩٧م

كان جودفرى مستعداً لأداء القسم المطلوب . (١٩) وتم نقله ورجاله على الفور على سفن عبر البسفور. وساروا على امتداد ساحل بحر مرمرة إلى بيليكانوم Pelecanum ، وهو معسكر للجيش البيزنطى . وبعد ذلك بقليل وصل بوهيموند Bohemund والنورمان إلى القسطنطينية . وكان مصمما على أن يعيش على نمط يؤدى إلى نسيان ما اقترفه كعدو قديم مشهور لبيزنطة ، وأن يوفق فى تكوين انطباع جيد عند ألكسيوس . وفى منتصف أبريل ١٠٩٧ م أقسم ووعد ألاّ يحتفظ لنفسه بأجزاء من أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، ولا يسمح لأحد لأن يفعل ذلك. ومن المحتمل أنه كان يأمل أن يعينه ألكسيوس قائداً عاما للقوات الإمبراطورية فى آسيا . وإذا ما حدث ذلك فإنه سوف يكون أقوى قادة الحملة الصليبية ، بيد أنه فى الحقيقة ، ما زال محل عدم ثقة ألكسيوس إلى حد أنه لا يمكن أن يوافق على أى مشروع كهذا . ومع ذلك كان الإمبراطور على استعداد لمساعدة الصليبيين بالسلاح والطعام . (٢٠)

ولم يكد جيش بوهيموند يقترب من بيليكانوم Pelecanum حتى وصل ريموند التولوزى Raymond of Toulouse إلى القسطنطينية . ومن بين كل قادة الحملة الصليبية كان ريموند أكثرهم عناداً فى مقاومة القسم . ويرجع سبب ذلك إلى حد ما لأن خطة أوربان، أن يكون كونت تولوز قائداً عسكرياً للحملة الصليبية هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن ريموند الذى كان مؤهلاً لشغل ذلك المنصب لثروته ، وسلطته ، وخبرته فى الحرب وسنه ، وجد أن مركزه بات مهدداً – وبخاصة أن هناك شائعات حول طلب بوهيموند أن يشغل منصب القائد العسكرى . لذلك أعلن بكل برود أنه قدم للشرق للعمل فى سبيل الله فقط . وحاول القادة الآخرون إعادة ريموند إلى الصواب ، لأنهم لم يكن يرغبون فى تأخر مسير الحملة ، ولكن عبثاً ودون جدوى . وأيد بوهيموند موقف الإمبراطور صراحة عند تبادلهم الآراء ، وأخيراً جرت تسوية ، ربما بمساعدة أدهميار المندوب البابوى . وفى ٢٦ أبريل أدى ريموند قسماً معدلاً ، ينص على احترام شخص الإمبراطور وممتلكاته . ومن المحتمل أن صيغة القسم كانت شائعة فى جنوب فرنسا ، وعلى ذلك كانت تلك الصيغة مألوفة عند ريموند على حين تجنبت تلك الصيغة فى الوقت نفسه ، أى معنى ضمنى بشأن التبعية الإقطاعية لأكسيوس . ومن المدهش تماماً أن

ريموند ، كان القائد الوحيد ، الذى حافظ على قسمه ، والذى تحمل وصمد لزمن طويـــل. ولكن ربما فسر هذا لماذا أقسم الآخرون بسرعة جداً . ومنذ ذلك الحين فصـــاعداً كـــان ريموند على علاقات طيبة مع الإمبراطور ، وكاناً شريكين فى كراهية بوهيموند . ولـــم يكن لدى الأمراء الآخرين أى مشاكل بشأن إعطاء ألكسيوس الوعد الذى طلبه ، وعلـــى الفور كان كلهم قد صلوا إلى بيليكانوم Pelecanum .

وبحلول نهاية أبريل ١٠٩٧ م ، كان جودفرى والنورمان قد غـــادروا المعســكر . وكانت مدينة نيقية ، هدفهم الأول ، وهى عاصمة قلج أرسلان ، الســلطان الســلجوقى . وهذه المدينة مشهورة كمكان لانعقاد المجامع الكنسية الباكرة ، وكانت تسيطر على الطرق الرئيسية إلى الشرق عبر الأناضول . وشيدت هذه المدينــة ، فى موقع إستراتيجى ، على شاطئ بحيرة ويحميها ما يزيد على مائتين من الأبراج. ووصل جودفرى إلى نيقيـــة فى ٦ مايو ١٠٩٧ م ، وعلى الرغم من مـــرور أكثر من أربعة أســابيع ، قبـــل أن يتجمـــع الجيش كله ، فإن عملية الحصار بدأت حوالى ١٤ مايو ١٠٩٧ م . وكانت أســـرة قلـــج أرســـلان وأمواله داخل المدينة . وكان السلطان نفسه خارج العاصمـــــة فـــى الشـــرق، يحارب الدنشمند Danishmends – وهم قبيلة تركية من شرق الأناضول، إدعت ملكيتها لمدينة ملطية Melitene ، وهى مدينة كانت بالنسبة لقلج أرسلان مدخل حيوى للمنطقـــة الخلفية للسلاجقة فى العراق وفارس. وبعد تجارب قلج أرسلان مع أتباع بطرس الناسك ، إعتقد بعدم وجود مبرر يجعله الإهتمام بالصليبيين بجدية. غير أنه أدرك مدى الخطر فى هذه المرّة ، وعاد مسرعاً، ولكن سبق السيف العذل. وخاض قلج أرسلان معركة شرســـة فى ٢١ مايو ١٠٩٧م ، بعد أن عجز عن دخول مدينته. وتعرض للهزيمة ، وأجبر علـــى التراجع. وللمرة الأولى أثبت الصليبيون أنهم إذا ما واجهوا المسلمين فى معركة ضارية ، ففى إمكان التأثير المروع لفرسانهم الثقيلى العدّة تحقيق النصر لهم . ولكن طالمـــا ظلـــت المجازات عبر البحيرة مفتوحة فقد ظل من المستحيل سقوط المدينة . وكان الإمـــبراطور مقيماً فى بيليكانوم Pelecanum للإشراف على توزيع المؤن الغـــذائية فى ذلك الحين، وأرسل للصليبيين قوارب عن طريق البر . وتم إنزال تلك القـــوارب على ســـطح مـــاء

البحيرة ، وبذلك تم اكتمال حلقة الحصار حول نيقية . واستسلمت حامية المدينة للقائد البيزنطى بوتوميت Butumites ، بعد أن أصيبت بتثبيط الهمة والإحباط نتيجة لتقهقر السلطان من ناحية ، وكذلك نتيجة للخطة العسكرية البارعة للبيزنطيين من ناحية ثانية . وبذلك عادت نيقية كجزء من الإمبراطورية البيزنطية مرّة ثانية. ونظراً للقسم الذى أخذه أمراء الصليبيين على أنفسهم ، فليس لهم أن يتوقعوا شيئاً آخر . ومع ذلك فقد أصيبوا بخيبة أمل . فقد حُرّم عليهم دخول المدينة ، ولم يكن هناك سبيل لنهبها . لذلك نما الإحساس بعدم الثقة فى البيزنطيين ، على الرغم من أن ألكسيوس وزع الهدايا الثمينة ، ليعوض الصليبيين عن الغنيمة التى شعروا أنهم حرموا منها . ولكن على أية حال ، زالت عقبة من الطريق ، وكان ذلك شيئاً يبعث على البهجة . فقد أرسل ستيفن من بلوا Stephen of Blois خطاباً إلى زوجته أديليد Adelaide فى بلده : " مالم تثبت مدينة أنطاكية أنها كانت حجر عثرة، فإننا نأمل أن نكون داخل بيت المقدس فى غضون خمسة أسابيع " . غير أن تحقيق ذلك استغرق عامين .

إن المسيرة عبر الأناضول إلى أنطاكية استغرقت أربعة أشهر على وجه التحديد . وكان عليهم تحمل مشاق حرارة الصيف والنقص فى الطعام والماء . فالأتراك كانوا قد خربوا المناطق الريفية فى كل مكان ، قبل إنسحابهم إلى الجبال . ولم يكن الصليبيون على معرفة بالمنطقة ، ولم يثقوا تماماً فى مرشديهم. ولأول مرّة صارت عيوب عدم وجود قائد عام واحد واضحة للعيان. أما مجلس الأمراء الذى كان بدلاً لقائد أعلى واحد ، فكان مملاً إلى حد ما ، وعلى أية حال، لم يكن قرار هذا المجلس بالإجماع دائماً . وغادر الصليبيون نيقية فى ٢٦ يونيه ١٠٩٧م ، واتجهوا إلى الجنوب الشرقى تجاه دوريليوم Dorylaeum ، وعندها كان عليهم التخير بين الطرق العديدة عبر الأناضول . وساروا فى شعبتين . وتكونت الشعبة الأولى من نورمان جنوب إيطاليا وشمال فرنسا ، ومعهم الفلمنكيين ، وفرقة بيزنطية تحت قيادة تاتيكيوس Taticius ، أما الشعبة الثانية ، فتكونت من أهالى بروفنسال واللورين ، وقوات هوج من فيرماندوا Hugh of Vermandois. وفى ٢٩ يونيه ١٠٩٧ م ، تقابلت الشعبة القيادية والتى فيها بوهيموند

الشخصية المسيطرة مع جيش قلج أرسلان. واشتعلت نيران المعركة فجر اليوم التـــالى . وانقض الأتراك من كل اتجاه. واستعمل الأتراك معداتهم الحربية الأخف وزناً ، والأكـــثر قابلية للتحرك والتأثير ، وبذلك كانوا قادرين على تجنب كتيبة الفرسان المسلحين بأســلحة ثقيلة العدة والبطيئة الحركة . وفى الوقت نفسه أمطــروا الصليبيين بوابل منهمـــر مــن السهام . بيد أنهم لم يتمكنوا من اختراق صفوف الصليبيـــن الذيــن جعلهــم بوهيمونــد متماسكين بإحكام . ثم تم حسم المعركة عندما فاجأ الصليبيون الأتراك بوصــول الشــعبة الثانية بقيادة جودفرى دى بوايون ، وريموند من تولوز ، بعد أن وصلهم رسول من قبــل بوهيموند ، وأبلغهم بتطور الحوادث التاريخية للمعركة . وإكتسب أدهيمار شهرة لنفســـه بقيادة خطة عسكرية التفافية ناجحة حول العدو، على الرغم من أنه ليس من الواضــح إذا ما كان هذا له تأثير على نتيجة المعركة . ولاذ ا لسلطان قلج أرسلان بالفرار ، وخلفـــه جيشه ، الذى انتابته حالة من الذعر المفاجئ . وسقط مخيــم الأتــراك بخيامــه الفخمــة وغنائمة الضخمة فى أيدى الصليبيين . وقد فتحت تلك المعركة الطريق إلى الأناضول .

ومع ذلك تجنب الجيش الصليبى الطرق الأقصر والشمالية على الرغم من أن هـــذا يعنى تجنب الطرق البيزنطية المعبدة جيداً، ذلك لأن السير فى تلك الطرق كان سيجبرهم على اجتياز الإقليم الرئيسى للسلطان التركى . وبدلاً من ذلك اختار الصليبيون طريق غير مباشرة تستخدم مؤقتاً بدلاً من الطريق الرئيسية عبر جنوب الأناضول ، متقدمين صـــوب فيلوميليوم Philomelium ، ثم على امتداد سفح جبال طوروس حتى قونية . ومن هنـــاك واصلوا سيرهم إلى طوانه Tyana حيث تفرعت الطريق مرّة ثانية . وكانت مسيرة فـــى غاية الصعوبة. وكانوا قد نعموا بفترة راحة قصيرة - أسبوع فـــى نيقيـــة فـــى هرقلـــة Heraclea كان عليهم أن يشقوا طريقهم أمام القوات المتحالفة المكونة من الدانيشـــمنديين وأمير قبادوقيا . ومن طوانه أوصلهم الطريق المباشر إلى سوريا عبر بوابـــات قليقيـــة ، وهو ممر شديد الانحدار وضيق عبر جبال طوروس ، ثم نزلوا إلى طرسوس فى ســـهل قليقية ومن هناك فوق سلسلة من جبال أمانوس Amanus إلى وادى نهر العاصى . وترك كل من تانكرد ، وبولدوين من بولون ، وبلدوين من لى بورج ، الجيـــش فـــى طوانـــه ، وبدأوا السير فى موازاة هذا الطريق .

ومع ذلك فقد أثارت بوابات قيليقية مشاكل لا حصر لها للجيش الرئيسي . ولذلك قرر الأمراء الآخرون اتباع الطريق الذى أوصلهم إلى شمال شرق قيصرية ، المدينة الرئيسية لقبيلة دانشمند ، ثم استداروا تجاه الجنوب الشرقى لعبور جبال طرسوس للوصول إلى مرعش . وأحد امتيازات هذا الطريق أن وجد الصليبيون الأمل فى الحصول على مساعدة السكان النصارى المحليين وبخاصة الأرمن. وفى منتصف القرن الحادى عشر طرد البيزنطيون هؤلاء الأرمن من ديارهم فى أرمينيا . واستقروا فى بداية الأمر فى قبادوقيا ، غير أن ضغط التقدم التركى ، أجبرهم فيما بعد على الإتجاه جنوباً ، وعند حضور الحملة الصليبية ، كان الأرمن يعيشون فى منطقة واسعة من قيليقية فى الغرب إلى ما بعد نهر الفرات فى الشرق . وكانت أسرة هيثوميان Hethoumian ، تحكم الأرمن غرب بوابات قيليقية ، وأسرة روبنيان Roupenians تحكم إلى الشرق. واعترفت بالسيادة التركية مجموعة قليلة من أمراء الأرمن الذين عاشوا أبعد قليلاً شرقا. وكان ثوروس من الرها Thoros of Edessa ، أهمهم جميعاً .

وفى نهاية سبتمبر ١٠٩٧ م دخل الجيش الصليبى قيصرية التى هجرتها قبيله دنشمند . ومن قيصرية واصلوا مسيرهم عبر جبال طوروس ، وكانت رحلة صعبة وشاقة بسبب أمطار الخريف . وفى منتصف أكتوبر وصلوا مرعش ، حيث استقبلهم الأرمن بحفاوة ، واستراحوا لعدة أيام . وفى العشرين من أكتوبر ١٠٩٧ م ، شقوا طريقهم عبر الجسر الحديدى ، المقام على نهر العاصى ، وفى ٢١ أكتوبر وصلوا أمام أسوار مدينة أنطاكية ، مفتاح شمال سوريا .

وفى الوقت نفسه كان كل من تنكرد وبلدوين قد تقدم تجاه الجنوب نحو القرى التركية فى سهل قيليقية – وكانت سيادة الأرمن قاصرة على الجبال . وسعى كل واحد منها لصالحه الخاص ، ومع ذلك فإن جهدهما خدم الحملة الصليبية . **أولا** ، فمعنى ذلك أن الجناح الأيمن للجيش الرئيسى المتجة صوب أنطاكية كان فى مأمن. **ثانيا**، إن سقوط قليقية كان يعنى دق إسفين بين السلاجقة فى الأناضول وفى سوريا لمنعهم من توحيد قواهم لنجدة أنطاكية . وسيطر تنكرد على طرسوس . بجماعة قليلة من الفرسان ، غير أنه اضطر إلى التخلى عنها إلى قوات بلدوين التى كانت أكبر بكثير . ولما كان تنكرد

يعانى من خيبة الأمل بمرارة لذلك تحرك بعيداً تجاه الشرق إلى المصيصة Mamistra . وبرغم قسم بلدوين ، فلم يكن لديه نية تسليم طرسوس إلـــى الإمـــبراطور ألكســيوس ، ولاسيما أنه لم يجد مسئولاً بيزنطياً فى أى مكان قريب . وترك حامية من النصارى تتولى حماية المدينة ، وتمكن من تعزيزهـــا بمساعدة أحد القراصنة الأثرياء، وهو جوينيمار من بولون Guynemer of Boulgne ، الذى تصادف أن أسطوله كان يطوف فى تلك المياه . ثم واصل بلدوين مسيره إلى المصيصة ، حيث حدثت بعض المشادات الكلامية بين رجاله ورجال تنكرد ، بيد أنهم تجنبوا الدخول فى صراع مكشوف على الفور . وذهب تنكـــرد جنوباً ، واستولى على ميناء الإسكندرونة Alexandretta بمساعدة جونيمار . ثم إنضـــم إلى الجيش الرئيسى أمام أنطاكية. وكان بلدوين قد قابل الجيش ، عندما كان ذلك الجيـــش فى مرعش ، بيد أنه مكث وقتاً كافياً للتشاور مع القادة الآخرين ، قبل التقدم شرقاً ثانيـــة، لتحقيق تفهم أكثر إستمراراً للسياسة الأرمينية. واستولى أولاً على قلعتى الراوندان وتـــل باشر Ravendel and Turbessel المهمتين اللتين كانتا تسيطران على المنطقة الغربيـــة لنهر الفرات . وقام الأرمن الذين تحت السيطرة التركية ، فى كـــل مكـــان ، بتحيتـــه كمحرر. أما فى شرق نهر الفرات فكان موقف ثوروس حاكم الرها الأرمنى مزعزعـــاً . وكان من قبل يعمل فى خدمة الإمبراطور البيزنطى ويدين بالمذهب اليونانى الأرثوذكى. إن اعتناق ثوروس لمذهب الكنيسية اليونانية الأرثوذكى جعله غير محبوب من شعبه الذين دانوا بالمذهب المونوفيزتى Monophysites ، وهو مذهب الكنيسة الأرمينيـــة . ودعـــا ثوروس بلدوين إلى الرها ، على أمل التخلص من التبعية للأتراك الســـلاجقة . وقضـــى بلدوين فصل الشتاء غرب نهر الفرات ، ثم دخل الرها فى فبراير ١٠٩٨ م بقوة قوامهـــا ثمانين فارس فقط . وجعل ثورس نفسه والداً بالتبنى لبلدوين ، مستخدماً مجموعـــة مـــن الشعائر والطقوس الأرمنية التى عليها مشاركه الابن لوالده فى كل شيء. ومنذ ذلك الحين كان بلدوين وريثاً ومشاركاً فى الحكم . لكن حدثت مؤامرة فى الشـــهر التـــالى ، إنتهـــت باعدام ثوروس الحاكم القديم دون محاكمة قانونية . ولم يفعل بلدوين شيئاً لمساعدة والـــده بالتبنى ، والحقيقة أنه من المحتمل وافق على ما فعله المتآمرون . وفى العاشر من مارس ١٠٩٨ م قبل بلدوين الدعوة ليكون الحاكم الأوحد للرها . أما بخصوص طرســـوس فلـــم تكن لديه النية فى إعـــادتها إلى الإمـــبراطور البـــيزنطى. وهكـــذا تكونـــت أول إمـــارة

للصليبيين؛ وهى كونتية الرها ، التى سيطرت على منطقة شرق وغرب نهـــر الفـــرات . وكان عليها أن تقوم بدور إمارة حاجزة فى الشمال الشرقى ، لحماية الإمارات الصليبيـــة الأخرى إلى الجنوب . ولم يعد الكونت الجديد يفكر فى مساعدة الجيش الرئيســـى بعدمـــا حقق ما أراد .

واستفاد الصليبيون من حالة الفوضى والتفكك فى البلاد الإسلامية ، أثنــــاء تقدمهـــم عبر آسيا الصغرى ، وحتى أثناء الصراع الذى حدث فيما بعد فى ســـوريا وفلســـطين . ونظراً لعدم مقدرة الحكام المسلمين على إدراك الخطر الذى يوشك أن يهلكهم ، فإنهم لـــم يجدوا ما يدعو إلى تخليهم عن خلافاتهم الداخلية . ولم تقم اللغة العربية فـــى العصـــور الوسطى باستحداث كلمة ، " حملة صليبية Crusade " ، وكذلك الأمـــر بالنســـبة للغـــة اللاتينية فى العصور الوسطى . فقد أطلق العرب على المشاركين فى الحملة الصليبيـــة : الفرنجة (على اعتبار أن الحملة الصليبية الأولى غلب عليها الطـــابع الفرنســـى) ، وأن الإمارات الصليبية مناطق فرنجية فى الأرض المقدسة .

وحتى عام ١٠٩٥ م كان الأمير تتش (طتش) ، شقيق السلطان ملك شاه السلجوقى، هو الشخصية البارزة السياسية المهيمنة فى سوريا . إذ قد تمكن مـــن طـــرد الفـــاطميين والتركمان من دمشق ، وبيت المقدس ، وعكا . وكانت إمارته منافسة للقوى الســـلجوقية الأخرى بالإضافة إلى أنها كانت إمارة حاجزة مفيدة ضـــد الفـــاطميين . وفـــى ١٠٨٦ م أضاف تتش حلب إلى ممتلكاته فى جنوب سوريا وفلسطين ، ولذلك رأى ملكشاه أن الوقت قد حان للتدخل . ثم تفسخت الإمبراطورية السلجوقية عندما مات ملكشاه فـــى ١٠٩٢ م .

وحاول تتش مرّة ثانية توسيع رقعة المناطق التى تحت حكمه، وبرغم تصدى برقياروق، ابن أخيه ، فإنه ظل محتفظاً بحلب تحت سيطرته. وعندما مات طتش ، ورث رضـــوان (١٠٩٥ – ١١١٣م) حلب ، وكانت دمشق من نصيب إبنه دقاق (١٠٩٥ – ١١٠٤ م) . واسترد الفاطميون جنوب فلسطين ، حيث إنتهزوا فرصة وفـــاة تتش للتقدم شـــمالاً مـــن مصر . وفى ١٠٩٨ م طرد الفاطميون الأراتقة (بنى أرتق) ، الذين كانوا قـــد تســـلموا بيت المقدس كإقطاعة سلجوقية فى الأرض المقدسة . ولم يكن لدى الفاطميين الشيعة أدنى نية فى مساعدة السلاجقة السنيين ضد الصليبيين . وعلى العكس من ذلك فقد طرحـــوا –

ولكن دون جدوى - فكرة تكوين تحالف ضـــد الســـلاحقة . وكـــان إزديـــاد الحركـــات الاستقلالية للإمارات الأرمنية الصغيرة ، عاملاً إضافياً لحالة الفوضى . ولـــم تكـــن أى إمارة سورية قادرة بمفردها على التصدى للجيش النصرانى، وهكذا فبفضل حالة التفســخ فى داخل العالم الإسلامى ، تمكنت الحملة الصليبية من تحقيق هدفها . ومع ذلـــك كـــان الصليبيون يقفون خارج أسوار أنطاكية حتى ذلك الحين .

وكانت أنطاكية المدينة الثالثة فى الإمبراطورية الرومانية ، حيث موقعها الخـــلاب الذى لا يبعد عن البحر ، وعلى منحدر يؤدى إلى الوادى الخصيب لنهر العاصى . كمـــا أن أسوارها الضخمة ، وما بها من أربعمائة برج بناها الإمبراطور جوستنيان ، جعلتهـــا مدينة حصينة من الناحية العلمية ، وإن كانت ليست فى مكانة شهرتها الســـابقة . ومنـــذ ١٠٨٧م كان ياغى سيان الأمير السلجوقى ومعه حاميته التركية يحكمون أنطاكية بشـــعبها الذى يتكون معظمه من النصارى اليونانيين والأرمن . ومن الطبيعى أن الأمـــير يـــاغى سيان كان لديه المبرر فى الشك فى ولاء رعاياه . وعندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية فى ٢١ أكتوبر ١٠٩٧ م ، قرروا عدم محاولة اقتحام المدينة بالقوة ، وأيد ذلك ريموند من تولوز Raymond of Toulouse ، وهى خطة كان من الممكن نجاحها . وبدلاً من ذلك ، فعلى الرغم من حقيقة عدم مقدرتهم على عمل دائرة تحيط بالكامل بالمدينة، فإنهم قـــرروا ضرب حصار منتظم . وهذا ما نصح به بوهيموند Bohemund . وكان بوهيموند يطمع فى الاحتفاظ بمدينة أنطاكيه لنفسه ، ربما لأن نجاح بلدوين فى الرها ، عمل على تقويـــة طموحات بوهيموند . غير أن بوابه القديس جرجس فى السور الغربى للمدينـــة ، ظلـــت مفتوحة ، وسمحت بدخول المؤن ، وخروج المحاصرين ، لشن هجمات مفاجئة ، علـــى الصليبيين ، على الرغم من أنهم ليس لديهم القوة الكافية لتسديد ضربة قاضية للصليبيين ، وقبيل منتصف نوفمبر ١٠٩٧م ، وصل أسطول من القوارب والسفن الصغيرة من جنـــوة محملاً بالإمدادات العسكرية، ودخل ميناء السويدية St. Symeon ، واستطاع المحاصرون الصليبيون العمل بهمة ونشاط ، فى بناء معسكرات محصنة ، وامتـــد حصـــارهم حـــول المدينة . وبحلول فصل الشتاء عانى الصليبيون من نقص فى الطعام ومـــن شـــدة الـــبرد القارص . وكتب ستيفن من بلوا Stephen of Blois ، إلى زوجته ، أنه لم يستطع فهم

سبب الشكوى من شدة حرارة الشمس. وقام الصليبيون بغارات بحثا عن العلف والطعـــام بسرعة بعيداً عن مكان معسكرهم . وفى نهاية ديسمبر ١٠٩٧م ، ترك كل من بوهيمونـــد وروبرت من فلاندر الحصار حول المدينة وذهبا فى صحبة فرقة كبيرة من الجيش حتـــى وصلا إلى وادى نهر العاصى ، حتى مدينة شيزر Shaizar بحثاً عن المـــؤن والمـــواد الغذائية. وفى ذلك الحـــين تقابلت تلك القوات الصليبية ، دون توقع مع جيش بقيادة دقاق ملك دمشق الذى كان قد قرر أخيراً نجده أنطاكيه. فأحرز الصليبيون نصراً مشرفاً . وفيما بعد قام رضوان ملك حلب بمحاولة أقل استعداداً لنجدة أنطاكية ، غير أن المحاولـــة لـــم تحقق الهدف .

وفى الوقت نفسه إزدادت حالة المجاعة فى الجيش سوءاً ، وتحول بعض الفقـــراء إلى أكلة لحم البشر . وانتشرت سمعة جماعة تعرف باسم " التافور Tafurs " بأكل لحـــم البشر ، وهم من أهالى إقليم الفلاندرز ، الذين كانوا أتباع بطرس الناسك . فهم حاربوا فى الصفوف الأمامية دائما ، واستفادوا إلى أبعد حدود الاستفادة من الأتراك القتلـــى . (٢١) وكان بطريرك بيت المقدس اليونانى ، الذى عاد إلى قبرص ، كان على اتصال بأدهمـــار وبذل كل ما فى وسعه ، لمساعدة الصليبيين ، بيد أن الإمدادات والمؤن التـــى أرسـلها ، كانت مجرد نقطة فى محيط . وفى يناير ١٠٩٨ م بدأ بعض الصليبيين فى العودة إلـــى ديارهم . وكان بطرس الناسك من بين هؤلاء ، غير أن الصليبيين أمسكوا به ، وأجـــبروه على العودة . وفى فبراير ١٠٩٨م ، غادر المعسكر القائد البـــيزنطى تـــاتيكيوس. ومـــن الصعب معرفة سبب إقدام تاتيكيوس على ذلك ، وبـــالطبع إســـتثمر بوهيمونـــد رحيـــل تاتيكيوس فى إثارة الاستياء من البيزنطيين . بيد أنه كان من الممكـــن أخـــيراً ، إكمـــال الحصار ، فى مارس ١٠٩٨ م ، برغم كل الصعاب . ثم تغير الموقف ثانية عندمـــا ذاع خبر قدوم كربوغا حاكم الموصل (ت ١١٠٢م) ، وهو محارب مشهور ، لنجدة أنطاكية. وانضمت إلية قوات من الأراتقة ، الذين طردهم الفاطميون من بيت المقـــدس ، وكـــانوا يحكمون بلاد ، بين النهرين Mesopotamia ، فى ذلك الحين. وأوقع اقتراب هذا الجيش كل الصليبيين الذين عانوا من ضعف المعنويات ، فى حالة مرعبة. إذ لم تسقط أنطاكيـــة قبل قدوم كربوغا فسوف تنتهى الحملة الصليبية . ويرجع الفضل إلى بوهيموند فى إنقـــاذ

الموقف . وكان بالفعل قد هدد بالانسحاب ، ما لم تسلم له أنطاكية ، وكرر هـــذا الطلـــب صراحة في ذلك الحين . وكان بوهيموند قد كون علاقة سرية ، مع أحد القادة المدافعيـــن عن المدينة بداخلها ، واسمه فيروز ، الذى كان على استعداد لخيانة الأمانـــة ، وتســـهيل دخول الصليبيين للمدينة . وعلى الرغم من اعتراضات ريموند ، الذى رغب فى الوفـــاء بعهده ، فإن بوهيموند حصل على وعد بالحصول على أنطاكية – إذا تمكن من اقتحامها ، وفى حالة عدم حضور الإمبراطور بنفسه للتأكيد على حقه فيها . وعلى الرغـــم مـــن أن سقوط أنطاكية كان وشيكا فى ذلك الحين، فإن ستيفن من بلوا ، أحد الصليبيين المرموقين، قرر العودة فى الثانى من يونيه ١٠٩٨ م . ومن المرجح أن ستيفن هذا كان مسئولاً عـــن المواد التموينية ، وربما قد شعر بأن استســـلام أنطاكية لا ريب فيه، وعلى ذلك انتهـــت مهمته . وفى رحلة العودة عبر الأناضول قابل الإمبراطور ألكسيوس ، الذى كان يتجهز للتقدم عبر الأراضى السورية لحماية حقوقه . وفى الوقت نفسه ، انضم هاربون آخـــرون إلى ستيفن ، وقدموا وصفاً موهنا للعزيمة عن الموقف أمام أنطاكية إذ أحاط الصليبيـــون بها ، وأصبحوا بدورهم تحت رحمة حصار كربوغا. ورســـموا صـــورة قاتمـــة جعلـــت ألكسيوس يغير خططه ، وبذلك تحسنت فرص بوهيموند فى الاحتفاظ بأنطاكيـــة . وثـــار الرأى العام على ستيفن فى أوربا ، واتهمه بالجبن ، والفرار من المعركة، ظالماً إياه إلى حد ما. ولم يكن ترحيب زوجته بعودته ودياً على الإطلاق .

وفى مساء اليوم ، الذى غادر فيه ستيفن المعسكر ، ابتعد الصليبيـــون أيضـــاً عـــن أنطاكيه ، إلاّ أنهم رجعوا تحت جنح الظلام. وفى الساعات الأولى من صباح الثالث مـــن يونيه ١٠٩٨ م ، سمح فيروز لبوهيموند وفرسانه بدخول أنطاكيه . ولم يمض وقت طويل حتى سيطر الصليبيون على المدينة، وقتلوا كل الأتراك الذين وقعوا فى أيديهم. وتم ذبـــح ياغى سيان أثناء محاولته الهروب . وحاول ابنه الوصول إلى قلعة المدينة التى كـــانت لا تزال صامدة . بيد أن وصول كربوغا كان يعنى أن الصليبيين لم يكسبوا كثيراً. إذ صـــار الذين كانوا يحاصرون المدينة فى وقت ما ، محاصرين بداخلها ، ويعانون مـــن النقـــص العام فى الطعام .

ولحسن حظ الصليبيين ، وصل كربوغا متأخراً جداً . فقد قضى ثلاثة أسـابيع فـى حصار الرها ، ولكن دون جدوى ، وبذلك فقد فرصة القضاء على الصليبيين، عندما كانوا لا يزالون خارج أنطاكية . وعند وصوله استولى على الفور على القلعة التى كانت علـى قمة الجبل خلف المدينة ، ومن هناك أزعج الصليبيين بغارات متكررة ، بالإضافـة إلـى ضرب حصار محكم حولهم . وانخفضت معنويات الجيش النصرانى بسرعة تحت وطـأة الجوع ، وظلت أعداد الفارين من الصليبيين كبيرة . وكان لا بد من اتخاذ إجراء خطـير جداً لإيجاد مخرج .(٢٢) وعلى أية حال ، فنظراً لأن الموقف كان مهيأ للهوس الدينـى ، والرؤيا من الأنواع ، فقد تم الاستفادة من شخص كثير الرؤيـا ، مـن إقليـم بروفنـس Provence ، وهو مـن أصـل متواضـع ، ويدعـى بطـرس بارثولوميـو Peter Bartholomew . وأخبر هذا الرجل الكونت ريموند أن القديس أندرو St. Andrew ، قد ظهر له فى عدة مناسبات ، وأخبره أن الحربة المقدسة – التى طعن القائد الرومانى بهـا جانب المسيح * مدفونة فى كاتدرائية القديس بطرس . وأبدى المندوب البابوى أدهيمـار من لى بوى Adhemar of Le Puy شكوكه حول هذه الرواية ــ حيث توجـد حربـة أخرى فى مجموعة القسطنطينية . غير أن عملية الحفر فى الكاتدرائية حدثت لعدة أيـام فيما بعد ، وبالفعـل وجد بطرس حربة فى مساء الرابع عشـر مـن يونيـه ١٠٩٨م . والحين، فمن المؤكد الذى لا ريب فيه أن المسألة كلها ، كانت دجلاً دينياً ، لكنه ليس من السهل التعرف على هوية الشخص الذى كان وراءها . وعندما أصبح النظر إلىالحربـة بشك وارتياب أمراً عادياً فيما بعد ، وجه النورمان اللوم إلى أهالى برونفسال ، غـير أن بطرس بارثولوميو كان فى الحقيقة قـادراً بالكامل على رؤيا مناصرة ومؤيدة للنورمـان فى مناسبات أخرى – وبخاصة أصبح من الواضح أن أدهيمار، وهو من جنوب فرنسا ، لم تكن لديه فكرة عن بطرس . ويمكن اعتبار النورمان فى موضع المسئولية أيضاً مثلما يمكن اعتبار مجموعة غير معروفة الهوية من رجال الكنيسة . على أيـه حـال كـانت التأثيرات الفورية لهذا الاكتشاف هائلة . فقد ارتفعت الروح المعنوية للجيش الصليبـى ، واتحد الجميع فى التصميم الضرورى على فك الحصار ، والقضاء على كربوغا . فالواقع

---

* وفقـاً لمعتقدات النصارى .

أن هجمة مفاجئة ناجحة كانت الفرصة الوحيدة فى ذلك الحين . وكان بوهيموند - الشخصية الرئيسية البارزة فى الصراع على أنطاكية بصفة دائمة - كان مصراً على الخروج بهجمة مفاجئة لفك الحصار حيث نشبت المنافسات فى جيش كربوغا . ففرقة دمشق تضايقت من كربوغا لطلبه النجده من حلب أيضاً. على أية حال دارت المعركة الفاصلة فى ٢٨ يونيه ١٠٩٨م. ولم يكن هجوم كربوغا مبكراً بالقدر الكافى ، أما محاولته الالتفاف حول الصليبيين ، فقد أحبطتها حكمة بوهيموند وحصافته . وإنتهت المعركة ، عندما فر الأتراك ، وهم فى حالة من الذعر أسوة بفرقه من دمشق . وبذلك أصبح بوهيموند رجل الساعة ، وكانت الغنيمة لا حصر لها . كما أعلنت القلعة استسلامها فى ذلك الحين أيضاً .

إن المسألة الملحة والتى تتطلب عملاً عاجلاً فى ذلك الحين كانت مسألة سياسية : ماذا يجب عمله بشأن أنطاكية ؟ إذ اختلف النورمان وأهالى بروفنسال اختلافاً تاما فى هذا الموضوع . وتوقفت الحملة الصليبية مؤقتاً ، لأنه لم يكن أحد على استعداد لمغادرة المدينة فى جو من عدم الثقة .ولم يكن متوقعاً للجيش بالمسير فى حالته التى مر بها ، أثناء حرارة الصيف ، ولذلك تم تحديد الأول من نوفمبر ١٠٩٨ م موعداً للمسير. وفى ذلك الحين ظهر وباء ، وتشتت الأمراء للنجاة بأنفسهم منه . فذهب بوهيموند إلى قيليقية Cilicia ، وذهب جودفرى إلى تل باشر Turbessl ، وذهب روبرت النورماندى إلى اللاذقية . أما أدهيمار من لو بوى Adhemar of le Puy ، المندوب البابوى فقد داهمه الوباء ، ومات فى أول أغسطس ١٠٩٨م . ولم يكن أدهيمار قادراً على القيام بالدور القيادى ، الذى تصوره البابا أوربان فى بداية الأمر ، غير أنه كان عليه دائما بذل الجهود المضنية من أجل التوصل إلى تفاهم وتآلف بين الأمراء المتنازعين . ومنذ ذلك الحين فصاعداً تحول الخلاف بين النورمان وأهالى إقليم بروفنسال من سئ إلى أسوأ. ثم عاد الأمراء إلى أنطاكيه فى سبتمبر ١٠٩٨ م ، وبعثوا برسالة إلى البابا أوربان الثانى ، لإبلاغه بوفاة المندوب البابوى ، ويطالبونه بالقدوم شخصياً إلى أنطاكية لتولى قيادة الحملة الصليبية . إنه إجراء قائم عن اليأس فى التوصل الفورى لاتفاق بشأن أنطاكيه ، وتم اتخاذه على أمل كسب الوقت . كما انشغلت القوات الصليبية فى شن غزوات لجمع الغنائم

فى داخل الأقــاليم الإســلامية . وفى أكتوبر ١٠٩٨ م استولى ريموند على بلدة البـــارة al-Bara ، وفيها تقلد بطرس من ناربون Peter of Narbonne منصبه كـــأول أســقف لاتينى للبلدة ، وإن كان من الواجب رسامته بمعرفه البطريرك اليونانى لأنطاكيـــة الــذى كان قد استرد منصبه فى ذلك الحين * . وفى الخامس من نوفمبر ١٠٩٨ م انعقد مجلس الأمراء للمرة الثانية فى الكاتدرائية بأنطاكية . وعلى العموم ، فقد كان بوهيموند قــادراً ، هذه المرة ، على أن ينال ما يريده. فمنذ أمد طويل ، كان يخطى معظم الأمـــراء ، والآن أصبح على ريموند الانصياع أيضاً أمام المطلب الملح للجــيش القلق استمرار المســير . غير أن ريموند لم يكن لديه النية للسماح ببساطة لمنافسه ، بأن يتولى الأمر فى أنطاكيـــه على الفور، وإنما وافق شريطة ، أن يذهب ريموند معهم إلى بيت المقدس . ومع ذلـــك ، فقد تأخر الرحيل أيضاً ، بسبب القتال جنوب أنطاكيه ، وخلال هذه الفترة تزايد التوتر بين النورمان والبروفنسال . وفى ديسمبر ١٠٩٨م ، استولى ريموند على معـــرّة النعمـــان ، وهى قلعة جنوب شرق أنطاكية، ربما على أمل استخدامها كمنقطة نفوذ مقابلة للنورمـــان فى أنطاكية . وبدأ بوهيموند من ناحيته بحملة نظامية لإضعاف الثقة بأهالى بروفنســال ، وبصفة خاصة باستغلال الشكوك حول أصالة الحربة المقدسة .

وعرض قسم كبير من الجيش على ريموند الاعتراف به كقائد عام إذا ما قادهم فى المسير إلى بيت المقدس ، وذلك فترة عيد الميلاد. وقبل ريموند العرض وبدأ المسير فـــى الثالث عشر من يناير ١٠٩٩م . وغادر ريموند معرة النعمان عـــلى رأس قواته ، وكان فى الستين من عمره ، وسار حافي القدمين ومرتدياً ملابس الحــــاج . وبهـــذه الإشـــارة المدروسة ببراعة شديدة ، ذكر ريموند زملاءه الفرسان بالقسم الصليبى، الذى أقســموه ، لأنه كان من الواضح له أن فرقته يمكن أن تنجز القليل بمفردها. وعرض ريموند مبـــالغ من المال على الآخرين محـــاولاً إقناعهم بقبوله كقائد لهم، وبهذه الطريقة ، وكان يســأمل فى تقويه مركزه فى مواجهة بوهيموند . وإقتنع كل من تنكرد وروبرت النورماندى ، لكن جودفرى وروبرت من فلاندرز لم يوافقا على العمل تحت رياسته . وفى أوائـــل ينـــاير ١٠٩٩م ، عمل بوهيموند على إخراج آخر قوات بروفنسال من أنطاكية ، وبرغم وعـــده

* كانت هذه هى الخطوة الأولى لإقامة كنيسة لاتينية ، وهى التى هددت حقوق الكنيسة اليونانية القائمة .

للانضمام للمسيرة إلى بيت المقدس ، فقد رفض مغادرة المدينة . وتحرك جيش ريمونـــد جنوباً على امتداد المنحدرات الشرقية للجبال . وخلا تقدم القوات الصليبية من أى حادثة ، لأن الأمراء المحليين كانوا على درجة كبيرة من الضعف إلى حـــد عدم مقدرتهم القيـــام بأى مقاومة جدية ، وكان معظمهم على استعداد لتقديم ما يطلب منهم لتجـــنب التعـــرض للهجوم . أما عن حكام دمشق ، وحلب، والموصل ، فقد فضلوا أن يظلوا مراقبين سلبيين، بعد الكارثة فى أنطاكية. وبالتأكيد أنهم لم يجدوا مايبرر مساعدة الفاطميين الذين كانوا قـــد تقدموا مرّة ثانية فى فلسطين فى ١٠٩٨ م ، والواقع أن الحكام السوريين الذيـــــن كـــانوا سنيين ، ربما سرهم تقدم النصارى صوب الفاطميين الشيعة. وعاد الصليبيون إلى الساحل شمال طرابلس ، وتحركت بعض الفصـــائل القليلة العدد تجاه الشمال ، وإســـتولت علـــى بعض الموانى ، ومن بينـــها مرقية Maraclea وطرطوس Tortosa . (إن كاتدرائيـــة طرطوس أحد المبانى الرائعة لعصر الحملات الصليبية ومازالت موجودة حتى اليـــوم.) وأغرت تلك الإنجازات كلاً من جودفرى ، وروبرت من فلاندرز فى تغيير رأييهما . وإذا كان بوهيموند انضم إليهما فى تقدمهما جنوباً ، فإن ذلك كان إكراماً للعـــرف والتقـــاليد ، وبعد فترة قصيرة من الوقت رجع إلى أنطاكية ، حيث حكمها فى ذلـــك الحيـــن دون أن يعارضه أحد . وفى السنوات القليلة التالية كان بوهيموند قادراً على إقامة إمارة واســـعة المساحة .

وفى غضون ذلك ، كان ريموند قد قرر محاصرة الرقة Arqa ، وهى بلـــدة تقـــع شمال غرب طرابلس ، والتى كان قد عين حدودها ، كمركز لإمارة لبنانية لنفسه. ولكـــن على الرغم من وصول جودفرى وربرت من فلاندرز ، فقد ثبت فشل الحصـــار ولذلـــك استمر الجيش فى مسيره جنوباً على امتداد الطريق الساحلى . واشترى أمـــير طرابلـــس السلامة لنفسه ولمدينته . وفى ١٩ مايو ١٠٩٩م ، عبر الصليبيون نهر الكلـــب ، وبذلـــك كانوا فى الأراضى الفاطمية منذ تلك اللحظة. وباءت بالفشل كل محاولات الفاطميين فـــى الوصول إلى تسوية . وكان عرض الفاطميين الأخير مشروطاً بعدم دخـــول الصليبيـــن

فلسطين – وهذا يوضح إلى أى مدى لم يكن المسلمون قد توصلوا إلـــى إدراك الســبب الحقيقى للحملة الصليبية ، واستمر التقدم ، فوصلوا بيروت، وصيدا ، وصور ، وعكـا ، وحيفا ثم وصلوا يافا حيث اتجهوا إلى الجزء الداخلى من البلاد . ووجد الصليبيون بلـدة الرملة مهجورة بعد أن تركها أهلها ، لذلك تم تعيين أسقف لاتينى بها لعدم وجـود بديـل يونانى ، وتم رسم الأسقف بمعرفة شخص لاتينى. وقدر للأسقف الجديد أن يكون حاكمـا مدنياً لمدينة الرملة وقرية اللد Lydda المجاورة حيث تقع كاتدرائية القديـس جرجـس . وفى ٦ يونيه إحتل تنكرد بيت لحم Bethlehem ، ورفع رايته فوق كنيسة المسيح. وفـى اليوم التالى ، ٧ يونيه ، وصل الصليبيون إلى قمة تل استطاعوا من عنده مشـاهدة بيـت المقدس . واغرورقت عيون الكثيرين منهم بالدموع لأنهم انتظروا كثيراً هـذه اللحظـة . وأطلقوا على التل " تل البهجة Mont joie " . ومرت ثلاث سنوات منذ رحيل جودفرى دى بوايون من اللورين Lorraine .

وكانت مدينة القدس محصنة جيداً ، وكان موقع الأرض يعنى إمكانية سقوطها فـى يد الأعداء من الشمال والجنوب الغربى فقط . وكان حاكمها الفاطمى قد اتخذ احتياطـات ملائمة . إذ طرد سكانها النصارى باعتبارهم عناصر غير موثوق بها . وفى الثالث مـن يونيه ١٠٩٩ م ، حاول الصليبيون . اقتحام المدينة ، غير أن الفاطميين أجـبروهم علـى الارتداد لعدم توفر ما لدى الصليبيين من سلالم لتسلق أسوار المدن المحصنة. وبمحـض الصدفة تماما ، هاجمت ست سفن حـربية صليبية مينـاء يافـا الـذى هجـره سـكانه المسلمون، وكان بتلك السفن معدات لازمة لإقامة المنشآت العسكرية التى كـانت هنـاك حاجة ماسة إليها . وتم إحضار الأخشاب من السامرة Samaria . غير أن تشـييد قـلاع خشبية مثبتة على عجلات ومزودة بالمنجنيقات كان عملاً بطيئاً . وكان لحـرارة الجـو ونقص المياه أثراً سـيئا على الروح المعنوية ، التى انخفضت إلى مستوى خطير مـرة ثانية . ثم انتشر خبر قدوم الجيش المصرى . وحدثت رؤية للمرة الثانية ، فـى اللحظـة الحاسمة ، وهذه المرّة جاءت إلى قس يدعى بطرس ديزيدريـوس Peter Desiderius. وأبلغتة الرؤيا بأنهم إذا ما واصلوا الصوم ثم المسيرة فى موكـب دينـى حـول أسـوار

المدينة، فإنها سوف تسقط فى أيديهم فى غضون ثلاثة أيام – طالما أنجزوا تلك الأعمـال الشاقة بتقوى كافية . وتم الاحتفال بالصوم وفقاً للمراسيم المألوفـة ، وتحولـت الحملـة الصليبية إلى موكب لحفاة الأقدام من الحجاج الذين شقوا طريقهم بمهابة حول المدينـة ، مما أصاب المسلمين المحاصرين داخل المدينة بدهشة شديدة، وذلك فى الثامن من يوليـو ١٠٩٩ م . وانتهى الموكب عند جبل الزيتون Mount of Olives ، حيث استمعوا جميعاً إلى الكلمات البليغة التى ألقاها بطرس الناسك والمبشرون الآخرون . وبذلك استرد الجيش روحه القتالية . وعندما تم بناء ثلاث " قلاع " بدأوا الهجوم أثناء ليلـة ١٣-١٤ يوليـو ١٠٩٩ م. ونجح ريموند فى تحريك قلعته تجاه سور المدينة فى القطاع الجنوبى الشرقى ، بيد أنه لم يستطع السيطرة على السور ذاته ، وذلك فـى ١٤ يوليـو ١٠٩٩ م . وكـان جودفرى أكثر نجاحا عندما حرّك قلعته على مقربة من السور بالقرب من بوابة الأزهـار Gate of Flowers ، ثم أقام جسراً من القلعة إلى أعلى السور ، وذلك فـى ١٥ يوليـو ١٠٩٩ م . وكان ليتولد Litold الفارس الفلاندرى من تورناى Tournai ، أول صليبـى وضع قدمه على السور. ثم تبعه جودفرى وأهالى اللورين ومن بعدهم تنكرد ورجالـه . وفى ذلك المكان ، تم وضع صليب ضخم من الحجر ، وقدر له البقاء فى موضعه ، طالما ظلت بيت المقدس فى أيدى النصارى إحياءً لذكرى استيلاء الصليبيين على المدينة. وفى الوقت الذى فتح فيه أهـالى اللورين البوابات لرفاقهم ، اندفع تنكرد قدمـا إلـى منطقـة الكنيسة ، قلب المدينة ، واستولى على المسجد الأقصى . وفى ذلك الحين أدرك الحـاكم الفاطمى لبيت المقدس أنه لم يعد هناك أمل فى النصر وانسحب إلى برج داود ، وهو قلعة ضخمة بالقرب من بوابة يافا. وفى مقابل السماح للحاكم الفاطمى بالانسحاب آمنـا إلـى عسقلان ، قام بتسليم هذا البرج إلى ريموند الذى حصل على موقع مهـم مـن الناحيـة الإستراتيجية. وقدر لحاكم بيت المقدس وحاشيته المسلمين النجاة بأرواحهم دون من كـان بالقدس . إن نشوة النصر ، والتعصب الدينى ، وذكرى الصعاب التى كانت مكبوتة لمـدة ثلاث سنوات ، تفجرت فى حمام الدم المروع ، حيث قطع الصليبيون كل من قابلوه إربـا إربا ، بصرف النظر عن الجنس أو الدين. وخاضوا فى دماء إلى الكعبين ، عبر الشوارع المغطاة بالجثث . وكان أهـالى اللورين متحفظين نسـبياً ، إذ قد أحجموا عن اغتصـاب

النســاء اليهوديات على الأقل. وعندما انتهت نوبة القتل كان التخلص من الجثث العمــل الأول . ونجت المكتبة اليهودية النفيسة (لفائف التوراة الثمانيــة ، وثلاثمائــة وثلاثــون مخطوطاً) من الدمار، وتم بيعهما إلى الجالية اليهودية فى عسقلان بثمن باهظ. وصدمــت هذه الوحشية النصرانية العالم الإسلامى بعمقٍ شديد، واستغرقت ذكرى هذه المذبحة وقتــا طويلاً إلى أن بدأت تتضاءل تدريجــياً . وعلى أية حال ، فقد حققت الحملــة الصليبيــة هدفها . وصار قبر المسيح فى أيدى المسيحيين ثانية . ولكن إلــى متــى ؟ إن الجيــش المصرى كان فى طريقه إلى الاقتراب .

وبعد أن تمت معالجة المشكلة الصحية الخاصة بالجثث، اجتمع قادة الحملة الصليبية من رجال الدين والعلمانيين ، لتقرير ما يجب عمله بعد ذلك . والحــقيقة المدهشة ، فــى ذلك الحين ، أصبحت واضحة ، أنهم كانوا قد غادروا أوربا ، بدون أى فكرة عمــا يتــم عمله فى بيت المقدس ، إذا ما قدّر لهم السيطرة عليها . ومن الواضح أنهم لم يعرضــوا أى شيء على بساط البحث أثناء المسيرة الطويلة. وعلى أية حال ، فقد تم الاتفاق بصفــة عامة ، على إقامه نظام حكم دنيوى ودينى ، إذا ما أرادوا المحافظة على ما حققوه مــن مكاسب . وطلب رجال الكنيسة ، تحت رياسة الأسقف أرنولف من مــارتورانو Arnulf of Marturano ، بأن الخطوة الأولى يجب أن تكون ، اختيار بطريرك قبل الانتقال إلــى موضوع الشئون الدينوية . (٢٣) غير هذا الأمر قد تأجل لعدم موافقة رجال الديــن مــن إقليمى اللورين وبروفنس على المرشح الوحيد أرنولف من روهيز Arnulf of Rohes ، وهو القس المصاحب لروبرت النورماندى .(وقد تم تجاهل حقوق البطريرك اليونــانى . إذا إعتقد الصليبيون أنه فى قبرص برغــم حقيقة وفاته ، قبل دخولهم بيت المقدس بعــدة أيام). وأما العرش فقــد تقدم له إثنان فقط وهما : ريموند من تولــوز وجودفــرى مــن بوايون Raymond of Toulouse and God Frey de Bouillon . أمــا عــن القــادة الآخرين ، فإما أنهم كانت لديهم نية العودة لأوطانهم أو افتقروا للخبرة الضرورية . وتــم عرض تاج الملك على ريمــوند أولاً بيد أنه رفض قائلاً أنه يرغب أن يكون ملكــاً فــى مدينة المسيح المقدسة . وفهم ريموند بوضوح أن العرض قد عرض عليه بفتور ، وكــان يأمل منع جودفرى ، من قبول ذلك العرض عن طريق إجابته البارعة . وكان جودفــرى محبوباً من الجيش كلــه، وعمل على تجنب خلافــات الأمراء التى تفتقر للكياسة بصفــة

عامة . ومن ناحية أخرى كان واضحاً أنه كان يفتقر إلى شخصية بوهيموند أو ريموند. غير أن جودفرى كان ماهراً إلى حد أن - أو ربما مستشاريه - وجد حلاً للمشكلة العاجلة . فقد أحبط جودفرى مناورات ريموند برفضه أن يكون ملكاً ، ووافق أن يكون حاكما ، متخذاً لقب حامى القبر المقدس Advocatu sancti Sepulchri . وكان لذلك ميزة ترك الباب مفتوحاً للمسألة الحرجة الخاصة بالعلاقة بين الحاكم المدنى والكنيسة متفادياً الصراع مع رجال الدين .(٢٤) ثم احتال جودفرى على ريموند بجعله يتخلى عن برج داود Tower of David ، المفتاح العسكرى لبيت المقدس . وغادر ريموند بيت المقدس لزيارة الأماكن المقدسة فى أريحا Jericho ، والأردن ، وهو فى حالة من الغضب الشديد . وعمل على تيسير مسألة اختيار بطريرك . وتم اختيار أرنولف Arnulf النورماندى ، بطريركاً على الرغم من حقيقة أنه كان إبنا غير شرعى، وأنه لم يكن حتى شماساً ، ولذلك كان غير جدير بالاختيار وفقاً للقانون الكنسى . ولهذا السبب تم تتويجه ، ولكن لم يحط بهالة من القداسة . ودحض أرنولف ، على نحو حاسم ، كل اعتقاد فى الحرب المقدسة ، أثناء حصار عرقة Arqa ، وعندما صار بطريركاً عمل على تقوية مركزه بالبحث عن الصليب الحقيقى * ، وإيجاده ــ وهو أثر مقدس له تأثير عظيم كان ليحل محل الحرب "البروفنسالية " .

وبرغم كل هذا التوتر ، فقد إستجاب كل من ريموند وروبرت النورماندى ، بإخلاص إلى طلب الحاكم الجديد للمساعدة ضد الجيش المصرى ، وإن كان جودفرى قد عمل على مضايقتها بطريقة أو بأخرى . وفى ١٢ أغسطس ١٠٩٩ م ، دارت معركة على أرض منبسطة بالقرب من قلعة ميناء عسقلان المصرية . وهاجم الصليبيون المصريين فجأة ، فى الوقت الذى كانوا فيه داخل معسكرهم ، وبذلك تعرض المصريين لهزيمة نكراء. وهرب قائدهم الوزير الأفضل (١٠٩٤ - ١١٢١ م) إلى مصر . وفى ١٣ أغسطس ١٠٩٩ م ، عاد الجيش المنتصر إلى بيت المقدس مبتهجاً بالنصر . ولقد تأكد نجاح الحملة الصليبية فى ذلك الحين. وكان استرداد الأرض المقدسة إنجازاً مدهشاً . وكان ابتهاج العالم النصرانى له ما يبرره تماما .

* وفقا لعقيدة النصارى .

٤- الإمارات الصليبية ١٠٩٩ - ١١٤٦ م

وعد الكتاب المقدس بأرض تفيض باللبن والعسل ، غير أن الصليبيين وجدوا أنهم في منطقة متأثرة بالكساد من الناحية الاقتصادية وبيئة جغرافية أدت إلى إجبار الناس على الاستقرار في جماعات منعزلة ، وأن يفضلوا إقامة إمارات صغيرة أو صغيرة جداً . (٢٥) وفي فترة اتساع ممتلكات الصليبيين امتدت إماراتهم من خليج إسكندرونة إلى خليج العقبة على البحر الأحمر . وباستثناء القاعدة الأمامية الشرقية في الرها والتي كانت قد ضاعت ثانية في ذلك الحين ، فقد هيمن الصليبيون على منطقة طولها خمسمائة ميل وعرضها حوالي مائة ميل . كما أن المعالم الجغرافية الرئيسية لهذا الإقليم متشابهه جدا في كل أنحائه . وامتداداً من الغرب إلى الشرق يوجد سهل ساحلي يرتفع تدريجيا الى سلسلة عالية من جبال حجر الجير ، ثم منحدر شديد الإنحدار إلى منخفض يصبح بدوره يتدرج في الإتساع إلى نجد (= سهل واسع مرتفع) زراعي خصب ، برغم في أماكن سلسلة جبلية ثانية ، ترتفع وهي المواجهة للبنان. وهكذا اندمج هذا النجد في أرض سهلة واسعة خالية من الأشجار. وفي الجنوب يتسع السهل الساحلي وينفصل عن البحر بحزام من التلال الرملية التي شكلتها الرياح. أما السلاسل الجبلية فهي النصارى(؟) the nosairi والجبال اللبنانية (ارتفاعها حوالي ٩,٨٠٠ قدم) في الشمال ، والجبال المواجهة للبنان ، وجبل هرمون ؟ Mount Hermon (ارتفاعه حوالي ٨,٨٠٠ قدم) في الوسط ، والأراضي الجبلية الفلسطينية (الخليل Hebron أكثر من ٣,٣٠٠ قدم فوق سطح البحر) في الجنوب . وتكون المنخفض بفعل الوادي الصخري السوري مع نهر العاصي في الشمال ، ثم يستمر هذا المنخفض ويحمل اسم وادي الأسود the Leontes valley مخترقا جبال لبنان إلى ما بعدها ثم يحمل اسم وادي الأردن والبحر الميت (٣٥,٥ ميل مربع في المنطقة وفي أماكن أخرى أكثر من ١,٣٠٠ قدم تحت سطح البحر وبها حوالي ٢٣٪ من الأملاح) . ومناطق العبور الرئيسية على نهر الأردن هي مخاضة يعقوب Jacob's ford شمال بحر الجليل ، وإلى الجنوب جسر وادي

سينابر ؟ Pont de Senabra وجسر اليهـود Pont de Judaire. وفى الجنوب من البحر الميت تتصل التلال تدريجيا بالهضبة المتموجة لصحراء النجـف ؟ Negev Desert الجرداء. وباستثناء السهل الساحلى ، فالإقليم كله غير خصب إلى حد ما ، وتزداد الحالة هكذا ، كلما تحرك المرء من الجليل جنوبا . والأراضى الجبلية الفلسطينية صخرية بوضوح ، وتفتقر إلى الماء. وتوجد بعض المسالك الجيدة من الشرق إلى الغرب. ويمتد الطريق الجيد الوحيد إلى الأردن من سهل عكا الذى جرى صراع طويل عليه . ثم توغل الصليبيون من شرق الأردن مؤقتا فى أرض ؟ the Terre de Suete ، وهـى عبارة عن سهل خصب شرق بحر الجليل ثم إلى التل البركانى لإقليم مؤاب Moab والذى من خلاله امتدت طرق المواصلات المهمة إقتصاديا واستراتيجيا بين سوريا ومصر. ويتميز بأنه حار جدا بالصيف جاف ، وبالأمطار الشتوية الغزيرة ، وبالثلج الذي يتساقط من حين لآخر حتى خارج المناطق الجبلية . ودرجة الحرارة ٢٥ درجة مئوية وأعلى معدل لها بالنهار ٣٥ درجة مئوية ، وأحيانا تصل إلى ٤٠ درجة مئوية فـى منتصف النهـار ، ومتوسط درجة الحرارة فى شهرى يناير وفبراير ثمان درجات مئوية ، وتنخفض إلـى خمس درجات تحت الصفر فى الساعات الأولى من الصباح . وفى مدينة أريحا يمكن أن ترتفع درجات الحرارة فى الصيف إلى حوالى خمسين درجـة مئوية . ونظـرا للطقس والاقتصاد الريفى ، وجد أهالى إقليم بروفنسال والإيطاليون أن من الأفضل العودة إلـى أوطانهم. وغادر معظم الصليبيون بيت المقدس فى أوائل سبتمبر ١٠٩٩م – وتحرك كـل من روبرت من فلاندر ، وروبرت من نورماندى ، وبلدوين من لودج ، وريموند من تولوز شمالا ، ومعهم قواتهم ، وشق الإثنان الأولان طريقهما للعودة لوطنيهما . وبقـى كل من جودفرى دى بوايون وتنكرد فى بيت المقدس ، ومعهما حوالـى ثلاثمائـة من الفرسان وألفين من المشاه . (٢٦) ومنذ البداية تكونت إقطاعية جودفرى من مدينة بيت المقدس ، وميناء يافا وبعض المدن مثل اللد ، والرملة ، وبيت لحم ، والخليل وهى التـى حصنها تحصينا قويا. وعبّر المسلمون القاطنون فى المناطق الريفيةعن عدائهم فى بداية الأمر – فى الوقت الذى كان فيه النفوذ الفرنجى لا يزال محفوفاً بالمخاطر – ورفضوا التعاون مع حكامهم الجدد . بل إن سكان بيت المقدس شعروا بعدم الأمـان لأن أسوار

المدينة كانت لا تزال قد أصابها الدمار إلى أبعد حد ، ولولا عرض الامتيازات المادية الضخمة التى أقنعتهم بالبقاء . ووفقا لقاعدة السنة واليوم the Assise de l'an et jour فإن أى شخص غادر بيت المقدس بقصد النية للعودة ثانية عندما إذا استقرت الأمور ، فسوف تؤول ممتلكاته للشخص الذى احتفظ بها فى غضون ذلك الوقت . واستطاع جودفرى بسط نفوذه على سهول يهوذا والسامرة Judaea and Samaria (أى الضفة الغربية حالياً وكل جنوب فلسطين) . وتحرك تنكرد شمالاً تجاه الجليل واستطاع إقامة مقاطعة لنفسه . وفى بداية الأمر تكونت تلك المقاطعة من طبرية ، والناصرة ، وبيسان ، وفيما بعد حيفا و ؟ Terre de Suete ، بالإضافة إلى المنطقة التى تقع بينهما . وبسط تنكرد نفوذه على هذا الإقليم ، ومقاطعة طبرية ، كإقطاعة تابعة لجودفرى ، التى تطورت إلى إمارة الجليل رويدا رويدا . أما عن الأراضى التابعة لجودفرى فقد زادت حتى صارت إمارات مندمجة تفصل الإقليم الساحلى الذى ظل تحت الحكم الفاطمى عن الجزء الداخلى المسلم لمدينة حوران وإقليم شرق الأردن . وفرضت السمات الجغرافية للإقليم على الصليبيين محاولة التصدى للمسلمين فى الجنوب والشرق إلى أن يتم الوصول إلى الصحراء . ومن الممكن أن تقوم الصحراء بدور نطاق أمن a Cordon Sanitaire بين النصارى والمسلمين، وبذلك يتم عزل المسلمين عن مصر وعن بلاد ما بين النهرين Mesopotamia ولكى يتم تحقيق ذلك كان على الصليبيين احتلال حلب ودمشق أولا وقبل كل شئ. غير أنهم فى الحقيقة فشلوا فى تحقيق ذلك ، وكان عليهم القناعة بإيجاد أرض محايدة فى حوران وتم اقتسام دخلها بينهم وبين دمشق .

وفى غضون ذلك ذهب ريموند من تولوز شمالا ، ما أن منعه جودفرى من إقامة إمارة فى شمال غرب فلسطين. ووجد ريموند منافسه القديم هناك مشغولاً بمحاصرة اللاذقية ، وهى ميناء بيزنطى جنوب أنطاكية ، وكان بوهيموند قد خشى أن يستخدمها الإمبراطور ألكسيوس رأس جسر إذا ما قرر غزو أنطاكية . وأجبر ريموند بوهيموند على رفع الحصار عن اللاذقية. وكان بوهيموند يتلقى مساعدة بحرية من أسطول بيزى تحت قيادة دامبرت Daimbert رئيس أساقفة بيزا Pisa . وكانت هذه إشارة لوجود قوة جديدة تدخل الشئون السياسية لسوريا وفلسطين . إن القوتين البحريتين العظميين فى شرق

البحر المتوسط هما مصر والدولة البيزنطية . كما لم تحدث على الإطـــلاق أن امتلكــت الإمارات الصليبية أسطولا بحرياً له قيمة تذكر . غير أنه بدون أسطول بحرى لا يمكـــن طرد المصريين من المدن الساحلية ، وبدون امتلاك السهول الساحلية الخصبة والموانـــي القيمة اقتصادياً ، فلن يقدر للإمارات الفرنجية البقاء والازدهار. وقامت المدن الملاحيـــة الإيطالية بالعمل بهذا الدور لاحتياج البيزنطيين إلى أسطولهم من أجل مصالحهم الذاتيـــة بصفة عامة . ونظرا لإيمان أهالى تلك المدن الملاحية الإيطالية بالواقع ، فإنهم نظروا إلى الحملة الصليبية بشك شديد منذ البداية . وعندما نجحت الحملة الصليبية ، علـــى عكـس حساباتهم ، وافقوا على تقديم التأييد الرسمى لقضية الصليبيين بيد أنهم طلبوا دائمـــا ثمنـــا باهظا وحصلوا عليه مقابل مساعدتهم . إن الامتيازات التى تحصلوا عليها غالبا ما كانت ابتزازا تهديديا ، عمل على إضعاف وحدة أراضى الإمارة على نحو خطير ، وأصبحـــت تلك الامتيازات عبئا دائما على الموارد المالية .

وكان أهالى بيزا أول من أدرك أن فرصة عظيمة قد حلـــت . إذ قـــاموا بتجهـــيز أسطول بحرى حيث تمكن رئيس الأساقفة دا يمبرت مــــن اســـتخدامه لتعزيـــز أهدافـــه الشخصية فى بلاد المشرق الإسلامى Outremer . على مثال بوهيموند كـــان دايمـــبرت يشك فى اليونانيين ونتيجة لذلك كان وأمير أنطاكية حليفين طبيعيين. وبعد تأجيل حصـــار اللاذقية ذهبا معا إلى بيت المقدس لقضاء فترة عيد الميـــلاد لعـــام ١٠٩٩م . ومعهمـــا بلدوين أمير الرها الذى انضم إليهما في الطريق . وأخيراً أوفـــى كـــل مـــن بوهيمونـــد وبلدوين بنذريهما وقاما بزيارة بيت المقدس. بيد أنهما كانت لديهما اعتبارات سياسية فـــى ذاكرتيهما أيضا. فقد كان جودفرى فى أمس الحاجة إلى فرسانهما مثلما كان فـــى حاجـــة إلى أسطول دايمبرت، ولم يكن فى وضع يسمح له بمقاومة مطالبهمـــا . فقـــد تـــم خلـــع البطريرك أرنولف Arnulf ، وتعيين دايمبرت (١٠٩٩ - ١١٠٣م) مكانه. ثم كان على جودفرى أن يتقلد منصبه فى إمارته بمعرفة دايمبرت . وكان بوهيموند بـــدوره مســـتعداً لتسلم أنطاكية كإقطاعة مملوكة للبطريرك . غير أن بلدوين أمير الرها لم يسر وفق هـــذا المنهج . وبالنســـبة إلى بوهيموند قدم مثل هذا التقليد مزايا فقط . وأثناء وجود دايمـــبرت

فى بيت المقدس كان نفوذه الواقعى فى أنطاكية ضعيفا ، فى حين أن بوهيموند ، كتابع للبطريرك اللاتينى ، استطاع أخيرا الادعاء بأن له بعض الحق فى أنطاكية التى كانت تحت قبضته من قبل بطريقة غير قانونية، وضد نصوص القسم الذى أداه أمام الإمبراطور ألكسيوس .

وعلى وجه التعميم وافق المؤرخون فيما مضى على أن تصرفات دايمبرت كانت تعبيرا عن الطبيعة الدينية لحقوق الكنيسة فى الشرق . وفى الحقيقة لا يوجد سوى القليل لتأييد هذا الرأى . ومن المؤكد تقريباً أن دايمبرت كان مزودا بصلاحيات مندوب بابوى a Papal Legate – على الرغم من أن حملته حصلت على موافقة البابا ومباركته لها . ومن غير المحتمل أن تصرفاته كانت وفقاً لمفاهيم البابا أوربان الثانى. فنادرا ما كان أى بابا يخطط لمعالجة مسألة العلاقة بين الكنائس اليونانية واللاتينية بطريقة دايمبرت التى افتقرت للكياسة . إذ كان تعيين بوهيموند وكذلك رسامة دايمبرت لأربعة أساقفة ورؤساء أساقفة فى إمارة بوهيموند فى كل من طرسوس ، وأرتاح ، والمصيصة ، والرها ، كل ذلك فيه إنتهاك لحقوق بطريرك أنطاكية . ولذلك إضطر حنا بطريرك أنطاكية إلى اللجوء إلى القسطنطينية أمام تلك الإتهامات وكذلك موقف بوهيموند العدائى . وكانت النتيجة وجود انشقاق كنسى لأن بوهيموند عين على الفور بطريركاً لاتينياً ، هو برنرد من فلانس Bernard of Valence (١١٠٠ – ١١٣٥م). بل إن دايمبرت رفض السماح لليونانيين بممارسة الطقوس الدينية فى كنيسة القبر المقدس فى بيت المقدس لفترة من الوقت. ونظراً لأن هذا البطريرك كان قد قلد جودفرى منصبه، فإنه تصرف كبابا ، مثل جريجورى السابع ، على سبيل المثال الذى أصبح سيداً إقطاعياً أرجان Aragon ، التابعة للنورمان فى جنوب إيطاليا ، وعلى أراضى ماتيلدين Matildine فى توسكانى Tuscany (إقليم فى وسط إيطاليا) . على أن دايمبرت لم يكن يقصد وضع دستور ثيوقراطى ، وإنما كان يسعى لإقامة إمارة لنفسه . إذ أنه لم يكن قانعا بالحى المخصص للبطاركة فى بيت المقدس ، لأسباب أمنية ، مما جعل السكان النصارى بالمدينة يقيمون فى جزء محدد بالمدينة . واستخدم دايمبرت ثروته ونفوذه ، فى حملة ابتزاز بالتهديد ، والتى أجبرت جودفرى على أن يتنازل أولا عن حى فى مدينة يافا ، ثم قلعة بيت المقدس ،

وأخيراً كل ما تبقى من يافا، تاركا لجودفرى ما لا يزيد عن الاستفادة من المنصب مـــدى الحياة . ويرى المؤرخ براور Prawer أن جودفرى نفسه كـــان معترفـــاً بأيـــة حقـــوق ثيوقراطية من قبل الكنيسة ، واعتقد جودفرى بإقامة بارونية بطريركية فى داخل مملكته .

وعلى الأقل كان لهذا الاتفاق ميزة إعطاء جودفرى الوقت لبسط نفوذه على الســـهل الساحلى . والواقع أن بضع أمراء صغار ، بالإضافة إلى بعض مشايخ شـــرق الأردن ، كانوا على استعداد أن يدفعوا لجودفرى إتاوة منتظمة رمزاً للتبعية ومقابل عـــدم إعتـــداء Tribute . واعترى الضعف سيطرة دايمبرت القوية عندما أبحر الأسطول البيزى متوجها إلى بلاده بعد الاحتفال بعيد الفصح Easter لعام ١١٠٠م (أى بعد يوم الأحد الذى يلـــى ٢١ مارس مباشرة) . ثم وصل إلى يافا أسطول من البندقية فى يونية ١١٠٠م. ورحـــب جودفرى بكل سعادة بهذا الأسطول لأنه وجد فيه فرصة فى المزيد من التحرر من قبضة البطريرك . وبينما كان جودفرى يتفاوض مع البنادقة the Venetians ، أصيب بمـــرض خطير ، ومع ذلك تم إعداد ترتيبات إتفاقية . وقد تم السماح للبنادقة بأن يمارسوا التجـــارة بكل حرية فى كل أنحاء المملكة، وأن يكون لهم سوق فى كل مدينة، وأن يتسلموا ثلـــث كل مدينة يشاركوا فى الاستيلاء عليها . وفى مقابل ذلك وعـــدوا بمســـاعدته حتـــى ١٥ أغسطس ١١٠٠ م . إن الثمن الباهظ الذى كان جودفرى على اســـتعداد لدفعـــه مقـــابل مساعدة إلى حد ما يوضح كيف كان تواقـــا إلى إيجاد نفوذ مقابل لنفوذ دايمبرت . غـــير أنه مات قبل أن ينعم بتغير الموقف ، إذ وافته المنية فى ١٨ يوليو ١١٠٠م . وباعتبـــاره أول حاكم نصرانى لبيت المقدس فقد وجد قبرا مهما على تل الجلجثة .

ولقد اقترف دايمبرت غلطة واحدة شنيعة . وهى أنه غادر بيت المقدس قبل مـــوت جودفرى بوقت قصير. فلو أنه كان موجودا فى بيت المقدس ، فالراجح لتمكن من رؤيـــة شروط اتفاقه مع جودفرى ، وقد تم وضعها موضع التنفيذ . ولو أن ذلك حدث فلربما لـــم تقم مملكة بيت المقدس على الإطلاق. وفى أثناء غياب دايمبرت قامت جماعة من أهـــالى اللورين ، وهم من أسرة جودفرى ، بالسيطرة على مدينة بيت المقدس . ونظـــرا لأنهـــم كانوا يتصرفون وفقا لعادات وطنهم ، لذلك استدعوا أقرب قريب لجودفرى ، وهو أخـــاه

بلدوين حاكم الرها ، ليتولى أمر الميراث . وبعبارة أخرى لم يكن هناك مكـــان لمســـألة اختيار حر لحاكم جديد. وفيما تم استخدام " انتخاب " جودفرى كسابقة لتبرر نشأة نظـــام الانتخابات بمعرفة البارونات ، على الرغم من حقيقة أن جودفرى قد تم اختياره بمعرفـــة زملائه ، ورفاقه فى القتال ، وليس بمعرفة بارونات بيت المقـــدس . وبمـــرور الوقـــت أصبح هناك نظامين دستوريين متوازيين ، أحدهما يؤكد على حقوق اختيـــار البارونـــات والتفتوا بأفكارهم إلى جودفرى ، والآخر يؤكد على الحقوق الوراثية والتفتوا بأفكارهم إلى خلافة بلدوين .

وحاول دايمبرت إحباط خلافة بلدوين عن طريق الكتابة إلى بوهيموند طالباً منه منع بلدوين من الوصول إلى بيت المقدس . غير أن هذا الخطاب لم يصل أبـــدا إلـــى أمـــير أنطاكية قط .(٢٧) أما بوهيموند – الذى لم يكن يعلم بما جرى من حوادث تاريخية فـــى بيت المقدس – تحرك شمالاً لتشديد قبضته على أقاليمه الزراعية ، غير أنه وقع فى كمين نصبه الأمير الدمشقى ، وسقط بوهيموند أسيراً فى ذلك الحين ، وذلـــك فـــى أغســـطس ١١٠٠م. وتدخل بلدوين أمير الرها لإنقاذ أنطاكية ، ثم بدأ المسير الشاق فى أكتوبر إلـــى بيت المقدس حيث وصلها فى نوفمبر ١١٠٠م ، بعد أن ترك إدارة شئون الرها إلى ابـــن عمه بلدوين من بورج Baldwin of le Le Bourg (١١٠٠ – ١١١٨م) . وفـــى ذلـــك الحين أدرك دايمبرت أنه لم تعد هناك إمكانية خـــلافته للحكم . لذلك ، أفضل مـــا كـــان يأمله دايمبرت أن يظل بطريركاً ، وهكذا قرب عيد الميلاد Christmas (٢٥ ديســـمبر) ، توصل إلى تفاهم . وفى الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٠٠م قـــام دايمـــبرت بتتويـــج بلدوين ملكا . وجرى الاحتفال بتتويج بلدوين فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، ولم يحدث فى قلب المملكة الدينى فى كنيسة القبر المقدس . وأثناء قسم تتويج بلدوين وعد أن يخـــدم القبر المقدس ويدافع عنه ، وأن يرعى شئون الكنيسة ويحكم شعب بيت المقـــدس بـــالعدل وفى سلام. وأقسم حلفاؤه على حماية البطريرك – بيد أن هذا لم يذكر فى قسم بلدويـــن ، وبدلاً من أن يكون حكام بيت المقـــدس أتباعـــاً إقطـــاعيين للبطريـــرك كـــانوا الحمـــاة والمدافعون عن القبر المقدس، وأكمل إصرار بلدوين على اللقب الملكى عمليـــة تحريـــر

المملكة الناشئة من الهيمنة العليا للبطريرك ، بالإضافة إلى لقب خـــادم القـبر المقـدس Advocatus Sancti Sepulchri ، الذى كان قد اتخذه جودفرى لنفسه .

وكان بلدوين الأول متجها للكنيسة منذ البداية ، وكان متفقاً تماماً على نحو متشـــابه. وبالإضافة إلى ذلك فنظراً لأنه أقام الدليل على مقدرته عند إنشـــاء دوقية الرهـــا ، فإنـــه كان مخلوقاً من جوهر أقوى من جوهر أخيه . وما أن قام دايمبرت بإلباس تـــاج الملـــك لبلدوين حتى لم تعد هناك حاجـــة أخرى لدايمبرت. وقام بلدوين بالتخلص من دايمـــبرت بمساعدة موريس من بورتو Maurice of Porto ، المندوب البابوى (وكان موريس قد أتى إلى الأرض المقدسة مع أسطول من جنوة ؛ آخـــر الجمهوريـــات البحريـــة الثـــلاث الإيطالية ، لمد منطـــقةعملياتها إلى المشرق الإسلامى Outremer) ولفترة قصيرة مـــن الوقت ، فى ١١٠٢م ، كان دايمبرت قادراً على استرداد العرش البطريركـــى ، بفضـــل التأييد الذى تلقاه من تنكرد الذى كان قد استبدل إقطاعة طبرية بمجلس الوصايـــة علـــى أنطاكية ، أثناء غياب بوهيموند المأسور .غير أنه تم عزله فى نهاية الأمر ، وأجبر مـــرة ثانية على الذهاب إلى المنفى فى أنطاكية . ولجأ دايمبرت إلى البابا ، على أساس أنه تـــم طرده بطريقة غير قانونية ، بمعرفة بلدوين، وفى الحقيقة كان دايمبرت قادرا على إقنـــاع البابا بسكال الثانى Paschal II بصدق هذه الرواية ، على الرغم من أن قرار عزله حدث بطريقة قانونية وفقا للقانون الكنسى ، لمخالفات خطيرة ، وتم ذلك فى مجمعيـــن كنســـيين منفصلين two separate synods . وأمر البابا بسكال الثانى بعودة دايمبرت ، وكان من الممكن أن يشب صراع جديد مع الملك، لولا موت دايمبرت قبل أن يتمكن من العـــودة . ويجب أن ننظر إلى قرار البابا على ضوء الطلب الجريجورى المعاصـــر عـــن حركـــة الكنيسة Libertas ecclesiae . إذ أنه سوف لا يسمح للملك بأن يتحكم فى الكنيسة بمثـــل هذه الطريقة المباشرة ، لكن فى الواقع وبحق كان على دايمبرت الطموح أن يلجـــأ إلـــى البابا ، تظهر أن النهاية قد وضعت لكل المحـــاولات الراميـــة لإيجـــاد وضـــع خـــاص للبطريركية . وكانت كنيسة بيت المقدس خاضعة بكل وضوح للسلطة البابويـــة، وكـــانت مندمجة بقوة فى النظام الرومانى . ومنذ ذلك الحين فصاعدا، لم يكن البطريرك أكثر من مطران ، فى مدينة مبجـــلة بشكل بارز ، وله لقب مبجل بكل وضوح . ولم يحدث أبـــداً

أن ادعى بطريرك أنطاكية هذا الوضع الخاص، وأن الخلافات البغيضة بينه وبين بطريرك بيت المقدس بشأن توزيع الأسقفيات المساعدة ، عملت على تأكيد دور البابا فى السيادة والحكم على الأطراف المتنافسة .

واستقبل الجميع نجاح الحملة الصليبية الأولى بالابتهاج العام الشديد والترحيب الحار. ولم يعق اختيار بابا جديد فى ١٠٩٩م ، الدعوة لحملة صليبية . وكانت هذه الدعوة موجهة بصفة خاصة إلى أولئك الذين تركوا الحملة الصليبية قبل استيلائها على بيت المقدس، والذين لم يقدر لهم نتيجة لذلك الوفاء بنذورهم. وتقدم كثيرون آخرون من تلقاء أنفسهم ، للالتحاق بحملة صليبية ، مدفوعين بأنباء النصر، وبطلبات الإمدادات العسكرية التى أتت من المشرق الإسلامى . (٢٨) وحققت الدعوة لحملة صليبية نجاحاً كبيراً فى إقليم لومباردى حيث احتشد جيش كبير تحت قيادة أنسيلم Anselm رئيس أساقفة ميلان . وفى جنوب فرنسا ، التحق وليم التاسع ، ودوق أكويتين صاحب النفوذ العظيم بتلك الحملة الصليبية . وفى الشمال ، كان كل من ستيفن من بلوا ، وهوج من فيرماندوا ، على استعداد للمسيرة للمرة الثانية ، بعد أن استسلم كل منهما للضغط المتزايد العام والخاص بضرورة الوفاء بنذريهما . وتحرك من شرق فرنسا كل من الكونت وليم الثانى من نيفير وأوكسير Nevers and Auxerre ، والدوق أوتو من بروجوندى والكونت ستيفن من بورجوندى . ومن بين رجال الدين الذين التحقوا بالحملة الصليبية أساقفة باريس ، وليون ، وسواسون ، ورئيس أساقفة بزانسون Besancon . وفى ألمانيا أثر التحمس للمشاركة فى حملة صليبية فى بافاريا Bavaria، والنمسا Austria على وجه التخصيص. وانضم كل من ويلف المسن الرابع Old Welf IV دوق بافاريا ، وكثير من أتباعه من اللوردات إلى الحملة الصليبية . واصطحبته إدا Ida أرملة مارجريف ليوتبولد حاكم النمسا Margrave Luitpold II of Austria ، وتيمو من سالزبورج Thiemo of Salzburg ، رئيس الأساقفة ، وأسقف يولريخ من باسو Ulrich of Passau ، وأدمونت Admpnt رئيس دير الرهبان . وكاتب الحوليات إكهارد من أورا Ekkehard of Aura .

وكان اللومبارديون أول من ذهبوا . وبدأوا المسير فى خريف ١١٠٠م ، ووصلــوا القسطنطينية فى وقت مبكر من العام التالى . ثم وصلت الفرق العسكرية الأخرى خـــلال فصل الصيف. غير أن اللومبارديين واصلوا المسير دون انتظار رفاقهم من الصليبيين . وعبروا البوسفور the Bosporus ، ثم تقدموا صوب نيقوميديا Nicomedia ، حيث لحق بهم ستيفين من بلوا Stephen of Blois ، والبورجنديون the Burgundians. وهنا انضم إليهم ريموند من تولوز Remond of Toulouse . الذى وصل مؤخراً مـــن اللاذقيـــة . وحاول الصليبيون المتمرسون أتباع اللومبارديين بالعدول عن خطتهم فى غزو شمـــــال الأناضول ، لكى ينقذوا بوهيمـــوند من سجنه فى نكســـار Niksar ، فى أقليـــم بونطـــس Pontus ، غير أن محاولتهم ذهبت أدراج الرياح . وعانى الجيش الأمّرين مـــن نقــص المؤن أثناء السير عبر شمال الأناضول . وكان طريقهم صعب الاجتياز ولكن انتهى فـــى منتصف يوليو ١١٠٠م ، بالقرب من مرسيفان Mersivan ، شرق نهـــر الهـــاليز the River Halys ، حيث تقابل الصليبيون مع جيش تركى يتكون من فرق أرسلها الســلطان ألب أرسلان ، وبنى دانشمند ، ورضوان ملك حلب. واستمرت المعركـــة عـــدة أيـــام ، وانتهت بالقضاء التـــام على الجيش اللومباردى . ومن قدر لهم البقاء كانوا قلـــة ، وهـــم الذين شقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، ومن بينهم كونت تولوز، وبلوا ، وبورجونــــدى ، ورئيس أساقفة ميلان . أما الجيش الذى كان تحت قيادة كونت وليم مـــن نيفـــير Count William of Nevers ، فلم يكن أسعد حظاً . وتحرك الجيش أيضاً إلى شمال الأناضول ، ثم اتجه جنوبا عند أنقرة ، ثم عند هرقلة تم القضاء عليه فى نهاية الأمر. وحـــاول وليـــم نفسه الاتجاه صوب أنطاكية . وفى الوقت نفســـه شـــق أهـــالى أكويتيـــن والبافـــاريون Aqyitanians and the bavarians طريقهم عبر البلقان إلى القسطنطينية. وكان عليهـــم أن يؤدوا القسم ذاته الذى كان قد أداه الصليبيون الأول ، ومن هناك ساروا فى الطريـــق عينه ، الذى سلكه الصليبيون الأول . وفى هرقلة تعرضوا لكارثة كذلك . وفى ســـبتمبر ١١٠١م وقعوا فى كمين أعده الأتراك ، وتعرضوا لهزيمة نكراء . وكـــان مصـــير إدا (الأرملة) من النمسا وتيمو من سالزبورج Ida of Austria and thiemo of Salzburg الأسر أو القتل . وإن الأساطير التى برزت للوجود حولهما، تضمنت أفكاراً قدر لهـــا أن

تصبح شيئاً مألوفاً فى الأدب الرومانسى للحملات الصليبية ، ووفقا للأسطورة تزوجت إدا من أمير مسلم، وأنجبت زنكى العدو الأكبر للنصارى . ووصل دوقى أوكويتين وبافاريا ومعهم بعض الأتباع إلى أنطاكية ، وانضم إليهم من كانوا قد هربوا من قبل إلى القسطنطينية . ومن أنطاكية اتجهت هذه الجماعة القليلة ، التى كانت فى حالة يرثى لها إلىالقسطنطينية . وبذلك تكون هذه الحملة الصليبية قد فشلت . وحتى ذلك الحين لم يكن الغرب مستعداً لإرسال جيش كبير آخر.

وفى الوقت نفسه ، كان تنكرد المولع بالحرب، يحاول توسيع حدود إمارته فى كل الاتجاهات . ففى ١١٠١م تمكن من استرداد قيليقية من البيزنطيين ، ثم تحرك جنوبا صوب اللاذقية ، وأخيراً استولى عليها فى ١١٠٣م ، بعد حصار طويل . بيد أنه على الرغم من كل جهوده ، فإنه لم يتمكن من منع ريموند من تولوز وأتباعه من بروفنسال Provencal ، من احتلال ميناء طرسوس، جنوب اللاذقية، ثم قرروا محاصرة طرابلس. ومنذ الحملة الصليبية الأولى كان ريموند مهتماً جداً ، بمدينة طرابلس ، ويريد الحصول عليها ، والآن عنده العزم على ألاّ يهدأ له بال ، حتى يستولى عليها ، ويجعلها مركزاً لإمارة خاصة به . وسوف يشكل هذه الإمارة ، أداة ربط بين النورمان بأنطاكية بالشمال ، واللورين فى بيت المقدس بالجنوب ، وكان يقصد منها التأكيد على أن ريموند كان لديه القوة ليكون على قدم المساواة مع منافسيه النورمان . وكان ريموند قادرا على السيطرة على المنطقة الغربية من طرابلس عندما بنى قلعة ضخمة على جبل الحاج Mount Pilgrim . ولم يقدر له أن يعيش ليرى استسلام المدينة ، غير أن وثيقة يرجع تاريخها إلى ١١٠٣م ، توضح أنه حصل على لقب كونت طرابلس ، لا تدع مجالا للشك عن خططه .

وفى ١١٠٣م ، تم إطلاق سراح بوهيموند أمير أنطاكية ، بعد أن دفع فدية كبيرة . وبفضل جهود بلدوين من لوبورج Baldwin of le Bourg ، تم جمع الأموال ، وهو الذى أدرك رويداً رويداً أن تنكرد جار قوى إلى تقديم العون . ولكن حتى بعد أن تولى بوهيموند زمام الحكم مرة ثانية ، بقى تنكرد فى أنطاكية. وكان فى استطاعة تنكرد العودة إلى طبرية ، إمارته القديمة، غير أنه رفض أن يفعل ذلك ، ربما متذكرا منافسته

القديمة مع الملك بلدوين الأول . ثم شن بوهيموند هجوما على رضـوان ملـك حلـب ، وساعده فى هذا الهجوم بلدوين من لوبورج ، وجوسـلين مـن كورتينـى Joscelin of Courtenay . وكان جوسلين قد وصل الأراضى المقدسة فى ١١٠١م ، ومنحة بلدويـن تل باشر Turbessel إقطاعة. وجعلته هذه الإقطاعة أهم تابع إقطاعى لكونت الرها ، فى غرب نهر الفرات . وفى ١١٠٤م خطط للاستيلاء على حرّان ، أكبر قلعة جنوب شـرق الرها ، وكانت الفكرة جيدة . وكانت حرّان بوابة الموصل التى حدثـت بهـا منازعـات مريرة بين أتابكها الجديد وجيرانه المسلمين منذ وفاة كربوغا القوى (١١٠٢م) . كمـا أن امتلاك حرّان سوف يدق إسفينا بين المراكز السلوجوقية الثلاثة فى الأناضول، والعـراق، وسوريا. وسوف يحقق ذلك قطع اتصالات كل من حلب ودمشق عن زملائهم فى العقيـدة فى آسيا الوسطى، وعلى وجه التخصيص. وحتى فى تلك الظروف ، لم يكن حاكم دمشق مستعداً لمحاربة الفرنجة، لأنه فى تقديره أن كلاً من أنطاكية والرها ، إمارتان حاجزتـان نافعتان ضد حلب والموصل . وفى ١١٠٤م ، فقد الجيش الفرنجى السيطرة على نفسـه ، إذ وقع كل من بلدوين من لوبورج ، وجوسلين من كورتيناى فى الأسر ، تاركين تنكـرد يتولى مسئولية الوصاية على الرها . وكان للهزيمة نتائج سياسـية أخرى بعيدة المـدى ، برغم أن أهميتها لم تكن واضحة على نحو فورى . وعلاوة على ذلـك ، قضـى فشـل الحملة الصليبية لعام ١١٠١م على أسطورة استحالة التغلب على المقاتلين الصليبيـن. إذ أن الفشل فى إبعاد السلاجقة عن بعضهم البعض ، كان يعنى أن وضع الرهـا ، كقـاعدة شرقية أمامية للعالم النصرانى، كان عرضة للسقوط فى أيدى الأعداء على نحو مـتزايد. على أن تلك الإمارات التى أقيمت، قدر لها البقاء أربعين عاما بسبب إنعدام الوحدة بيـن المسلمين .

واستفادت الإمبراطورية البيزنطية من هزيمة الصليبيين عند حرّان ، فى اسـتعادة قيليقية من إمارة أنطاكية ، واسترداد أجزاء من اللاذقية الميناء والجـزء السـاحلى مـن المدينة . وما كان بوهيموند قلقاً على مستقبل إمارته ، على نحو ينم على اليأس ، لذلـك سلم مجلس الوصاية إلى تنكرد للمرة الثانية ، وعاد إلى أوربا .

وذهب بوهيموند إلى أراضيه أولاً فى أبيوليا Apulia ، ثم ذهب إلى روما ، وفرنسا، حيث استخدم كل الإمكانيات التى تحت تصرفه - المال والدعاية - من أجل حشد جيش لمحاربة الدولة البيزنطية . وعمل على تعزيز مكان أسرته بترتيب زيجات مفيدة ببراعة لنفسة ولابن أخيه تنكرد . وفى ١١٠٧م أبحر عبر بحر الإدرياتيك ، وضرب الحصار حول قلعة دراخيوم Dyrrhachium الساحلية الكبرى ، بيد أنها كانت مغامرة ميئوس منها. وكانت الدولة البيزنطية فى ذلك الحين أقوى مما كانت عليه الحال فى زمن حرب النورمان الأخيرة . وبعد ذلك بعام واحد (١١٠٨م) كان عليه أن يستسلم للشروط التى أملاها عليه خصمه القديم ، ألكسيوس ، فى معاهدة ديفول Devol . فقد وعد بوهيموند أن يدير شئون إمارة أنطاكية (ما عدا قيليقية واللاذقية) ، كإقطاعة تابعة للإمبراطور ، وأن يعيد البطريرك البيزنطى، إلى منصبه فى أنطاكية. ومن باب التعويض، سمح الإمبراطور ألكسيوس لبوهيموند أن يحتفظ بأى أراضى يستطيع الاستيلاء عليها فى منطقة حلب.على أن المعاهدة ، إذا تم نفيذها ، كانت تعنى نهاية سلطة تنكرد فى سوريا ، لذلك، فليس من المدهش أن بوهيموند لم يجرؤ على أن يظهر ثانية فى بلاد المشرق الإسلامى . لذلك عاد إلى إبيوليا ، حيث مات عام ١١١١م رجلا منسيا. وبموته اختفى تماما أكثر قادة الحملة الصليبية الأولى ، قلقاً ، وطموحاً ، وتجرداً من المبادئ الأخلاقية - وأيضا أكثرهم ذكاءاً . وأخيراً تولى تنكرد السلطة فى أنطاكية ١١٠٨م ، وكان من الناحية الرسمية ، نيابة عن بوهيموند لغيابه ، وفى الواقع كان حاكما مستقلا . ومن الطبيعى أنه لم يكن لديه نية تنفيذ شروط معاهدة ديفول Devol ، وبدلاً من ذلك كرّس باقى عمره من أجل توسيع حدود أنطاكية . ففى الشمال ، طرد البيزنطيين خارج شرق قيليقية بصفة نهائية ، وفى الجنوب أخرجهم من اللاذقية ، واستولى على جبلة Jabala ، وبانياس Bulyniyas ، والمرقب Maragab ، من المسلمين. وقد قدّر للمرقب (باللغة اللاتينية Margat) أن تصبح قلعة صليبية كبيرة . ولما كان تنكرد يحكم كلاً من أنطاكية والرها ، لذلك كان أقوى رجل فى سوريا، وكان ألكسيوس كومنين (ت ١١١٨م)، مشغولا جدا فى محاربة السلاجقة بالأناضول لدرجة أنه لم يحاول أن يفرض بالقوة. شروط معاهدة ديفول Devol .

وعندما استرد كل من بلدوين من لوبورج ، وجوسلين من كورتيناى حريتهما (بالخروج من الأسر الذى وقعا فيه عام ١١٠٤م) ، نشب على الفور صراع بينهما وبين تنكرد . وكان تنكرد كارهاً لإعادة الرها إلى وضعها الأصلى . إذ تمكن تنكرد من تعيين أحد أقاربه ، وهو ريتشارد (١١٠٤- ١١٠٨م) ليحكمها نيابة عنه . وفى بداية الأمر تراجع أمام احتجاجات بلدوين وجوسلين ، ولكن حدثت بعد ذلك سلسلة من الصراعات المسلحة ، وكان من نتيجتها ، أول تحالف بين الفرنجة وأهالى سوريا . أما بالنسبة للمسلمين فلم يكن هناك شيئاً غريبا ، بخصوص مثل ذلك التحالف ، إذ أنهم لم يكونوا قد اعتبروا بعد أن الصليبيين أعداء يخوضون حرباً مقدسة . أما على الجانب النصرانى ، فلا بد أن الصليبى المخلص ، لابد وأن قد أصابته الصدمة ، لأنه لا يوجد أكثر صعوبة من معارضة المبادئ الصليبية ، أن تحدث حرب أهلية بين النصارى ، وأن يلجأ الطرفان المتنازعان إلى الحلفاء المسلمين . ومن الواضح أن البارونات فى سوريا ، قد ابتعدوا كثيراً عن روح الحرب الصليبية . فمن ناحية كان تنكرد يتلقى العون من أمير حلب ، ومن الناحية الأخرى ، بلدوين ، وجوسلين ، وحاكم الموصل . وفى نهاية الأمر فعلى الرغم من أن تنكرد كان منتصراً فى المعركة ، فإن بلدوين احتفظ بالرها . ولأسباب لازالت غامضة حالياً ، قام بلدوين بتغيرات جوهرية فى سياسته الداخلية . إذ كان من قبل يبدى محاباة للأرمن المقيمين فى الرها ، ثم بعد ذلك أجبر الكثيرين منهم على الخروج من المنطقة .

وكان ريموند من Raymond of Toulouse ، الكونت المسن قد مات خارج أسوار طرابلس فى ٢٨ فبراير ١١٠٥م. وقد كان أحد الشخصيات البارزة فى الحملة الصليبية الأولى ، والواقع أن الطبقة المتواضعة كانت تعتبره قائدها الحقيقى . وفى الحقيقة كان ريموند الرجل الوحيد صاحب الشخصية القوية فى مواجهة بوهيموند . إن الحوليات المعاصرة، والدعاية النورمانية ، وكتاب التاريخ فى الوقت الحالى ، لم يكونوا منصفين له . وبفضل الكتاب الذى ألفه مؤخرا كل من J.H. and L.L.Hill ، فإن إنجازات ريموند قد أخذت حقها . (٢٨) وعندما وصفه المعاصرون بأنه الأمير الشهير للفرسان النصارى ، فأنهم لم يكونوا يبالغون .

على أن الذى عقد الخلافة على حكم طرابلس حقيقة أن الفونسو - جوردان Alfonso - Jordan ، الابن الوحيد لريموند فى المشرق الإسلامى Outremer ، كان لا يزال قاصراً . ولذلك اختار الجنود البروفنسال Provencal ، وليم جوردان ، ابن عمه، كقائداً لهم . أما فى تولوز Toulouse ، فقد رفض البارونات الذين كانوا تحت حكم برنارد الشقيق الأكبر لريموند والذى كان يحكم مقاطعة تولوز نيابة عن ريموند أثناء غيابه فى المشرق ، رفضوا الاعتراف بوليم كوريث ، واستدعوا الفونسو القاصر من سوريا . وعلى ذلك قرر برنارد أن يجرب حظه فى المشرق الإسلامى ، وفى ١١٠٨م، وصل إلى جبل الحج Mount Pilgrim ، وعلى الفور أصبح برنارد ووليم متورطين فى منازعات حول الوراثة. وعندما اعترف وليم بتنكرد حاكم أنطاكية كسيد إقطاعى له، طلب برنارد من الملك بلدوين الأول أن يتصرف كحكم. واستجاب بلدوين الأول للدعوة، وفى يوليو ١١٠٩م عقد اجتماعاً ضم كل الأمراء خارج أسوار طرابلس . وواجه تنكرد ووليم جبهة متحدة _ بلدوين الأول ، وبلدوين من لوبورج ، وجوسلين من كورتنارى ، وبرنارد _ وبذلك تم إجبارهما على قبول تسوية . وكان على تنكرد التخلى عن مطالبته بإمارة الرها. وكان لتنكرد أن يتسلم ممتلكات منطقة الجليل بالمقابل على سبيل التعويض ، عند عودة بوهيموند إلى أنطاكية. وقد كان ذلك غير متوقع تماماً، وبذلك لم يعانى تنكرد من فقدان حقيقى لماء وجهه. وانقسمت الأراضى التابعة لريموند بين اثنين من المطالبين ، وأصبح كل منهما التابع الإقطاعى لحليفه الأكبر . واستعاد هذه الاتفاق الانسجام فى المصالح والآراء ، وهو أمر جوهرى للنصارى فى المشرق الإسلامى ، وعلى الفور قرر الأمراء ، ضرب الحصار حول طرابلس بتصميم ونشاط ، بمساعدة الأسطول الجنوى والبروفنسالى . وفى ١٢ يوليو ١١٠٩م ، استسلمت المدينة . وأخيرا قامت آخر إمارة صليبية . ولم يدم تقسيمها إلى قسمين زمناً طويلاً . وبعد الاستيلاء على طرابلس بوقت قصير مات وليم جوردان من جرح سهم . وتولى السلطة برنارد فى إمارة طرابلس، وأصبحت إقطاعة فى مملكة بيت المقدس . (٢٩)

وكانت التسوية التى أجراها الأمراء فى طرابلس فى ١١٠٩م ، الحادثة الأكثر أهمية فى سيرة الملك بلدوين الأول . فقد أظهرته التسوية فى مظهر ملكى حقيقى ، وأنه الوسيط

الأكبر للأمراء النصارى فى المشرق الإسلامى ، إذ كان على تنكرد حاكم أنطاكية المتمتع بالحكم الذاتى عرفياً ، أن يخضع لحكم بلدوين الأول . وكان بلدوين الأول ، قد وصل إلى هذا المركز نتيجة لاتساع حدود المملكة الفعّال. ففى ١١٠١م ، كان قد استولى على مدينتى أرسوف وقيسارية الساحليتين بيد أن عسقلان ظلت فى أيدى المصريين ، كشوكة خطيرة فى جسد بلدوين الأول . فقد كانت عسقلان قاعدة مثالية للحملات الفاطمية إلى الأراضى الفلسطينية ، وفى الواقع استخدمتها الجيوش المصرية الكبيرة فى ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥م . وبعد قتال شرس فى منطقة الرملة - حيث أحرز الفرنجة نصراً على الدوام - تم صد تلك الغزوات . وفى إحدىٰ تلك المعارك ، لقى ستيفن من بلوا حتفه ، ذلك الصليبى الذى كان لا يعرف الكلل. وأثناء تلك السنوات كان بلدوين الأول محظوظاً لأنه لم يتعرض للهجوم من المؤخرة أيضا، فقد خافت دمشق من السيطرة الفاطمية مثلما حدث له ، ولذلك لم تتحرك دمشق نحوه. وبعد ١١٠٥م ، لم يقم الفاطميون بمحاولات جديدة لاسترداد فلسطين ، فقد أجبرهم بلدوين على الاعتراف بأن المملكة النصرانية سوف لن تزول نهائيا بين عشية وضحاها. ومع ذلك ظل التهديد المستمر من عسقلان قائما . واتجه بلدوين الأول صوب الساحل مرة ثانية . ففى مايو ١١٠٤م ، استولى على عكا بمساعدة أسطول من جنوة . وفى مقابل ذلك كان عليه أن يمنحهم إمتيازات ضخمة - الإعفاء من الضرائب ، وأن يكون لهم أحياء خاصة فى بعض المدن ، والإعفاء من الأجور. وقام الإيطاليون الواثقون من أنفسهم ، بنقش تلك الامتيازات بحروف من الذهب بكنيسة القبر المقدس . ولكن أخيراً ، استفادت المملكة من استخدام ميناء آخر آمن وكبير ، ولا يتأثر بحالة الجو نسبيا ، وبسبب كل ذلك تفوقت عكا على طرق يافا المكشوفة ، وأصبحت عكا المركز الاقتصادى للمملكة بسرعة. ومع ذلك فإن هذا تطور لا يمكن أن تتحمله دمشق ، لأنها تعتمد فى صلاتها التجارية على الساحل الفلسطينى . وبدأت دمشق فى تقديم عون غير مباشر للحكام المصريين للمدن الساحلية، وذلك بتوريط بلدوين الأول فى سلسلة من الاشتباكات الصغيرة ، فى حوران (جنوب سوريا) ، والجليل ، حيث أقام حاكم طبرية الصليبى عدة قلاع للسيطرة على طرق القوافل من دمشق وإليها . وتمكن بلدوين من الحصول على هدنة سنة ١١٠٨م فى هذا

الإقليم ، وحتى ذلك الحين استمرت دمشق فى مساندتها للمصريين على الساحل الشمالى . وفى تلك السنة (١١٠٩م) ، كان على بلدوين الأول الاتجاه شمالا، لكى يعمل على إحلال السلام بين الأمراء الصليبيين المتنازعين فى سوريا . وصمدت كل من صيدا وبيروت حتى ١١١٠م ، واستسلمتا عندما تلقى بلدوين مساعدة قوية من أسطول نرويجى تحت قيادة الملك سيجورد Sigurd .

وفى ذلك الحين سيطر الفرنجة على كل الموانى على شواطئ سوريا وفلسطين ، باستثناء عسقلان وصور. وكان ذلك يعنى أن توازن القوى فى هذا الجزء من العالم كان مقلوباً ، وأن دمشق شعرت بأنها مهددة على نحو خطير . ولذلك تحالف أتابكها طغتكين (١٠٨٥-١١٢٨م) مع مودود (١١٠٨-١١١٣م) حاكم الموصل الجديد . وتحت رعاية السلطان السلجوكى محمد بن ملكشاه ، كان مودود يحاول تنظيم ائتلاف إسلامى كبير، لاستئصال شأفة الفرنجة من آسيا. وأوضح تحليل متعمق للمؤرخ براور Prawer ، أنه حتى عام ١١١٥م بل وحتى ١١١٩م ، سيطر تضارب المصالح بين الجبهة السورية العربية والسلجوكية التركية على تأييد السلطان لهذا المشروع . وكان السلاطين السلاجقة أنفسهم أكثر اهتماما بفارس عن الأقاليم التى تقع غرب الموصل ، بيد أن الرأى العام الذى تشكل بذكاء نتيجة للاجئين ، من سوريا وفلسطين ، أجبر السلطان على التدخل ، لكى يمنع فقدان المسلمين لهم . ونستطيع أن نكتشف من هذا الضغط الذى مارسه الرأى العام بداية المظاهرة المميزة للصراع بين الفرنجة والمسلمين ، الذى قدر له أن يصبح أكثر تميزاً . بمرور الوقت ، وقدر له أن يبلغ ذروته فى الحرب المقدسة . ولم تكن حملات مودود الأولى فى ١١١٠، ١١١١م حاسمة لأن الفرنجة كانوا متحدين ، تحت قيادة بلدوين الأول ، فى حين كان الحلف الإسلامى ، غير قوى على ما يبدو. بيد أنه ما أن تقلص التهديد لفترة قصيرة من الوقت حتى انقسم الفرنجة إلى معسكرين . ووجد بلدوين من لوبورج أن جوسلين من كورتيناى قد أصبح أكثر قوة ، مما يرغب تماماً ، لذلك سجنه ، وأجبره على تسليم منطقة تل باشر. ولذلك دخل جوسلين فى خدمة الملك بلدوين الأول ، وحصل على طبرية ، والتى لم تعد باقية ليستفيد بها تنكرد ، ذلك لأن بوهيموند كان قد مات فى أبيوليا فى ١١١١م ، تاركاً ابناً كان لايزال قاصراً ، واستطاع تنكرد الاستمرار فى حكم أنطاكية نيابة عنه . وعندما مات تنكرد نفسه فى ديسمبر١١١٢م ،

تولى الوصاية روجرابن شقيقه (١١١٢- ١١١٩م) . وبفضل حيوية تنكـرد المسـتمرة ، صارت أنطاكية إمارة قوية فى ذلك الحين . وبالنسبة لبلدوين الأول كـان إنجـازا غـير عادى لرجل كان ذات مرة مغامراً مفلسـاً. ومات أيضا برنـارد أمـير طرابلـس فـى ١١١٢م، وخلفه ابنه الصغير بونز Pons ، (١١١٢- ١١٣٧م) . وأخيرا تخلى بونز عن سياسة أهـالى بروفنسال المعادية للنورمان . وكان زواج بونز من أرملة تنكـرد رمـزاً لهذا التغيير ، وأكمل زواج بين روجر حاكم أنطاكية وشقيقة بلدوين من لوبورج عمليـة الوفاق بين الفرنجة فى الشمال .

وعندما نقض بلدوين الأول الهدنة مع دمشق فى ١١١٣م ، انتهز مودود الفرصـة لشن هجوم آخر. وفى هذه المرة لم يوجه مودود قواته نحو سوريا ، وإنما صوب فلسطين متحالفاً مع طغتكين . فهزم مودود بلدوين الأول فى معركة غرب بحر الجليل ، واحتـل المناطق الريفية المحيطة . بيد أن معظم المدن صـمدت أمامه وقاومته ، وفـى سـبتمبر ١١١٣م ، أجبره قدوم جيش نصرانى تدعمه فرق عسكرية من الإمارات الشمالية علـى التقهقر إلى دمشق . وفى أكتوبر ١١١٣م ، اغتال أحد الحشاشين هذا المقاتل الممـتاز والمقتدر – وأحدث مقتله كثيراً من الارتياح عند الفرنجة ، وعنـد طغتكين نفسه ، لأنـه كان قد تعلم الخوف من مودود ، ولم يكن لديه الرغبة فى القضاء التام على مملكة بيـت المقدس الصليبية . ولهذا السبب إتهمه سلطان بغداد بالمسئولية عن مقتل مودود ، ولذلـك وجد طغتكين من الحكمة التعجيل بعقد هدنة مع بلدوين الأول. كما أن الفوضى السياسـية التى تلت موت رضوان ١١١٣م ، حاكم حلب ، حسّنت كثيراً النظرة إلى الفرنجـة . وإن كان هذا لم يمنع السلطان السلجوكى من الاستمرار فى الإعداد لمحاربة الفرنجة مكلفاً أولاً أقسنقر البرسقى ، الذى عينه أتابكاً على الموصل (١١١٣-١١٢٦م) ، ثـم برسـق بـن برسق (ت ١١١٦م) ، لتنفيذ هذه السياسة . وكان برسق غريباً عن الجماعـة ، إذ كـان فارسياً ، ولذلك اتحدت كل القوى السورية ضده . وتحالف الفرنجة مع كـل مـن حلـب ودمشق ، وفى سبتمبر ١١١٥م ، هزموا برسق فى معركة تل دانيـث ، جنـوب غـرب حلب. وسرعان ما انهار الائتلاف الإسلامى المؤقت بدوره ، لأنه فى ذلك الحين بـدا أن

الفرنجة أقوياء جداً . ومع ذلك فقد وضع تل دانيث نهاية لمجهود السلاطين السلاجقة فى استرداد سوريا .

وعلى الرغم من أن بلدوين الأول ، كان مشغولاً بصفة مستمرة تقريباً ، بشئون شمال سوريا من ١١٠٩م -١١٤٥م ، فإنه كان مدركاً تماماً للحاجة لتأمين سلامة حدوده الجنوبية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، واصل بلدوين الأول تحركاته فى صحراء النقب في ١١١٥م ، وهناك سيطر على الطريق إلى العقبة جنوب البحر الميت، وبنى هناك قلعة مونتريال Montreal ، (شوبك Shobak باللغة العربية) . وفى العام التالى ، احتل ميناء العقبة (أيلة) . وفى ذلك الحين ، كانت له قاعدة على البحر الأحمر ، وعمل على حمايتها ، وذلك بتقوية جزيرة فرعون (Graye) البعيدة عن الشاطئ . وتحددت سياسة بلدوين الأول فى شرق الأردن ، فى مراقبة غير دقيقة ، بمعرفة القبائل البدوية تدعمها حملات تأديبية ، من حين إلى آخر. وفى ١١١٦م ، تم حسم مسألة زواج الملك أيضاً . ففى ١١١٣م تخلص من زوجته الثانية الأرمنية ، وتزوج من أدليد Adelaide ، أرملة روجر حاكم صقلية. وكان بلدوين قد رغب فى الزواج من أدليد ، أرملة روجر حاكم صقلية لما قدمته من بائنة Dowry ، كان فى حاجة ماسة إليها ، ولأنها كانت تمثل القرابة الصقلية التى تستطيع تقديم أسطول ، ونفوذ سياسى ، موازٍ لنفوذ النورمان في شمال سوريا. وتمكنت أدليد من الحصول على تعهد من بلدوين ينص على أنه إذا لم تنجب أطفالاً من زواجها منه، فسوف يكون وريث بيت المقدس الكونت روجر ملك صقلية ، وهو ابنها من زوجها الأول ، لأن بلدوين كان أبترا حتى ذلك الحين. ومن الواضح أنها كانت محاولة لخلافة العرش مبنية على أساس حق وراثى . بيد أن الزواج لم يقدر له الاستمرار ، ففى ١١١٦م ، كان بلدوين مريضاً وطرد زوجته أدليد استجابة لطلبات رجال الدين ، ومن ثم عادت إلى صقلية . وربما عمل مرض الملك على ازدياد الخوف من أن يصر روجر على حقه فى العرش . ولقد تعرض البلاط الملكى الصقلى إلى إهانة بالغة ، وظل لفترة طويلة لا يقدم شيئاً لمساعدة مملكة بيت المقدس .

وفى ١١١٨م ، غزا بلدوين الأول مصر ، وقاد قواته إلى ضفاف النيل ، لكنه أصيب بمرض شديد، وعاد إلى مملكته ، ومات فى الثانى من أبريل ١١١٨م ، على

مقربة من عسقلان . وتم دفنه بجوار شقيقه جودفرى . وكان بلدوين الأول فاتحاً عظيماً ، وسلم خليفته مملكة راسخة الأركان ، ولها مكانة مرموقة . وحكم بلدوين الأول بحـــزم ، وتأكد من أن الإقطاعات المملوكة للتاج لن تصبح وراثية ، إذ بعد موت التابع الإقطاعى ، كان فى استطاعة الملك طرد من يشاء . فما أن يخلص من دايمبرت من بـــيزا ، حتـــى احتفظ بعلاقات طيبة مع الكنيسة ، وبخاصة بعد ١١١٢م ، عندما حقـــق أرنولـــف مـــن روشى Arnulf of Roches (ت ١١١٨م) رئيس شمامسة بيت المقدس منـــذ ١٠٩٩م ، طموحه فى أن يكون بطريركاً – برغـــم أن أرنولف كان غــــير قـــادر علـــى التمتـــع بالسيطرة دون منازع على منصبه ، إذ قد تم عزله بصفة مؤقتة فى ١١١٥م ولم يكن لدى جودفرى الوقت ليقوم بأكثر من البداية. وقد استولى بلدوين الأول على الساحل ، وأوقف هجمات المصريين والسلاجقة، وأقام تسوية مؤقتـــة a modus vivendi مـــع دمشـــق ، وأضاف إلى الأراضى التابعة لدولته فى الجنوب. ولا ريب أنه المؤسس الحقيقى لمملكـــة بيت المقدس ولاخلاف حول مركزه كسيد أعلى لكل الأمـــراء الفرنجـــة فـــى المشـــرق الإسلامى .

وانقسمت الآراء بشأن من يخلف بلدوين الأول على عرش المملكة . وقد أيد البعض أخاه ، كونت أوستاس من بولون Count Eustace of Bolulogne ، وفضــــل آخـــرون بلدوين من لوبورج Boldwin of le Bourg ، الذى وصل إلى بيت المقدس فـــى الوقـــت المناسب ، والذى كان كونتاً مؤقتاً للرها ، وتزعم الرأى الأخير البطريرك جوسلين مـــن كورتناى ، وتم اختيار بلدوين كونت الرها ملكا لمملكة بيت المقدس خلفا لبلدويـــن الأول. وللمرة الثانية ، تم تسوية المسألة بالربط بين الاختيار والوراثة . وكان أوســـتاس أقـــرب الأقارب ، ولكن كانت هناك مجموعة من الآراء بأن القريب الأقرب الـــذى عـــاش مـــن الناحية الفعلية فى المشرق الإسلامى ، له الحق فى العرش ، برغم أن هذا الرأى ، يجب أن يتم التأكيد عليه بالانتخاب . وفى يوم عيد الفصح (يوم الأحد الذى يأتى مباشرة بعـــد ٢١ مارس من كل عام) ، برغم أنه لم يتوج إلا فى عيد ميلاد ١١١٩م ، فى بيت لحـــم ، بعد أن أصبح معروفاً أن الكونت أوستاس من بولون قد تخلى عن كل إدعاء ، وعلى مثال سلفه كان بلدوين الثانى مقاتلاً رائعاً ، ولكنه كان مستعداً أيضـــاً لبـــذل اهتمـــام للشـــئون الداخلية للمملكة . وكان لدى بلدوين الثانى انضباطاً أكثر من بلدوين الأول ، وكان موفقاً

فى زواجه من مورفيا Morphia ، وهى أميرة أرمنية ، وكان ورعـا إلى حـد بعيـد ، والواقع أنه كان كثير الصلاة حتى أن ركبتيه كانتا بهما طبقة جلدية خشنة. ومع ذلك فقـد كان مخادعاً بارعاً ، وبخيلاً إلى حد ما .

وكافأ بلدوين الثانى جوسلين من كورتناى الذى بذل جهوداً مضنية لضمان اختياره ، وذلك بتقليده منصب كونتية الرها (١١١٩ – ١١٣١م). وهكذا عاد جوسلين إلى الإمـارة التى كان قد طرده بلدوين منها . ولم تكد تلك الأمور تستقر حتى أن الأمور فى شـمال سوريا ، تطلبت حضور بلدوين الثانى . وكان روجر حاكم أنطاكية ، قد مارس ضغوطـاً فرنجية كثيرة جداً على حلب ، حتى أن المواطنين اضطروا إلى البحث عن المساعدة عند إيلغازى الأول بن أرتق حاكـم ماردين . وتظاهر إيلغازى بالسيطرة على حلب (١١١٨-١١٢٢م) ، وكون تحالفاً عدوانياً مع طغتكين حـاكم دمشق . وجعل موقع حلب المتوسط منها محوراً لنظام توازن القوى، بمعنى أنها كانت باعـثـاً للمنافسة العنيفة بين الفرنجـة والأراتقة، وحكام الموصل ودمشق. ومال قوس الميزان لصالح الرجل الذى سيطر علـى حلب ، وبخاصة بعد ١١١٨م ، عندما انتزع إيلغازى الأول بن أرتـق (١١١٨-١١٢٢م) المدينة من الإمبراطورية السلجوقية ١١٠٩م. وغزا إيلغـازى أنطاكيـة عـام ١١١٩م. وعلى الرغم من كل التحذيرات التى وصلته ، وكل دروس الخبرة السابقة ، فإن روجـر قرر ألا ينتظر وصول الإمدادات العسكرية من بيت المقدس وطرابلس . وتقـدم روجـر للقاء إيلغازى غرب حلب ومعه سبعمائة فارس وثلاثة آلاف رجـل ، وفـى ٢٧ يونيـة ١١١٩م ، تعرض الفرنجة لحركة تطويق ، وتجرعوا كأس الهزيمة النكراء . ولـم يلـذ بالفرار سوى رجلين من مرتبة البارونية . وسقط روجر قتيلا وهو يقاتل بيـن فرسـانه المدربين تدريباً حسنا . أما من وقع فى الأسر ، فقد قتله المسلمون فيما بعد . وكانت نتائج هذه المعركة ، معروفة لدى الفرنجة ، باعتبارها معركة الـدم the Field of Blood . وكانت النتائج بعيدة الأثر . وأشارت تلك المعركة إلى نهاية الـدور المهـم الـذى لعبـه نورمان جنوب إيطاليا فى تطور الإمارات الصليبية ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، تفـوق الفرنجة عليهم فى كل مكان . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أثبتت تلك المعركـة أنـه فـى

استطاعة المسلمين هزيمة الفرنجة . حتى بدون مساعدة السلطان السلجوقى. وكان فى استطاعة الحكام المحليين القيام بذلك شريطة أن يظلوا متحدين .

ولحسن حظ الفرنجة لم يقم إيلغازى باستغلال انتصاره على الفور ، وساعد على ذلك الموقف من ناحية إيلغازى ، أن استطاع بلدوين الثانى صد إيلغازى ، وذلك بعد أن تولى بلدوين الثانى الوصاية على إمارة أنطاكية . وكان ابن بوهيموند لا يزال صبياً فى أبيوليا ، ولذلك حتى عام ١١٢٦م ، كانت حكومة أنطاكية فى يدى الملك بلدوين الحريصتين. فقام بإعادة توزيع الإقطاعات الخالية ، وتزويج الأرامل إلى فرسان مناسبين، لكى يكوّن قوة قتالية جديدة بأسرع ما يمكن. وباعتبار ملك بيت المقدس السيد الإقطاعى لكل من طرابلس والرها ، ووصيا على أنطاكية ، فإنه حكم كل الشرق اللاتينى فى ذلك الحين . وفى ١١٢٠م مكنت هذه السلطة غير العادية ملك بيت المقدس ، من إصدار خمسة وعشرين مرسوماً فى مجلس نابلس ، برغم أنه كان فى الحقيقة أكثر شبهاً ، بمجلس استشارى حضره معظم الشخصيات المهمة الكنسية والعلمانية . ولأول مرة فى ذلك الحين ، صدرت عقوبات للزنا ، واللواط ، والجمع بين زوجين ، والسرقة ، ومخالفات أخرى للقوانين التى أعلنت . أما فى فترة الغزو ، فى عهد بلدوين الأول ، فلم يصدر من التشريعات سوى الحد الأدنى . إذ قد تم معاقبة معظم المخالفات بمعرفة القاضى الخاص ، وفقاً لما يراه مناسباً ومتوافقاً مع أعراف وطنه الشخصى . على أن قائمة القوانين التى تم صياغتها فى نابلس ، لهى دليل على الشك الهائل بخصوص القانون فى غيبة معيار موحد ، يمكن التعامل به فى ذلك الحين . والواقع أن هذا ليس دليلاً على الانتشار الواسع للفسوق . وفى المجلس نفسه ، تم تعريف السلطان القضائى للقصر الملكى بكل دقة ، وكان حق الاعتماد على النفس محدداً بالتماثل .

والحقيقة أن الضغط الفرنجى على حلب كان متواصلاً، نتيجة لحكم بلدوين الثانى النشط . وتلقى النصارى مساعدة من شخص غير متوقع . فقد تورط داود الثانى ملك جورجيا فى حرب ضد إيلغازى ، وانتصر داود فى معركة ملطخة بالدماء فى ١١٢١م. ومات إيلغازى * فى العام التالى (١١٢٢م) ، وتفسخت سلطته. لكن بلق ابن أخيه وخليفته

---

* هو إيلغازى الأول بن أرتق (١١٠٨- ١١٢٢م) وهو أول حكام الأراتقة فى ماردين . (الشاعر) .

فى حلب واصل النضال ، وتمكن بلق من أسر الكـونت جوسلين حاكم الرها أولا ، ثـم تمكن من أسر بلدوين الثانى نفسـه فى أبريل ١١٢٣م، عندما كان مسرعاً إلـى الرهـا، لعمل استعدادات للحكومة هناك . ويقال أن بلدوين كانت له قدرات على التنظيـم والإدارة لدرجة أنه لم تنشب أزمة دستورية فى عهده، ففى بيت المقدس اختار البارونات أوستاس جارنير Eustace Garnier لورد صيدا وقيسارية للقيام بعمل وصى على العرش .

نجح جوسلين فى رسم خطة هروب على الفور وكانت محفوفة بالمخاطر ، أما عن بلدوين فقد ظل سجيناً حتى بعد موت بلق ، وتم إطلاق سراحه فى صيف ١١٢٤م ، مقابل وعود لم يف بها . وأثناء وجود بلدوين الثانى فى السجن ، وقعت أكثر الحوادث التاريخية إثارة للإعجاب فى عهده ، ألا وهى الاستيلاء على مدينة صور، وقبل ذلك بفترة طويلة، فى ١١١٩م ، كان بلدوين الثانى قد أرسل طلب نجدة إلى البندقية. وفى خريف ١١٢٢م، أبحر إلى الشرق أسطول مثير للرعب والذعر تحت قيادة القائد الأعلى فـى جمهوريـة البندقية. وكان القائد الأعلى فى جمهورية البندقية ، قد قدر اللحظة التى يمر بها تقديـراً جيداً . فجمهوريتى بيزا وجنوة كانتا فى حرب مع بعضهما البعض ، وغير قادرتين على توفير وقت كاف للمشرق الإسلامى . لذلك كانت المساعدة من البندقية قيمة جداً ، وتمكن أهالى البندقية من طلب ثمن باهظ لذلك . وفى مايو ١١٢٣م هزم أسطول البندقية أسطولاً مصرياً فى معركة بعيدة عن شاطئ عسقلان ، وكان أسـطول البندقيـة علـى اسـتعداد للمساعدة فى الاستيلاء على ميناء عسقلان. وبعد تفكير عميق تقرر مهاجمة صور بـدلا من عسقلان . ثم عقد كل من الموظف الكبير بالقصر the Constable ، وبطريرك بيت المقدس جورمون Gormund (١١١٨ – ١١٢٨م) معاهدة مع البنادقة حيث تم وصـف وتحديد امتيازات جمهورية البندقية بتفصيل دقيق. إذ قد حصلوا على إعفاء من سداد كـل الرسوم الجمركية ، والسماح لهم بالتجارة دون أى قيود ، مستعملين أوزانهـم ومكـاييلهم الخاصة بهم . وكانت الضريبة المفروضة على جميع حجـاج المنـاطق المقدسـة هـى الضريبة الوحيدة الواجب عليهم سدادها . وكان لحكومة البندقية الحق فى الحصول علـى ثلاثمائة بيزانت (البيزانت Bezant عملة ذهبية مقدارها ١٢ دينار) ، وثلث مدية صور .

كما يتم الفصل فى الدعاوى بين البنادقة فى محكمتهم فى صور ، وكذلك الدعاوى التى يكون فيها البنادقة مدعى عليهم. وكانت السيادة القانونية للمملكة قد ظهرت بوضوح فى نابلس . وكنتيجة لتلك المعاهدة ، تصدعت أركان القصر الملكى ، كما اعترى الضعف مقدرة البلاط الملكى على نحو خطير . وكان هذا الأمر خطيراً بوضوح ، لأنه كان من المحتم أن الامتيازات ذاتها لابد وأن يتم منحها على الفور لكل المدن البحرية جميعها فى إيطاليا وجنوب فرنسا .

وبعد هذه المعاهدة – التى صدق عليها بلدوين الثانى فيما بعد – ضرب الفرنجة حصاراً طويلاً وثابتاً حول مدينة صور. وكانت صور محصنة جيداً ومتصلة بالبر الرئيسى بممر ضيق كان الإسكندر الأكبر قد بناه سنة ٣٣٢ ق.م . وفى السابع من شهر يوليو ١١٢٤م ، وبعد أن نفدت المؤن ، وأصبحت الحالة ميئوس منها ، استسلمت حامية مدينة صور ، شريطة أن يتم السماح لمن بالمدينة بمغادرتها فى سلام. وعندئذ تم وضع شروط المعاهدة مع البنادقة موضع التنفيذ . وعلى الرغم من أن سقوط صور كان انتصاراً للقضية النصرانية ، فمع ذلك قدر له أن يتسبب فى مشكلات تتعلق بالتنظيم الكنسى .(٣٠) فوفقاً للعرف والتقاليد كانت أبرشية صور مع كل من أساقفتها المساعدين ، تنتمى إلى بطريركية أنطاكية . ولكن فى كليرمون كان أوربان الثانى ، قد أمر بأن الحدود الكنسية فى المشرق النصرانى ، يجب أن تخضع للحدود السياسية ، لأن هذا كان متبعاً فى الغرب الأوربى ، منذ عدة قرون . وحتى قبل الاستيلاء على صور كان وضع كراسى الأسلقفة المساعدين بها حرجاً . وكانت كراسى الأساقفة المساعدين فى بيروت ، وصيدا ، وعكا فى نطاق مملكة بيت المقدس ، وتحت سلطة بطريرك بيت المقدس ، ووفقاً لقرار أوربان الثانى . غير أن طرابلس وطرطوس ، وجبيل تقع فى كونتية طرابلس التى لها اثنان من كبار الإقطاعيين ، أمير أنطاكية ، وملك بيت المقدس . ولاريب فى أن أنطاكية لم تكن مستعدة للتخلىعن الحقوق القديمة، ومن ثم أثارت الخلاف العنيف الطويل حول أبرشية صور ، بين البطريركين ، والذى لم يساعد على التطور السلمى للإمارات الصليبية . وفى سنة ١١١١م، أيد البابا بسكال الثانىPaschal II ، قرار البابا ، ولكن فيما بعد أصبح أقل وثوقاً ، ومال إلى حد ما إلى عودة الحدود القديمة . ومنذ

ذلك الحين فصاعداً ، بقيت البابوية مترددة بصفة دائمة ، ولذلك تصـــرف الطرفان دون الأساقفة ، مفضلين الإبقاء على الكراسى الأسقفية المتنازع عليها شبه خالية . بيـــد أنـــه أصبح واضحا فى ١١٢٢م ، أن هجوماً خطيراً على صور كان أمراً ممكناً غير مشكوك فيه ، وعين بطريرك بيت المقدس رئيساً للأساقفة لصور، ومع ذلك فقـــد مـــات رئيـــس الأساقفة هذا قبل أن يتم الاستيلاء على المدينة . وبعد الاستيلاء على صور ظل الكرســـى المطرانى خالياً لمدة أربع سنوات ، إلى أن تم تعيين رئيس أساقفة فـــى ١١٢٨م ، وهـــو إنجليزى يدعى وليم (ت حوالى ١١٣٤م) ، ويجب ألا يخلط بينه وبين رئيس أساقفة صور المؤرخ وليم الثانى (١١٧٥-١١٨٦م) . واعترف مطران صور بسلطة بيت المقدس ، ولذلك بدأ بطريرك أنطاكية بدوره بتعيين أساقفة لكراسى الأسقفية الشمالية . وفـــى ذلـــك الحين كانت الإدارة البابوية مجبرة على إصدار قرارها . وفصلت الإدارة البابويـــة فـــى الدعوى لصالح بيت المقدس. (٣١) ونتيجة لذلك قام الأساقفة لأول مرة – كما حدث فـــى حالة عكا – بتعيين ثلاثة أساقفة مساعدين فى الكراســـى الجنوبيـــة . وفيمـــا بعـــد أدت المنازعـــات بين بطريرك بيت المقدس ، ورئيس أساقفة صور إلى عرض الأمـــر علـــى البابوية للمرة الثانية، وفى هذه المرة صدر قرار محدد لصالح بيت المقدس فى ١١٣٩م. ومع ذلك ظلت الكراسى الأسقفية لطرابلس تابعة لأنطاكية، لأنه على الرغم من أن الإدارة البابوية ، أيدت قرار ١١٣٩م ، حتى القرن الثالث عشر ، فإنه من الناحية العملية لم يفعل أى ممثل للبابا أي شيء من أجل أن تكون طرابلس خاضعـــةً لصور. وأجـــازت الإدارة البابوية تقسيم رئاسة الأسقفية لأنها لم تكن مستعدة للمخاطرة بالتسوية المؤقتة التـــى تتـــم إنجازها بجهد كبيرمن أجل وحدة صور مرتبطة ببيت المقدس بصفة ستمرة .

وكان تأسيس التنظيمات الديرية العسكرية أحد أكثر الحوادث التاريخية أهـــمية فى عهد بلدوين الثانى (١٢١١٧ـــ١١٣١م) .(٣٢) ومن الواضح أن هوج من بيـــنز Hugh of Payens (ت ١١٣٦م) ، وهو فارس من شامبين ، كان أول صاحب لفكرة أنـــه إذا ارتبطت حياة الراهب بمحاربة المسلمين (the Heathen) ، لإيجاد مثل أعلـــى فروســـى جديد، فإن ذلك العمل يجعل الله راضياً . وأقسم هوج ورفاقه الثمانية أمـــام البطريـــرك جورموند Gormund ، على أن يكون كل فرد منهم مطيعاً وفقيراً ، وعفيفاً ، ثم أقسموا

قسماً رابعاً إضافياً ، وهو أن يقدموا المساعدة والحماية لزوار الأماكن المقدسة، على امتداد الطريق الذى كان محفوفا بالمخاطر، من يافا إلى بيت المقدس . ومنحهم بلدوين الثانى مسكنا فى القصر الملكى ، والمسمى بمعبد سليمان Templum Salomonis ، (الآن المسجد الأقصى) . ومن ثم أصبحوا معروفين باسم فرسان الهيكل Templars (فى المصادر العربية يعرفون باسم الداوية) . وفى بداية الأمر عاشوا هناك فى فقر مثل جماعة تخضع لقوانين الرهبان . ثم أثاروا اهتمام القديس برنارد Bernard رئيس دير كليرفو Clairvaux ، الذى كان لديه المقدرة على إقناع الآخرين ، وبمساعدته تمت

الموافقة على نظام ديرى خاص بهم فى مجمع تروا Troyes فى سنة ١١٢٨م . وأصدر البطريرك ستيفن فى بيت المقدس (١١٢٨ـــ١١٣٠م) القوانين الأخيرة فى ١١٣٠م ، والتى أعطت لذلك النظام الديرى شكله النهائى . ومن المحتمل أن فرسان الهيكل اقتدوا بالرهبان السسترشن Cistrercians ، حيث ارتدوا الرداء الطويل الأبيض الذى يشد بحزام حول الخصر a white tunic فى ذلك الحين . وفى عهد البابا إيوجينوس الثانى Eugenius II (١١٤٥ـــ ١١٥٣ م) ، أضاف فرسان الهيكل صليبا أحمر لتوضيح

الفارق بين النظامين الديريين . وانضم سيل منهمر من الأعضاء الجدد ، وأثرت فصاحة القديس برنارد فى كثير منهم ، لأن هذه القديس كان مملوءاً بالتمجيد من أجل المثل العليا لنظام الفروسية المكرس لخدمة الله ، وهو مثل أعلى أظهر الفروق الصارخة بينه وبين لصوصية الفارس الدنيوى فى بحثه " فى تمجيد الفرسان الجدد " In Praise of the New Chivalry (١١٢٨م) . وقد تم تنظيم النظام الديرى الجديد بأحكام تحت إشراف رئيس له . وتكون تنظيم فرسان الهيكل من ثلاث طبقات ، الفرسان ، والرقباء الذين يخدمونهم ، والقساوسة . وخلال القرن الثانى عشر ، تمكن فرسان الهيكل من التحرر من سلطة البطريرك عليهم ، والواقع أنهم اخترقوا تماماً البناء الأسقفى ، لأن كل أسقف كان ملزماً برسم القساوسة ، فى تنظيم فرسان الهيكل دون مقدرته على الإطلاق فى انضمامهم إلى هذا التنظيم . وبالإضافة إلى ذلك منحهم البابا امتياز عدم مسئوليتهم أمام أى محكمة سوى محكمته . وكانت أهمية الأنظمة الديرية العسكرية هائلة ، لأنها من الناحية العملية كانت السلطة الوحيدة التى احتفظت بجيش عامل فى حالة استعداد دائم، فى

الشرق النصرانى . ومن ناحية ثانية كان وضعهم المتميز يعنى أنهم أقاموا دولـــة داخـل دولة – دولة غالبا ما ثبت أنها مثيرة للمتاعب لكل مـــن الملـك والكنيســة . وواصلــوا سياستهم الخاصة بهم ، كما كانت حقوقهم فى الإعفاء والاستثناء تهدد بتقويـــض النظـــام العرفى للسلطة بصفة مستمرة. وتلقوا الهبات القيمة من الأراضى الزراعية فى كل مكان فى الغرب الأوربى ، مما عزز وضعهم الخاص فى المشرق الإسلامى ، وعلـــى أســـاس هذه الثروة تطوروا بسرعة إلى تنظيم دولى له أهمية كبرى فى عالم الموارد المالية .

واستفاد فرسان الأسبتارية the Hospitallers من ظهور فرسان الهيكل (الداويـــة) أيضا ، ففى حوالى ١٠٧٠م ، كان بعض التجار من مدينة أمالفى Amalfi ، قـــد شـــيدوا نزلاً Hostel نصرانياً على غرار المؤسسات الأقدم . كان يقع بالقرب من الدير البندكى الأمالفى للقديسة ماريا اللاتينية شَـــيَّدهُ أحد بطارقة الإسكندرية فى القرن السابع . وبعـــد الحملة الصليبية الأولى خرجت الجماعة المقيمة بالنزل على سيطرة الدير ، والبطريـــرك الذى قاوم ذلك بكل عنف، إلى أن فرض البابا سيطرته عليهم. ومن ثم أصبح الأســـبتارية يخضعون لسلطة البابا مباشرة. وفى بداية الأمر كان دورهم خيرى تمامـــاً ، والواقـــع أن هذا الجانب من أنشطتهم ظل مهماً دائماً ، بيد أنه بحلول ١١٣٧م ، كانوا قد قبلوا القيـــام ببعض المسئولية للدفاع عن الحدود . وعند صدور قوانين وتشـــريعات ١١٨٢م ، كـــانوا ملزمين بالقيام بدور فى الحرب . وعند نهاية القرن الثانى عشر ، تطورت هذه الجماعـــة التى أنشأها التجار إلى نظام مقصور على الرهبان الفرسان ، من الناحيـــة الاجتماعيـــة ، على غرار فرسان الهيكل (الداوية) ، لمحاربة المسلمين. وتمت إعادة تنظيمهم وفقاً للنظام الديرى للقديس أوغسطين St. Augustine ، حوالى ١١٥٥م . وعندما ارتقى هذا النظـــام فى الأهمية ، حل حنا المعمدانى John the Baptist ، تدريجيا محل حنا المحسن كقديـــس راع لهذا النظام . وكان الزى الحربى لفرسان الأسبتارية (رداء طويل لونه أحمر بحـــزام حول الخصرTunic ، وعليه صليب أبيض له ثمانية أسنان) ، ولم يتم الاتفاق عليه بصفة نهائية إلاّ ١٢٥٩م. وفى النهاية أصبح التنظيمان العسكريان متنافســـين متعصبين علـــى نحو حتمى ، بيد أن مزايا تأسيسهما فاقت العيوب بكثير فى بداية الأمر .

ويجب أن نعود الآن إلى تاريخ الإمارات الصليبية . ففــي ١١٢٤م ، تــم إطــلاق سراح بلدوين الثانى من الأسر ، وعلى الفور نقل الحرب إلى أقسنقر البرسقى ، الذى كان قد سيطر على حلب في ١١٢٥م ، بالإضافة إلى الموصل . وكان هذا الإجراء قد قلــب توازن القوى فى سوريا . إذ كانت دمشق تقارن بيت المقدس قبل ذلك ، وتقــارن حلــب بأنطاكية ، وتقارن الإمارات الأصغر فى وادى أعالى نهر العاص بطرابلس . ولكن فــى هذا الحين ، ظهرت للوجود إمارة أكبر ، مركز ثقلها فى حلب ، والتى كانت بعيدة نســبيا عن القواعد الحربية السلجوقية ، والتى من ثم كانت لديها فرصة التطور إلى إمارة مستقلة عن بغداد . ومن المحتم أن هذا كان يعنى حدوث تغير فى الاتجاه بعيــداً عــن التوزيــع السابق للقوى ، والواقع أن حلب قد استبدلت استقلالها السابق بالحصول على أمن أكــبر باتحادها مع الموصل .

وفى مايو ١١٢٥م ألحق بلدوين الثانى بقوات آقسنقر البرسقى، هزيمة نكراء ، فــى بلدة أعزاز بشمال سوريا . وأخيراً ارتاح بلدوين الثانى من المسئولية عن أنطاكية فــى العام التالى . فقد وصل من أبيوليا Apulia ، بوهيموند الثــانى (١١٢٦-١١٣٠م) ابــن مؤسس إمارة أنطاكية ، ليضطلع بإرثه . وكان من واجبه الاستيلاء على حلب ، وهــى مهمة كانت تبدوا ممكنة تماماً ، نظرا لحالة الفوضى والاضطراب الذى لا يمكن تصديقه فى الإمارة ، على أثر اغتيال الأتابك فى نوفمبر ١١٢٦م . والواقع أنها كــانت الفرصــة الأخيرة للاستيلاء على حلب، بوهيموند الثانى ضيعها. إذ كان متورطاً بالفعل فى حــرب أهلية مع جوسلين ، كونت الرها . وخلال عامى ١١٢٧ و١١٢٨ م تولى أمر الحكم فــى الموصل وحلب عماد الدين زنكى (ت١١٤٦م). ومنذ ذلك الحين فصاعداً سبق الســيف العذل . إذ وجد الفرنجة فى زنكى خصماً خطيراً جداً .

وفى ١١٢٨م مات طغتكين حاكم دمشق القوى . وحاول بلدوين الثــانى الاســتيلاء على دمشــق ، بيد أن المحاولــة لم تكلل بالنجاح . وبعد ذلك بعامين ســقط بوهيمونــد الثانى قتيلاً فى معركة فى قليقيا . وكان لبوهيموند الثانى ابنة واحــدة فــى الثانيــة مــن عمرها، واسمها كونستانس Constance، وللمرة الثانيــة كان بلدوين الثانى مكرهاً علــى تولى عبء ممارسة السلطة فى أنطاكية برغم أن ذلك لم يكن قبل أن تحاول ابنته أليــس

Alice ، أرملة بوهيموند أن تتولى السلطة بنفسها . وعلى الرغم من الجهود المخزية التى بذلتها أليس ، فإن انقلابها إنتهى بالفشل . غير أن الشيخوخة، وتأثيرات فترتى السجن ، كانت قد بدأت تترك علامات بارزة على بلدوين الثانى، ففى ٢١ أغسطس ١١٣١م مـات بلدوين الثانى ، بعد مرض طويل إلى حد ما. وفى الساعات الأخيرة من احتضار بلدوين الثانى تم نقله إلى جماعة الكهنة الملحقة بكنيسة القبر المقدس ، ثم وجد مثواه الأخير فـى كنسية الْجُلْجُثَة Golgotha chapel. وبعد ذلك بوقت قصير مات كونت الرها ، رفيقه فى الحرب لمدة ثلاثين عاماً ، بعد أن اضطر إلى إسناد مهام الدفاع عن الرهـا إلـى ابنـه جوسلين الثانى (١١٣١-١١٥٠م) نتيجة لإصابته بجرح خطير . غير أن ابنـه رفـض تحمل المسئولية على أساس أن جيش الرها ضعيف جداً للحد الذى لا يمكنه الوقوف فـى وجه المسلمين الأقوياء . وغضب المحارب العجوز من ذلك حتى أنه ناضل بعيـداً عـن الفراش مرة ثانية ، وأمر بأن يحمل فى محفة in a litter ، ليواجه القـوات المعاديـة . وعندما علم الأعـداء بقدومه ، تفرقوا من حيث أتوا . ومات الكونت جوسـلين الأول ، وهو لا يزال فى محفته ، على جانب الطريق ، وهو مرتاح البال ، غير أنه كان منهكـاً نتيجة للمحاولة .

وبموت كل من بلدوين من لو بورج ، وجوسلين من كورتناى ، انتهى إثنـان مـن أفراد الجيل الأول للصليبيين . وظهرت جالية ببطء شديد ، ولكن باطراد ، وتألفت مـن الجيل الأصغر، ومن المستعمرين الذين وصلوا مؤخراً . ونظروا إلى المشرق الإسـلامى Outremer ، على أنه وطنهم ، وطوروا إحساسهم الذاتى بالهويـة ا لسياسـية . وفـى ١١٢٧م كتب فولشر الشارترى Fulcher of Chartres ، كاتب الحوليات الذى كان فى بيت المقدس فى ذلك الحين الكلمات الشهيرة التالية : " نحن الذين كنا من سكان الغـرب، أصبحنا من سكان الشرق ، فالرجل الذى كان رومانياً أو فرنجياً ، أصبح هنا مـن أهـل الجليل أو فلسطينياً ، والفرد الذى اعتاد الحياة فى ريمز أو شـارتر ، وجـد نفسـه الآن مواطناً من صور أوعكا . ولقد نسينا بالفعل الأماكن التى ولدنا بها ، فكثير منـا لا يعلـم شيئاً عنهم الآن ، أوعلى أ ية حال ، لم نعد نسمعهم يتحدثون عنا . وامتلك بعضنا الديـار والخدم ، وهى ممتلكات آلت إليهم وفقا لحق الإرث فى هذا البلد . والبعض تزوج مـن

سيدة ليست من بنات موطنه – سورية ، أو أرمنية ، وربما كانت مسلمة ثم تنصـرت ... ومن كان غريباً فى يوم ما ، هو من أهل البلد الآن . وفى كل يوم يلحق بنـا أتباعنـا ، وأقاربنا ، وينضمون إلينا ، تاركين خلفهم ، ربما على غـير رغبتهـم ، كـل أمتعتهـم ومتعلقاتهم . فمن كان فقيراً هناك ، وجد أن الله قد أغناه من فضله هنا . إن الذى كـان عنده القليل من المال ، يمتلك حالياً عملات بيزنطية مـن الذهـب الخـالص (besants) لاحصر لهـا . إن الذى لم يكن يمتلك قـرية صغيرة ، يستمتع حالياً بمدينة منحها اللـه إياه . ولمـاذا يفكر أى أحـد فى العودة إلى الغـرب ، بعد أن وجـد الشرق على هـذا النحـو ؟ " .

لقد تمت تسوية خلافة بلدوين الثانى (١١١٧-١١٣١م) على عـرش مملكـة بيـت المقدس وهو لا يزال على قيد الحياة . فتم الاعتراف بصفة رسمية بابنته الكبرى ميلزيند Melisende ، (ت ١١٦١م) كوريثة للمملكة فى مجلس انعقد فى نهاية ١١٢٧م أو فـى أوائل ١١٢٨م. وتم إرسال وفد سياسى إلى فرنسا حيث أتمـوا خطبة ميلزيند إلى فولـك ف . فولك Fulk V. Fulk كونت أنجو Anjou القوى ، الذى حصل على وعد صريح ، بأنه سوف يصبح وريثاً للعرش ، عندما يتم الاحتفال بالزواج ، وسوف يحكم فى النهايـة كملك ، وليس كمجرد أمير زوج . (٣٢)

وفى ١١٢٩ م وصل فولك إلى الأراضى المقدسة ، وتم الاحتفال بالزفـاف علـى الفور . وكان بلدوين الثانى حريصاً على ضمان إستمرارية أسرته فى الحكم. وهذا يعنى أنه كان عليه أن يقبل مبدأ وراثة العرش عن طريق النسـب والقرابة فحسـب ، ولكـن أيضا كان عليه أن يتأكد من أن فولك Fulk لن يتمكن بدوره ، من أن يخلفه أحد أبنائه من زواجه الأول ، أوالثالث . وبعبارة أخرى ، كان من الضرورى منع فولك من التصـرف مثلما فعل والده الذى كان قد تزوج أربع أو خمس مرات . (والواقـع أن بلدويـن الأول ملك بيت المقدس كان قد سلك سلوكاً مشابهاً عندمـا طلق زوجته الثانية ، وأرسلها علـى الفور إلى دير الراهبات .) فلا يجب أن تؤول مملكة بيث المقدس إلى أيـدى الغربـاء ، ويجب أن يرثها فولك وميلزيند ، وذريتهما ، وهم أحفاد بلدوين الثانى . واسـتلزم هـذا إعداد الترتيبات اللازمة لفولك وميلزيند للحكم بالاشتراك معاً ، وبهذه الطريقة تم وضـع

حدود واضحة لكيفية استخدام فولك لحقوقه الملكية . ومن ناحية ثانية ، ليس من المؤكد ما إذا كان من الممكن ، إبلاغ فولك بهذا التقييد منذ البداية فى عام ١١٢٨م ، لأن ذلك كان من الممكن أن يعرض المفاوضات لخطر التعثر. غير أن بلدوين الثانى أظهر نواياه بوضوح تام ، وهو على فراش الموت فى ١١٣١م . فقد عين بلدوين الثانى ثلاثة أشخاص كحكام مشتركين بعد موته. فولك ، وميلزيند ، وبلدوين الثالث حفيده الذى كان فى الثانية من عمره . وتم تتويج فولك وزوجته فى ١٤ سبتمبر ١١٣١م ، ولم يكن حفل التتويج فى بيت لحم ، وإنما فى كنيسة القبر المقدس ، والتى كان العمل مستمرا منذ أخذ الصليبيون على عاتقهم بناء تلك الكنيسة الهائلة . وشهد عهد فولك (١١٣١- ١١٤٤م) الانتهاء من بناء الكنيسة ، على الرغم من أن تكريسها لم يحدث قبل ١٥ يوليو ١١٤٩م. ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١١٨٦م ، كانت كل احتفالات التتويج تحدث فى تلك الكنيسة . إن الارتباط بفولك عزز مقام الأسرة الحاكمة فى بيت المقدس وهيبتها إلى حد كبير . وفى ذلك الحين كان فولك قد بلغ الأربعين عاما ، وحظى بثقة كل من البابا ، وملك فرنسا ، فى الوقت الذى كان ابنه جيفرى بلانتاجنيت Geoffrey Plantagenet قد تزوج من ماتيلدا Matilda ، أرملة الإمبراطور هنرى الخامس، الابنة الوحيدة لهنرى الأول ملك إنجلترا ، وبذلك أقام بيت بلانتاجنيت الذى قدر له حكم إمبراطورية هائلة : إنجلترا ، ونورماندى ، والأراضى التابعة لأسرة الأنجوية . وعند اعتلاء فولك لعرش بيت المقدس ، بدأت انجلترا أخيراً تبدى اهتماماً واقعياً إلى حد ما ، بكل ما يعود بالخير على الإمارات الصليبية .

وبعد اعتلاء فولك للعرش مباشرة ، كان عليه أن يتجه شمالاً ، مثلما فعل سلفه تماماً ، لكى يعالج أمور أنطاكية . فكانت قريبته الأميرة إليز Alice العجوز المهيبة ، قد حاولت تولى السلطة بمساعدة كل أمير طرابلس والرها ، وهما اللذان كانا يأملان فى التخلص من السيادة العليا لبيت المقدس . ولذلك وجد فولك نفسه مضطراً إلى اتخاذ طريق البحر إلى أنطاكية . وما أن وصل فولك إلى أنطاكية ، حتى تولى أمر الوصاية . واستطاع فولك إلحاق الهزيمة بأمير طرابلس الثائر فى معركة عند الحصن الأحمر Chastel Rouge ، وقام بفرض تسوية بالقوة .

وفى ذلك الحين تعرضت المملكة لحالة من الاضطراب والشغب بفعل ثورة داخلية، لأول مرة فى تاريخها . وكان بلدوين الثانى قد منح إقطاعة كبيرة فى شرق الأردن Oultrejourdain (Transjordan) إلى رومان من لوبوى Roman of le Puy ، ثم اختلف رومان مع الملك فولك ، (٣٣) ربما لأن رومان هذا كان قد اغتصب رسوم ميناء وحق سك العملة . فقام بيجن Pagan ، أمين المشروبات لدى الملك. ومن المحتمل أن هذه الثورة يعود تاريخها إلى الجزء الأخير من عهد بلدوين الثانى (ربما ١١٢٦ أو ١١٢٨م) ، غير أنه فى هذه الحالة لا بد وأن رومان كان قد تمرد مرة ثانية ، لأنه كان بلا شك ، متورطاً على نحو خطير فى التمرد الأكثر خطورة جداً ، والذى قاده هوج من لو بويزيه Hugh of le Puiset ، كونت يافا الذى كان له نفوذاً قوياً . وحتى هذا الحين كانت ثورة هوج يؤرخ حدوثها فى ١١٣٢م ، وهذا التاريخ غير صحيح ، ومن الممكن أن عام ١١٣٣م هو التاريخ الباكر للثورة، وأن الجزء الأخير من عام ١١٣٤م هو الأكثر احتمالاً . وكان هوج محل ثقة الملكة ميليزند Melisende ، إذ كان أحد أقاربها . فهوج ووالده من قبله ، يشعران بأن ترقيتهما فى صفوف كبار الإقطاعيين التابعين للملك، تعود إلى فضل بلدوين الثانى . وانطلقت إشاعة عن وجود علاقة غرامية بين الملكة ميليزند وهوج ، وفسرت وجود الصراع الخطير بين الملك والكونت هوج ، بسبب غيرة الملك فولك . وكرر وليم الصورى ذكر تلك الإشاعات ، وقال أيضا أنه لا يعرف السبب الحقيقى للنزاع . وحاول فولك التخلص من هوج عن طريق تقديمه للمحاكمة أمام المجلس الإقطاعى الملكى. لذلك قام والتر Walter، حاكم قيسارية ، بتوجيه اتهام الخيانة العظمى لهوج . وفشل هوج فى إثبات براءته ، ونتيجة لذلك كان لا بد وأن يحكم عليه بالعقاب المناسب لجريمته – وكان العقاب مصادرة كل إقطاعاته ، وانتزاعها من قبضته . ثم رجع هوج إلى يافا مدينته المحصنة ، وذهب بعيداً جداً لجلب قوات مصرية لمساعدته من مدينة عسقلان . وفى ذلك الحين ، ارتكب هوج خيانة عظمى شديدة الوضوح جعلت أتباعه الإقطاعيين ينقلبون عليه . ولم يعد أمام هوج خيار سوى أن يعلن استسلامه، بعد أن أصبح فى وضع يستحيل فيه الدفاع عن نفسه . وقد تم نفى هوج لمدة ثلاث سنوات ، مع التوكيد على أنه يسوف يسترد إقطاعاته ، بعد قضاء فترة النفى . غير أنه أصيب بجرح

خطير قبل أن يترك المملكة حيث كان ضحية لمحاولة اغتيال ، واعتبر الرأى العام الملك مسئولاً عن ذلك . وشفى هوج من جرحه ، إلا أنه مات فى المنفى .

أغفل المؤرخون السابقون مظاهر كثيرة لهذا التمرد. إذ من الواضح أن هوج كان يحظى بتأييد قسم كبير من النبلاء . ويبدو أن أتباعه الإقطاعيين كانوا مقتنعين أن قضيته كانت عادلة ، لأنهم وقفوا بجانبه ، إلى أن ارتكب غلطته الشنيعة ، بتحالفه مع المسلمين . وكان العقاب ، الأخير متساهلاً على غير العادة – وفى الحقيقة كان أكثر تساهلاً عن الحكم الصادر ضده من قبل ، برغم أن جريمته كانت أكثر شناعة فى الوقت نفسه. وهذا التساهل كان نتيجة للوساطة التى بذلها أصحاب السلطة والنفوذ من الشخصيات التى شعرت بأن بقاء المملكة ذاتها ، كان فى مهب الريح ، وهم الذين ذكروا بما قاله متى ١٥ : ١٢ بما يؤيد حجتهم " إن كل مملكة تنقسم على نفسها بحكم الخلاف فى الرأى تنتهى إلى الخراب " . وعلى الرغم من أن هوج ، قد ذهب بعيداً جداً بكل وضوح ، للهروب من العقوبة تماماً ، فإنه ظل يحظى بالمؤيدين من بين رجال الدين ، والنبلاء ، الذين كانوا قادرين على إجبار فولك على أن يذعن للحكم الذى كان أقل شدة وقسوة من الحكم الذى أراده الملك . وأدت محاولة الاعتداء على حياة هوج ، إلى الاضطراب فى بيت المقدس، حيث أيدت الجماهير الكونت هوج . ومن الواضح أن الثورة كانت مرتبطة بالمصالح السياسية للملكة ميليزند نظراً لأن غضبها ظل فى كامل شدته لعدة شهور، بعد أن تم القضاء على الثورة ذاتها .على أن حقيقة مقدرتها على تحمل البقاء فى حالة غضب شديد، يشير إلى أن علاقتها الغرامية المزعومة مع الكونت هوج ، لم تكن لب المشكلة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن غضبها المستمر ، كشف عن أن فولك كان المنتصر من الناحية الظاهرية فقط . وفى ذلك الحين اجتاز الزواج الملكى فترة أزمة خطيرة . وكان غضب الملكة شديداً لدرجة أنه كان من غير المأمون لهؤلاء النبلاء، الذين كانوا على مقربة من الملك ، الظهور علانية، أو حتى فولك نفسه كان يتنقل وهو خائف على حياته ، واللجوء للوساطة مرة ثانية ، وفى النهاية نجحت فى تهدئة غضب الملكة . بيد أن وليم الصورى ، قال أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، أصبح فولك – الذى وصفه بأنه محارب مقتدر– مفتوناً بزوجته حتى أنه لم يعد يفعل أمراً من الأمور العادية ،

دون موافقة زوجته . والآن لدينا المدخل لمعرفة المسألة كلها - وهى مسألة زعزعت بكل وضوح المملكة بقسوة أكثر مما ورد ذكره فى السجل التاريخى لوليم الصورى . ويبدو أن فولك كان قد بدأ عهده بمحاولة التصرف كحاكم مطلق ، وبذلك انتهك حقوق ميلزيند السياسية، وكذلك أثارعداوة جماعة من النبلاء، الذين تمنوا ضمان احترام آخر رغبات بلدوين الثانى. ولم تسمح هذه المجموعة لفولك أن يحكم بمفرده ، لأنه إذا ما حدث ذلك ، فمن الممكن أن يتخلص من سلالة بلدوين الثانى وتحل محلها أسرته. وفى التحليل الأخير ليس من المهم ما إذا كانت القيود الدستورية على وضع فولك تعود إلى ١١٢٨م، أم منذ التعيين فى منصب الملك ١١٣١م، أو حتى إذا ما كان قد تم إبلاغه الحقيقة فى ١١٢٨م ، نستطيع أن نكون متأكدين أنه بعد موت بلدوين الثانى، لابد وأنه قام بمحاولات لإثبات أن تفسيره لاتفاق ١١٢٨م ، قد كان مختلفاً تماماً ، ونعنى بذلك أن فهمه كان بمجرد زواجه من ميليزند سوف يحصل على كل حقوق خلافة العرش ، وأنه سوف يصبح الحاكم الأوحد. وانقسمت المملكة إلى معسكرين بعملية واحدة مفاجئة من هذه المسألة ، وكان من المحتم أن يدعى فولك أنه كان قد تم اختياره فى ١١٢٨م، مما جعل فى الواقع ، رغبات بلدوين الأخيرة موضع شك ، وكذلك المبدأ المضاف مؤخراً إلى خلافة العرش عن طريق النسب. ومع ذلك ، وجد فولك مؤيدين بين النبلاء، وأشار ذلك إلى أنه على الرغم من صدور قرار لصالح خلافة العرش عن طريق النسب فى ١١٢٨/١١٢٧م ، فإنه لم يكن متفق عليه بالاجماع ، ومن ثم ربما لم ينظر إليه على أنه قرار نهائى ، فيما يتعلق بالمبدأ المذكور .

ولم تكن الخلافات الشديدة ، حول الشكل الصحيح للحكومة ، أو الخلافات التى لابد وأنها قد أثارت المتاعب للمملكة ، لفترة من الوقت ، قبل النشوب العام لثورة هوج، هى الأمور الوحيدة ، التى كان على فولك الاهتمام بها. وللمرة الثانية كان على فولك أن يتجه شمالاً للتصدى للغزو الإسلامى الذى هدد أنطاكية . وكان من المهم أن الإمارة لها أمير خاص بها ، وفى ١١٣٣م ، أصدر قراراً لصالح ريموند من بواتيه Raymond of Poitiers (١١٣٦- ١١٤٩م) الذى كان فى الرابعة والثلاثين، وهو ابن الدوق وليم التاسع ، حاكم أكويتين Duke William IX of Aquitaine . غير أن ريموند لم يصل

أنطاكية إلا بعد ثلاث سنوات . وكان روجر الثانى حاكم صقلية يمت بصلة القرابة لأمراء أنطاكية ، لذلك اعتقد أنه له حق المطالبة بإرثهم ، وأجبر هذا ريموند على التنكر ، لكى يتمكن من الهروب من أبيوليا Apulia . وخلال تلك السنوات كان فولك مشغولاً بالكامل فى الجنوب ، ولذلك حاولت الأميرة العجوز المهيبة أليس Alice ، مرة ثانية ، الاستفادة من الموقف . ففى ١١٣٥م ، غادرت ممتلكاتها الزراعية فى اللاذقية ، وظهرت فى أنطاكية . ومن هذه الناحية ، دعمت أليس حكمها المتزعزع عن طريق التحالف مع رادولف من دومفرنت Radulph of Domfront ، الذى تم اختياره بطريقة غير قانونية (١١٣٥-١١٤٠م). ومثلما فعلت فى مناسبة سابقة ، فقد راودتها فكرة الإتصال بزنكى ، حاكم الموصل لحمايتها ، وفى ذلك الحين ، لم يكن لديها تردد ، حول عرض زواج ابنتها كونستانس Constance ، التى كانت فى التاسعة من عمرها إلى مانويل كومنينوس Manuel Comnenus ، الأمير البيزنطى ، برغم حقيقة أنها كانت بالفعل مخطوبة لريموند من بواتيه Raymond of Poitiers . واقتضت الخطة ضمنياً ، السيادة العليا البيزنطية ، وكان من المستحيل تنفيذها فى مواجهة المعارضة ، من قبل البارونات ، والبطريرك ، الذى لم يكن لديه النية فى التخلى عن منصبه ، إلى منافسه الأرثوذكسى اليونانى . وانضم رادولف إلى جانب ريموند ، وفى ١١٣٦م وبمجرد وصول ريموند ، تزوج رادولف من كونستانس . وفى المقابل هناك ، زعم بأن ريموند قد اعترف بالبطريرك كسيده الإقطاعى الأعلى ، وقد تم هزيمة أليس Alice ، عن طريق خدعة محكمة - حيث تم إقناعها بأن رادولف يعمل على زواجها من ريموند - لذلك تخلت عن حقها ، وانسحبت إلى اللاذقية ، حيث قضت باقى أيام عمرها . وعلى الفور أصبح ريمويند متورطاً فى حرب مع الأرمن فى قليقيا ، واستمرت تلك الحرب وقتاً طويلاً ، إلى أن أنهاها التدخل البيزنطى . ونتيجة لوصول ريموند ، حل النفوذ الفرنسى محل الوحدات العسكرية النورمانية على نحو حاسم .

وفى الوقت نفسه ، كان عماد الدين زنكى مستمراً فى الدعوة للجهاد باهتمام شديد ، منذ توليه السلطة فى الموصل وحلب ، وفى الحقيقة كانت إمارة دمشق المسلمة هدفه الأساسى لطموحه . والواقع أن المؤرخ براور Prawer ، يرى أن المؤرخين الذين

عاشوا فى الموصل ، كتبوا بعد وفاة زنكى ، هم الذين استخدموا مفهوم الجهاد على نحو استعارى ، على فترة النضال من أجل السيطرة على حلب . أما المؤرخون من أهل دمشق ، فقد كانوا أكثر تحفظاً من ناحية الفهم والإدراك، ولم يمجدوا عماد الدين زنكى ، كزعيم للجهاد إلا بعد تحريره للرها ١١٤٤م . وفشلت محاولات عماد الدين زنكى الأولى فى السيطرة على دمشق فى ١١٣٠م ، و١١٣٥م ، وكان على صلة فى أغلب الأحوال بالنزاع المستمر حول خلافة العرش ، بعد وفاة السلطان محمود فى ١١٣١م . وفى ١١٣٤م ، كانت دمشق قادرة على شن هجوم على الجليل، ووجد الملك فولك نفسه فى وضع حرج ، من أجل المحافظة على مركزه ووضعه . وبعد ثلاث سنوات هاجم أهالى دمشق ، كونتية طرابلس . وفى المقاومة التى تلت ذلك التاريخ ، مات الكونت بونز Count Pons ، قتيلا ، وخلفه ابنه ريموند الثانى (١١٣٧ـ١١٥٢م) . ولم تكن تلك السياسة النضالية لدمشق وفقاً لما يرضاه عماد الدين زنكى على الإطلاق ، لذلك تحرك من العراق إلى سوريا . وبإيجاز فإن حصار عماد الدين زنكى لمدينة حمص ، الذى لم يكلل بالنجاح ، حذر دمشق بأنه جاد فى عزمه ونواياه، على الرغم من أنه كان عليه أن يعقد هدنة عندما اقترب جيش فرنجى . وبدلاً من حمص ، حاصر زنكى فى ذلك الحين الفرنجة فى قلعة بعرين Mountferrand(Barin) ، فى وادى أعالى نهر العاص ، وقاد فولك جيشه لإنقاذ بعرين من الحصار ، بيد أنه منى بالهزيمة فى المعركة ، واضطر إلى اللجوء للقلعة للإحتماء بها حيث أصبح محاصراً فيها . وفى يوليو ١١٣٧م توصل كل من عماد الدين زنكى وفولك إلى تفاهم. واستسلمت بعرين للمسلمين ، وسمح المسلمون للفرنجة بالخروج منها سالمين . وعند التوصل إلى تلك الشروط لم يكن فولك على علم بأن الفرق العسكرية المتحدة فى بيت المقدس ، والرها ، وأنطاكية ، كانت تتقدم لإنقاذه من الحصار، هذا فى الوقت الذى كان فيه عماد الدين زنكى من ناحيته على علم بأن الإمبراطور البيزنطى حنا الثانى كومينين John II Commenus، فى طريقه إلى سوريا، وخشى عماد الدين زنكى من احتمال محاصرة الإمبراطور لمدينة حلب . وما أن عالج

عماد الدين زنكى التدخل الفرنجي ، حتى وجه اهتمامه صوب حمص مرة ثانية . وفـــى ذلك الحين كان عماد الدين مندهشاً لأنباء الهجوم البيزنطى فى ربيع ١١٣٨م .

وكان الإمبراطور حنا الثانى (١١١٨-١١٤٣م) مجبراً على عدم إعطـــاء الشـــئون السورية الاهتمام الكافى وذلك فى بداية عهده. إذ كان عليه تحمل مسئولية حرب أخرى: ضد البندقية ، والبقشاق ، وبنى دانشمند فى شرق الأناضول . ولم يجد وقتاً للتدخل قبـــل سنة ١١٣٧م . وكان الهدف الرئيسى للإمبراطور حنا الثانى ، استعادة السلطة البيزنطيـــة على أنطاكية ، وشمال سوريا ، بيد أنه كان يريد مساعدة الفرنجـــة أيضـــاً ضـــد القـــوة المزعجة لعماد الدين زنكى . إن التناقض الواضح لتلك الدوافع يمكن تفسيره بحقيقة أنـــه إذا أرادت بيزنطة تحقيق إدعاءاتها النظرية فى شمال سوريا عليهـــا أن تبســـط أجنحـــة الحماية فوق كل الإمارات الصليبية. وليس فى استطاعة بيزنطة القضاء عليهـــا ، وإنمـــا كان فى استطاعة بيزنطة تحويل تلك الإمارات إلى مستوى إمارات تابعة إقطاعية كحـــد أقصى. وبالإضافة إلى ذلك فباعتبار الإمبراطور البيزنطى رئيساً للكنيسة الأرثوذكســـية ، فإن واجبه يحتم عليه حماية المؤمنين المشاركين له فى المذهـــب مـــن أخطـــار الســـيادة الإسلامية – على الرغم من أن الأحوال بالنسبة إليهم فى الواقع كانت أحياناً أسوأ تحـــت حكم اللاتين ، مما كانوا عليه تحت حكم المسلمين ، باعتبارهم أهل ذمة ، فقد كان يســـمح لهم بالتمتع بوضع الأقلية التى تحت الحماية . ومما لا شك فيـــه فـــإن رجـــال الكنيســـة الأرثوذكسية كانوا يفضلون أن يحكمهم اللاتين بدلاً من أن يحكمهم المسلمون .

وتحول زحف الإمبراطور حنا الثانى كومنين (١١١٨ - ١١٤٣م) إلـــى موكـــب انتصار ، وفى نهاية أغسطس ١١٣٧م ، وقف الإمبراطور حنـــا الثـــانى أمـــام أســـوار أنطاكية. وبعد عدة أيام استسلمت أنطاكية . ولم يكن الملك مستعداً لمساعدة ريموند حاكم أنطاكية ضد بيزنطة . وعلى الرغم من أن قدوم الإمبراطور البيزنطى إلى أنطاكية خلـــق مشاكل سياسية له أيضاً ، فإن فولك كان ذكياً ، لإدراكه أن هذا العمل كان ضد مصـــالح عماد الدين زنكى . ومن ثم أعلن فولك موافقته على الشروط التى كـــان علـــى ريمونـــد قبولها رغم أنفه . وقدم ريموند أمير أنطاكية فروض الولاء الإقطـــاعى للإمـــبراطور ،

ورفرف العلم الإمبراطورى فوق قلعة أنطاكية. وفى مقابل ذلك ، أحجم الإمبراطور حنا الثانى عن دخول المدينة فى تلك اللحظة. وبرغم ذلك فقد أجبر الإمبراطور البيزنطى ريموند حاكم أنطاكية على التعهد بأن تكون أنطاكية من نصيب الإمبراطور، فى حالة استطاعة الإمبراطور حنا الثانى الاستيلاء على حلب ، وشيرز ، وحمص وتكوين إمارة تضم تلك المدن تحت حكم ريموند . وكان هذا الاتفاق مبنياًعلى اتفاقية ديفول Devol لسنة ١١٠٨م . وقضى الإمبراطور حنا الثانى كومنين الشتاء التالى (١١٣٧م) فى قليقيا . ثم شن هجوماً على عماد الدين زنكى ، فى مارس ١١٣٨ م ، بمساعدة أنطاكية والرها . غير أن الهجوم المفاجئ الذى شنه على حلب فشل ، وعندما تحرك الإمبراطور حنا الثانى لمحاصرة شيزر ، وهى المدينة التى تتحكم فى منتصف نهر العاصى ، رفض الفرنجة تقديم العون المناسب له. وخافوا من أنه إذا سقطت شيزر، فسيكون عليهم التفكير بجدية فى تنفيذ شروط معاهدة العام الماضى ، ورجع الإمبراطور حنا الثانى ، وعليه إمارات الغضب ، وفى هذه المرة ، أقام الإمبراطور احتفالاً رسمياً بدخوله مدينة أنطاكية . غير أنه قبل أن يصل الجيش الإمبراطورى الرئيسى إلى أنطاكية ، دبر جوسلين الثانى حاكم الرها ، حالة شغب بمدينة أنطاكية ، أجبرت الإمبراطور حنا الثانى على الرحيل .

وقضى الإمبراطور حنا الثانى السنوات القلائل التالية فى الأناضول ، وهو مشغول تماماً بمحاربة بنى دانشمند. وقضى ريموند أمير أنطاكية الوقت فى تآمر ، وفى النهاية خلّص نفسه بنجاح من البطريرك رادولف الطموح. وفى الوقت نفسه ، كان عماد الدين زنكى ، قد عاد إلى مهمته ، التى لم يكن قد أتمها مع دمشق . وفى ١١٣٩م حاصرعماد الدين زنكى دمشق حتى أن حاكم دمشق كان مضطراً للجوء لطلب المساعدة من بيت المقدس . ولم يكن لدى فولك والبارونات تردد فى التوصل إلى تحالف . والواقع أن التحالف كان محل قبول وارتياح حتى بين المواطنين فى دمشق الذين كانوا قد تعلموا كيف يخافون من عماد الدين زنكى الفاتح المتوحش والمتحجر القلب ، والذى وجد أن الهجوم على حوران المنطقة الزراعية التى تزود دمشق ، سوف يقلل من الهم والغم ، نتيجة للتحالف مع الفرنجة. ولهذا السبب ساعدت دمشق الفرنجة على احتلال بانياس فى ١١٣٩م ، وهى مدينة تسيطر على الطريق من الجليل إلى دمشق ، ومنها يمكن أن يهدد

عماد الدين زنكى كلاً من دمشق وبيت المقدس لو أنه سيطر عليها . وكان عماد الدين زنكى مجبراً على التراجع ، وتمكن من تشديد قبضته الكاملة على العراق فى السنوات الخمس التالية . وخلال هذه السنوات ظل التحالف بين بيت المقدس ودمشق قائماً ، واستعمل فولك كل مهارته الدبلوماسية لمنع تصعيد المناوشات على الحدود المحلية . وأثناء فترة الاستراحة هذه ، قام فولك بتجميع خيوط سياسة تقوية الدفاعات للحدود الجنوبية مرة ثانية ، والتى كان قد بدأها بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م) . ومثلما بناه بلدوين الأول من قلاع لمحاصرة صور فى ١١١٧م، شيد أيضاً الملك فولك فى الفترة ما بين ١١٣٦-١١٤٢م حلقة من القلاع حول عسقلان، وبينا، وتل الصافية، وبيت جيرين. ووجد المصريون صعوبة فى مهاجمة المملكة بسبب تلك الحلقة من القلاع وبالإضافة إلى ذلك فإن الحماية التى وفرتها تلك القلاع سمحت بزراعة الأراضى ، واستقرار المزارعين الفرنجة ، واستثمار الإقليم بتركيز أكثر تماما. وقد تم منح تلك القلاع للفرسان الأسبتارية، وإلى الأتباع الإقطاعيين المخلصين. وتحولت تلك القلاع إلى مراكز لمقاطعات مهمة ، وأسرات حاكمة قوية ، ولا سيما أسرة يبنا الشهيرة ، وهى واحدة من أشهر الأسر المعروفة فى المشرق الإسلامى ، التى ازدادت شهرتها حقيقةً ، عندما تم تعيين بليان العجوز Balian the Old ، آمراً على قلعة يبنا. ومنذ ذلك الحين ، وحتى سقوط المملكة ، وثم فى قبرص ، كانت أسرة يبنا Ibelins – وهى أسرة من المحتمل أن أصولها موجودة فى إيطاليا أكثر من فرنسا – كانت على الدوام قريبة من وسط مسرح الحوادث التاريخية. وفى شرق الأردن مارس بيجن الساقى Pagan the Butler ، سياسة مماثلة ، بموافقة الملك . فقام بيجن بتشجيع الزراعة ، بالإضافة إلى ذلك عمل على حماية الطريق التجارى بين البحر الميت والبحر الأحمر ، وذلك ببناء قلعة ضخمة عند مؤاب Moab ، والمعروفة باسم الكرك ، أو صخرة الصحراء ، وفى ذلك الحين سيطر حاكم شرق الأردن على البدو رعاة الأغنام، وعلى أحواض استخراج الملح من البحر الميت . وأصبح حاكم شرق الأردن ضمن المرتبة السامية لكبار البارونات. وإلى الشمال حصن كوكب (أقيم سنة ١١٤٠م)، وكان يحمى طريق وادى الأردن، وجسر اليهود ، وحصن صفد (أقيم سنة ١١٠٢م) ، وتم ترميمه (حوالى ١١٤٠م) ، وكان يسيطر على الطريق

بين عكا ودمشق ، ومخاضة يعقوب عبر الأردن ، وتبنين (حوالى ١١٠٥م) ، والصبيبة (حوالى ١١٣٠م) ، ويسيطر على الطريق بين صور ودمشق ، وشقيف أرنون (تم احتلاله فى ١١٣٩م) ، ويسيطر على وادى الأسود ، والممرات إلى صيدا، وحصن الأكراد (١١٤٢م)، وهو أقوى حصون الفرسان الأسبتارية، وكان يحمى الجانب الشمالى الشرقى من طرابلس . وفى الوقت الذى بنى فيه الملك فولك القلاع ، أنشأت زوجته ميليزند عدة أديرة ، ولا سيما دير الراهبات الشهير فى بيسان ، الذى أغدقت عليه بسخاء كل دخل مدينة أريحا ، حتى يكون على أحسن نمط ، من أجل أختها جوفيتا Joveta .

وفى ١١٤٢م زحف الإمبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين مرة ثانية عبر الأناضول وقيليقيا متوجهاً إلى سوريا . ورفض حاكم أنطاكية أن يكرر خضوعه الذى حدث ١١٣٧م ، مستتراً خلف العداء المتأصل تماماً ، فى نفوس أتباعه الإقطاعيين لادعاءات بيزنطة. ولم يكن الوقت قد حان بعد للحرب ، لذلك عاد حنا الثانى إلى مسكنه الشتوى فى قيليقيا . وهناك أعد حنا الثانى الخطط التى أوحت بأنه كان ينوى استعادة النفوذ البيزنطى على فلسطين ، بالرغم من أنها صارت من نصيب العرب منذ ٦٣٨م . وكان فولك قادراً على إقناع حنا الثانى على إرجاء " رحلة الحج " المسلح إلى بيت المقدس وذلك بفضل قدرة فولك الدبلوماسية البارعة . غير أن حادث صيد مفاجئ أنقذ أنطاكية، إذ أصيب حنا بجروح فى ذلك الحادث ، ومات متأثراً بها فى أبريل ١١٧٣م ، قبل الموعد المحدد لغزو سوريا للمرة الثانية. وبعد ذلك بعدة أشهر ، مات فولك فى حادث صيد (١٠ نوفمبر ١١٤٣م) . وكان فولك يحكم بمقتضى زواجه من ميليزيند ، ونظراً لأن ابنهما الأكبر ، بلدوين ، كان فى الثالثة عشرة من عمره فقط ، فإن ميليزند اضطلعت بممارسة السلطة. وللمرة الأولى لم نسمح عن انتخاب . وكما توضح العبارات المحددة لوليم الصورى ، فإن ميليزند حكمت بناءاً على الحق الوراثى. وشعر البارونات بعدم الارتياح ، لأن امرأةً صارت تحكمهم ، وكانوا قادرين على التأكيد على تتويج بلدوين الصبى معها ، بيد أنه لم يكن له أى نفوذ طوال الوقت .

وقد أتيحت فرصة طيبة للغاية لعماد الدين زنكى ، إلى الحـد الـذى لا يمكـن أن يضيعها ، إذ كان الإمبراطور البيزنطى فى عداد الموتى ، كما أن ميليزند وابنها الصبـى لم يكونا فى وضع يسمح لهما بالتدخل فى شئون سوريا الشمالية ، لذلك قام بفتح كونتيـة الرهـا . ولم يتم الدفاع عن المدينة على نحو كافٍ ، كما أن جوسلين الثانى كـان غـير قادر على التقدم لنجدتها . وعشية عيد الميلاد (٢٤ ديسمبر ١١٤٤م) اقتحم عماد الديـن زنكى مدينة الرها ، بعد حصار دام أربعة أسابيع. وكما أكد براور Prawer بإنصـاف ، فلم تسقط الرها بسهولة جداً لمجرد بسبب الشخصية الضعيفة لحاكمها . وكانت الأحـوال الاقتصادية والديموجرافية فى إمارة الرها مهمة أيضاً . فالنسب العالية للسوريين والأرمن ضمن السكان كانت تعنى حتماً أن هذين العنصرين ممثلان فى الجيش. غير أن الجنـود السوريين كانوا دون مستوى الكفاية ، وبالإضافة إلى ذلك ، عانى الفريقان من التدهـور فى الحالة الاقتصادية ، نتيجة للغارات التركية المتكررة علـى هـذه القـاعدة الأماميـة الصليبية . ومن ثم فليس من الصعب إدراك لماذا فشلت الرها فى مقاومة الحصار لفـترة طويلة من الزمن .

ومن عاصمة جديدة فى تل باشر ، نجح جوسلين فى الاحتفاظ بخط نهـر الفـرات حتى ١١٥٠م . غير أن جوسلين وقع أسيراً ومات فى الأسر ١١٥٩م . ونظـراً لإدراك أرملة جوسلين بوضعها الذى لم يعد هناك أمل فيه ، لذلك باعت المواقع المحصنة الستة ، التى كانت تحت سيطرتها بين نهرى العاصى والفرات إلى بيزنطة ، بيد أن الإمبراطورية البيزنطية ، لم تستطع الاحتفاظ بها أكثر من سنة واحدة . إن أول إمارة صليبيـة أقامهـا الصليبيون ، كانت أول إمارة قدر لها الزوال . وفى ذلك الحين خسرت أنطاكية دفاعهـا الخارجى من الناحية الشمالية الشرقية . ومع ذلك لم يعش عماد الدين زنكى ليشهد تلـك الانتصارات العسكرية الأخيرة . فقد تم اغتياله فى ١١٤٦م ، وخلفه فى الموصـل ابنـه الأكبر سيف الدين غازى ، وفى حلب تولى السلطة هناك ابنه الثانى نور الدين محمـود زنكى (١١٤٦-١١٧٤م) . وقد أكـد نور الدين هذا على أن وفـاة والـده لـم تجلـب الراحة للفرنجـة .

٥ - الحملة الصليبية الثانية ١١٤٥ - ١١٤٩ م.

أحدث نبأ سقوط الرها ضجة كبرى فى الغرب ، بيد أنه برغم حزن الناس لهذا النبأ ، فلم يدفعهم بقوة للقيام بحملة صليبية عفوية على الفور . (٣٥) ووصلت سفارة فرنجية إلى الإدارة البابوية فى فيتربو Viterbo تحت قيادة الأسقف هوج من جبلة Hugh of Gabala ، وذلك بعد ارتقاء إيوجينيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٣٥م) العرش البابوى بوقت قصير. وبعد ذلك بقليل ظهر وفد أرمنى مفرض . وأنصت البابا إيوجينيوس إلى مطالبهم بتقبل واهتمام ، وفى الأول من ديسمبر ١١٤٥م، أصدر المرسوم البابوى الأول ، الخاص بالمشاركة فى حملة صليبية. غير أن هذا الأمر لم يلق أى استجابة على الإطلاق فى بداية الأمر . وعلى الرغم من أن الأمر البابوى كان فى الواقع موجهاً لملك فرنسا والأمراء بها ، فليس هناك دليل على أنه قد تم إعلانه بفرنسا بعد. ومع ذلك فقد تعارضت خطة إيوجينيوس مع بعض الأفكار التى كونها الملك لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠م) بنفسه ، على الرغم من أنه ليس واضحاً إذا ما كان لويس كان يعلم بالأمر البابوى أم لا ، عندما صاغ تلك الأفكار. وعلى أية حال ، لم تكن تلك الأفكار مقبولة من الكنيسة. وعقد الملك لويس السابع اجتماعاً رسمياً فى عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر ١١٤٥م) فى مدينة بورج Bourges ، وهناك أعلن أنه يعتزم قيادة حملة إلى المشرق . ونسب المعاصرون له بواعث متعددة . وعلى الأرجح كان لويس السابع يفكر فى حدود مجرد زيارة للأماكن المقدسة فى حج مسلح فرنسى ، ولم تكن الزيارة المسلحة على نمط حملة ١٠٩٥م ، وإن كانت على استعداد لتقديم بعض المساعدة إلى الأراضى المقدسة . وهكذا بعد وصف الحالة السيئة للإمارات الصليبية ، ناشد الأسقف جودفرى من لانجر Godfrey of Langres ، النبلاء الحرب فى سبيل الله، بجانب ملكهم، ولم يكن يذكر شيئاً عن البابا ، أو عن الغفران الكنسى الخاص بالمشاركة فى الحرب الصليبية Indulgenc ، أو حتى عن الأمر البابوى ، وذلك فى مدينة بورج. ولقيت الدعوة

استجابة فاترة، إذ لم يكن النبلاء مهتمين تماماً. وعندما عارض المستشار الأول للملك الفرنسي، الأب سوجر من سانت دنيس Abbot Suger of St. Denis ، بكل شجاعة ووضوح ، لم يعد هناك خيار للويس السابع ، سوى إرجاء الفصل فى المسألة ، وحتى عيد فصح ١١٤٦م، وفى الوقت نفسه عرض القضية على الأب برنارد من كليرفو Abbot Bernard of Clairvaux .

ولا ريب أن برنارد (١١١٥ - ١١٥٣م) ، كان فى ذلك الحين أبرز الشخصيات شهرة فى الحياة الفكرية ، والسياسية فى الغرب . إنه هو الذى منح النظام الديرى السسترشيانى الجديد the new Cistercian order ، قوة دافعة، والذى كان يهدف إلى نظام أكثر التزاماً ، بين أعضائه ، وفقا للنظام الديرى البندكتى Bendictine Rule . وكان برنارد أحد السياسيين الكنسيين المرموقين، منذ أن أنهى كفاحه المتواصل الخلاف the schism ، بين إينوسنت الثانى Innocent II ، وأنا كليت الثانى Anacletus II . ومن ناحية مسألة الحروب الصليبية ، فكانت نصيحته محل تقدير وقبول ، كما لو كان "حكماً موثوقاً به ومقدس" مثلما عبر بذلك أحد كتاب الحوليات . وعلى الأرجح كان برنارد مدركاً تماماً ، أن الاختلاف الخطير بين خطة الملك ، ورغبات البابا ، أوجد مشكلة سياسية - ومشكلة قدر لها أن تلعب دوراً كبيراً فى تاريخ الحملات الصليبية التالية . وحتى إذا كان الملك لويس السابع ، قد أعد خطة زيارة للأراضى المقدسة مسلحة ، فإن هذا من المحتم يمكن اعتباره حملة صليبية ، على ضوء أمر البابا بالمشاركة فى حملة صليبية، والذى مع ذلك كان قد تم إصداره منذ وقت قبل عزم الملك الفرنسى على الذهاب إلى الأراضى المقدسة . وإذا كانت الحكومة الفرنسية، قد حاولت إثبات أن الأمر البابوى ، لم يعرض على بساط البحث فى بورج Bourges ، وأن الملك تصرف وفقا لمبادرة تلقائية ، فإن هذا قد أوجد الرأى القائل بأن الملك استطاع الدعوة لحملة صليبية وإنجازها ، دون الاعتماد على الكنيسة . ولهذا السبب فإن إلى أى مدى كان لأمر البابا تأثير على اجتماع بورج Bourges ، قد تمت مناقشته بحدة فى القرن الماضى - وغالبا ما تمت المناقشة فى عبارات جدلية ومنطوية على مفارقات عادية بالنسبة للقرن التاسع عشر أو الشعور الدينى. ولم تتح المصادر إجابة واضحة تماما ، بالرغم من أنه

ربما من الأكثر احتمالا ، أن الأمر البابوى لم يكن قد علمه الملك ، أو حتى برنارد مـــن كليرفو. والشيء الأكيد الوحيد ، هو أن الأمر البابوى ، صدر فى أول ديســمبر ١١٤٥م. وقد أثبتت أبحـــاث إريخ كاسبار Erich Caspar ذلك بعد أن أنكر بعناد هـــؤلاء الذيــن أرادوا أن ينسـبوا الفضـــل لمبادرة لـــويس الســـابع بالنســبة لبـــدء الحملة الصليبيـــة الثـــانية . (٣٦)

ومن المفهوم تماما أن رئيس دير كليرفو ، لم يكن ميالاً على الإطلاق إلى مســـاندة حملة بدت وكأنها بناء على دعوة ملك . إذ كان هذا يعنـــى أن الســيطرة علـــى الحملـــة الصليبية ، قد خرج من أيدى الكنيسة . وكان على البابوية أن تواجه لطمة كبرى لهيبتهـــا ومقامها ، إذا لم تستطع المحافظة على مكانتها كسيد أعلى لحركة المشاركة فى الحـــرب الصليبية . ولذلك حـــاول برنارد أن ينسب المبادرة إلى البابا. لذلك أعلن برنارد أنــــه لا يستطيع دراسة مسألة مهمة إلى هذا الحـــد ، بدون استشارة البابا أولاً. وكـــانت النتيجـــة سلســـلة من المفاوضات بين الإدارة البابوية والقصر الملكـــى الفرنســـى، منـــذ أوائـــل ١١٤٦م، والتى بلغت ذروتها بإعادة إصدار الأمر البابوى بالمشاركة فى حملـــة صليبيـــة (مع تعديل طفيف فى النص) ، وذلك فى أول مارس ١١٤٦م . وقدر لهـــذا النـــص فـــى أسلوبه ومحتواه، أن يكون نموذجا فيما بعد لكل الأوامر البابوية ، للمشاركة فـــى حملـــة صليبية . وانقسم الأمر البابوى للمشـــاركة فى حملة صليبية إلى ثلاثة أجـــزاء: ســـجل الحوادث التاريخية ، والعظة ، والامتيازات (narratio, exhortatio , privilegia) ، وفى العبارات الافتتاحية يمكن ملاحظة ، تأكيد البابا على حقه فى قيادة الحملة الصليبية. وأكد بقوة على تراث الكنيسة ، محتكماً إلى السوابق التى وضعها أسلافه ، واصفاً الدور الـــذى لعبه أوربان الثانى ، فى وضع الحمـــلة الصليبية الأولى موضع التنفيذ . وفى تلك المسألة ورد ذكر سجل تاريخى مختصر عن الحملة الصليبية الأولى ، ووصف لسقوط الرهـــا ، الذى علله البابا كعقاب للذنب. وفى هذا الخصوص كان إيوجينيوس Eugenius قد ابتكـــر صيغة قدر لها أن تظهر مراراً وتكراراً فى كتاب الدعاة للمشاركة فى الحملات الصليبية وكتاب الحوليات. وفى العظة exhortatio ناشد البابا النبلاء وكبار الشخصيات باعتبـــارهم أبناء مخلصين فى الولاء، أن يدافعوا عن الأرض التى ظفر بها الآباء الشجعان. وأن البابا

يدعوهم كمسيحيين للحرب من أجل الكنيسة في الشرق، لينالوا غفران الخطايا ، ويعملــوا على تعزيز مكانة النصرانية فى العالم ، ويحافظوا على مكانتهم المرموقة فى الفروســية المنزهة عن كل النقائص والعيوب. ثم توجد قــائمة من الامتيازات يتصدرهــا الغفــران الكنسى المتعلق بالمشاركة فى حملة صليبية the cursading indulgence ، الذى ذهــب أبعد مما أقره قرار مجمع كليرمون ، وفقا للتفسير الشائع منذ ١٠٩٦م . وفى هذه النقطــة أشار أيوجينيوس بوضوح ، إلى الغفران الكنسى الذى منحه أوربان الثانى ، لكـــل مــن شارك فى الحملة الصليبية ، بيد أنه نظراً لأن أيوجينيوس نفسه كتب ، واعتمد على مــا ورد فى كتب الحوليات التاريخية، ولم يعتمد على وسائل سلفه، فإن هذا فى الحقيقــة ، لا يخبرنا كثيراً عن وجهة نظر أوربان نفســه . ولكن كتاب الحوليات كانوا قد ذهبوا أبعــد مما سمح به قرار مجمع كليرمون. وتم التأكيد على حماية الكنيســة لزوجــات وأطفــال وممتلكات كل المشاركين فى الحملة الصليبية. وتم منع الزى الذى كان يعبر عن التبذيــر والإسراف ، والذى كان شائعاً فى عهد الحملة الصليبية الأولى. كما تم إعفاء المشــاركين فى الحملة الصليبية الثانية من دفع فوائد عن الأموال التى كان عليهم اقتراضها . وهـــذا بالإضافة إلى توفير الوسائل التى نظمت رهن الأرض عند الكنيسة، كان يعنى أن معظــم العناصر الملحة لمشكلة تمويل الحملة الصليبية قد تم معالجتها .

وعهد أوجينيوس إلى برنارد ، دون غيره ، بمهمة الدعوة للحملة الصليبيــة شــمال الألب ، أما فى فرنسا ، فقد تم إعلان الأمر البابوى مرتبطاً بدعوة برنارد . ولـــم يفعــل إيجينيوس الثالث أكثر من إصدار أمر بابوى بقيام حملة صليبية فى إيطاليا فـــى أكتوبــر ١١٤٦م . إذ لم يكن قادراً على مغادرة إيطاليا بسبب الحالة فى روما . ثم أعلن أرنولـــد من بريشا الجمهورية بعد أن أجبر أوجينيوس على مغادرة روما . وكان عند أوجينيـــوس أمل فى أن يجد كونراد الثالث Conrad III (١١٣٨ - ١١٥٢م)، الملك الألمانى ، حليفاً يمكنه من دخول روما مرة ثانية، ومساعدته ضد طموحات روجر الثانى، ملك صقليـــة ، الذى كان قد نصب نفسه ملكاً (١١٣٠ - ١١٥٤م) ، بعد توحيده لكل الأراضى النورمانية فى إيطاليا. وهكذا ، فمن الطبيعى أن يأمل أوجينيوس أن يرى الدعوة للحملة الصليبيـــة ،

وقد امتدت إلى فرنسا ، وإيطاليا ، والبلاد التى قد شاركت فى الحملة الصليبية الأولـــى . لقد كان البابا أوجينيوس هو الباعث للحملة الصليبية الثانية ، أما فصـــاحة رئيس ديـــــر كليرفو ، فقد كانت نتيجة لهذا الباعث .

وفى بداية الأمر التزم برنارد بالخطة البابوية، فى إبعاد ألمانيا عن الحملة الصليبية. وبدأ برنارد دعوته للمشاركة فى حملة صليبية فى قصر فـــيزيلاى Vezelay، فـــى ٢١ مارس ١١٤٦م ، بعد أن تمت قراءة ، الأمر البابوى الخاص بالدعوة للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية، والذى صدر فى مارس ١١٤٦م. إن فصاحة " المعلم الذى يقطر لســـانه عسلاً Honey - Longued teacher " ، والذى ما زالت مؤلفاته الأدبيـــة فـــى إمكانهـــا إثارة مشاعر القارئ فى أيامنا هذه ، وكان لهذه الفصاحة تأثيرها المتوقع . وأعلن الملـــك وحشد من كبار النبلاء مشاركتهم فى الحملة الصليبية. وقرروا تخصيص عام للتمكن من إتمام استعداداتهم . واستغل لويس السابع هذا الوقت فى التفاوض مع البلاد التى كان ينوى المرور بأراضيها، وبصفة خاصة ألمانيا ، وبيزنطة. وربما قد حصل على قرض إجبارى من بعض الكنائس فى فرنسا ، لكى يغطى نفقاته ، مع أن الدليـــل على ذلك ليس مجبراً . وعلى أية حال ، فـــإن هذا كان أمراً مختلفاً تماماً ، عن ضريبة المشـــاركة فـــى حملـــة صليبية .

وفى الشهور التالية ، دعا برنارد للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية دون توقف. وإذا لم يتمكن من الظهور شخصياً، قام بإرسال مندوبين لتلاوة خطابات العظة للمشـــاركة فى الحملة الصليبية ، وكان يقوم بكتابة العناصر الأساسية لتلك الخطابـــات ، مـــا عـــدا العبارات التى كان من المسموح لرجال مكتبه ، تغييرها قليلاً لتناسب الظروف المحليـــة قبل القيام بتوزيعها . ولا يزال حوالى ١٢ خطاباً من تلك الخطابات موجودة حالياً. وكانت الرسالة التى تم إرسالها للشعب فى انجلترا مميزة جداً لأسلوب برنارد فى الدعوة للحملـــة الصليبية .ولا يوجـــد فى تلك الرسائل أفكار تتعلق بالإيمـــان بـــالبعث والحســـاب غـــير واضحة. وكانت الحملة الصليبية بالنسبة لبرنارد عملاً تكفيرياً بمعنى عقوبة ذاتية ينزلهـــا الآثم بنفسه ، وبخاصة بتوجيه من الكاهن تعبيراً عن التوبة a work of penance . كمـــا أن الغفران الكنسى الممنوح لكل من شارك فى حملة صليبية indulgence ، الذى كـــان

وسيلة لتحقيقة غاية فى يوم ما ، قد أصبح غايةً فى حد ذاته . ولا ريب أن الشرق يجب أن يتم تحريره من المسلمين the heathen ، وأن يتم تحرير أرواح الصليبيين من الخطيئة أيضاً . وكان عند برنارد نزعة مقلقة إلى افتراض أن معاصريه ، كانوا من الأشرار الذين فى حاجة إلى الندم والتوبة . ومن ثم أكد على فكرة المكافأة الروحية أكثر من أى شيء آخر .

غير أن كلمات برنارد نفسه صرّحت بما يجول بفكره بوضوح أكثر من أى تحليل . ولذلك ففى هذا الخصوص تم اقتباس بعض الفقرات النموذجية من خطابه إلى الشعب الإنجليزى ، باعتبارها نموذجاً لكل العظات الدينية الداعية للمشاركة فى الحملات الصليبية فيما بعد .

"حان الموعد الذى يؤمن به الجميع ، يوم الخلاص الفياض . فلقد رُجّت الأرض رجاً ، واهتزت هزاً ، لأن رب السماء the Lord of heaven ، بدأ يفقد أرضه – الأرض التى عاش عليها أكثر من ثلاثين عاما ، كإنسان بين البشر .. وفى هذه اللحظات، وبسبب خطايانا ، بدأ الأعداء الذين لا يحترمون الصليب فى الظهور هناك أيضا ، وتحدث سيوفهم الخراب والدمار فى أرض الميعاد .. وماذا أنتم فاعلون ، يارجال الشجاعة الأقوياء ؟ ما ذا أنتم فاعلون ، أيها المخلصون للصليب ؟ وهل سوف تسلمون أقدس المقدسات إلى الأشرار ؟ هل سوف تقدمون ما هو ثمين إلى من لا يدرك قيمته ؟ .. وماذا أعددناه، يا إخوانى ؟ ثم هل ذراع المسيح قصيرة لدرجة أنه أصبح عاجزاً عن تقديم الخلاص ، وفى حاجة أن يطلب منا ، نحن الضعفاء تماماً ، الدفاع عن ميراثه واستعادته ؟ ، أليس فى استطاعته إرسال أكثر من إثنى عشرة فرقة من الملائكة .. وبذلك يحرر أرضه ؟ وبالطبع ، لا ريب أنه فى استطاعته ذلك ، إذا ما أراد .. لكنى أقول لكم ، أن الله يمتحنكم ، إنه ينظر إلى أبناء البشر ليرى من الذى يدرك ، ويحزن على ما يحدث الآن على الأرض.. ثم انظروا قدرته على تنظيم خلاصكم ، وكونوا فى دهشة . أيها الخطاؤون انظروا إلى أعماق رحمته ، وثقوا فيه .. إن الله لا يعمل على إذلالكم ، وإنما يعمل على عزتكم . وليس سوى الكرم الإلهى العجيب والفريد عندما يعامل الله العلى القدير القتلة ، واللصوص ، والزناة ، والحانثين بقسمهم ، والمجرمين من كل

الأنواع ، كما لو كانوا رجال تقوى ، وجديرين بالدعوة إلى طاعته. لا تترددوا . إن اللــه صادق الوعد .. إن الله يتظاهر بأنه مدين لكى يفى الدين لمن يحملون السلاح من أجلــه، بغفران الخطايا وبالسعادة الأبدية .. وأقول مبارك ذلك الجــيل الذى أتيحت لـــه فرصـــة الغفران الكنسى الوافر البركات so rich an indulgence ، لكل من شارك فـــى الحملـــة الصليبية ، ومبارك لأنـــه على قـــيد الحياة ، فى هذه السنة الخاصة بفترة الغفران التـــى يحددها البابا كل ٢٥ سنة ، يمنح فيها الغفران لكل كاثوليكى يؤدى أعمالاً دينيـــة معينـــة (Jubillee) ، وهذه السنة محببة جداً إلى الله .. أيها المقاتل القوى ، يا رجل الحـــرب ، لك الآن قضية فى استطاعتك الدفاع عنها دون أن تعرض روحك للخطر ، فهى قضية لك أن تنعم بالتمجيد عند النصر ، والموت فى سبيلها هو الربح تماما ...

أم هل أنت رجل أعمال ذكى، رجل سريع القدرة على إدراك الفوائد فى هذا العالم ؟ إذا كنت كذلك ، ففى استطاعتى تقديم صفقة عظيمة لك. ولا تفوت هذه الفرصة . عليـــك بالالتحاق بالحملة الصليبية ، وضع شـــارة الصليب على ثيابك بما يفـــيد ذلك . وســـوف تحصل على الفور ، على غفران لكل الخطايا التى تعترف بها بقلب مملوء بالندم . ولـــن يكلفـــك الكثير للحصول عليه ، إذا تقلدت الصليب بتواضع ، فسوف تجـــد أنـــه مملكـــة السماء ."

واختتم برنارد الرسالة ببعض عبارات التحذيـــر . وأمـــر بـــألا يتعـــرض اليهـــود للتضطهاد. وفى رسائل أخرى نصح برنارد الرجال بعدم السفر على الفور ، مثلما فعـــل بطرس الناسك – حيث تعرض الذين اتبعوه إلى عواقب وخيمة . ويجب عليهم الانتظار ، ثم المسير فى نظام جيد . وكان برنارد ، رئيس دير الرهبان ، مدافعاً عن النظام الجيـــد للكنيسة ، وعن كل شئ موجود ، فى مكانه الصحيح وفقاً للنظام. واختلفت دعوة برنـــارد عن الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فى أنه لم يوجه كلامه إلى الناس كافة، وإنما إلـــى طبقات الفرسان ، دون غيرهم . واعتمد برنارد على مقدرتهم ، وحاول إيقـــاظ الاعتقـــاد فيهم بأنه قد وقع عليهم الاختيار ، على وجه التخصيص .

وقد سبّب رودلف Rudolf ، وهو راهب سسترشن a Cistercian Monk ، قلقاً شديداً لبرنارد ، نظراً لنشاطه غير المجاز . إذ قام هذا الراهب ، بالتنقل بين شمال فرنسا ، وأرض الراين ، على طريقة الدعاة الذين يؤمنون بالعصر الألفى السعيد الشعبيون the popular millenarian preachers ، إبان الحملة الصليبية الأولى . ولم يكن قد تسلم ما تم توزيعه من قرار منع الرهبان من الدعوة للحملة الصليبية ، ولذلك، كان مخالفاً لاحتكار الدعوة على الكهنة المدنيين . وبالإضافة إلى ذلك ، كان الراهب رودلف ، قد أصاب المكانة الممتازة لبرنارد بالأذى ، نظراً لأن مواعظ رئيس دير الرهبان (برنارد) لم تتضمن تعبيرات عن طبيعة الإيمان بالبعث والحساب . والأسوأ من أى شيء آخر ، حقيقة أن سكان مدن بلاد الراين Rhineland ، قد تم تحريضهم للمرة الثانية على قتل اليهود بوحشية على نحوٍ جماعى . وكان على برنارد الذهاب إلى إقليم الراين، بناءاً على طلب رئيس أساقفة ماينتس * Maints، ليضع أنشطة رودلف تحت المراقبة . وتعامل برنارد مع الراهب بقسوة ، ثم قرر البقاء فى ألمانيا ، بعد رحيل رودلف عنها . ولم يعد من الممكن ترك الألمان بعيدين عن الحملة الصليبية ، نظراً لأن رودلف كان قد ملأهم تماماً بالتحمس لها . وذهب برنارد أبعد مما كان يتصور ، فى بداية الأمر ، كما تبرهن خطاباته إلى الإنجليز والأسبان أيضاً . غير أنه إذا أريد لحملة صليبية ألمانية أى نجاح ، فلا بد أن يدعمها الملك كونراد الثالث Conrad III ، والتقى برنارد بالملك فى اجتماع بفرانكفورت ، فى نوفمبر ١١٤٦م . وتحمل كونراد دعوة برنارد ، غير أنه لم يوافق على اجتماع آخر فى سبير Speyer ، فى عيد الميلاد at Christmas . وشعر برنارد بأن مقاومة الملك كانت تضعف ، ولذلك زاد من ضغطه عليه بكل عناد . وفى موعظةٍ رائعة ، والتى احتفظت بقوتها حتى عن طريق كلمات المترجم ، تمكن برنارد من وضع كونراد فى درجة تصور نفسه فى يوم الحساب ، واقفاً أمام المسيح. ثم سأل برنارد الملك كونراد الثالث ، كما سأل المسيح ، "أيها الإنسان، ماذا يجب أن أفعله

★ ماينتس : مدينة فى غرب ألمانيا على نهر الراين ، وهى عاصمة إقليم الراين . (الشاعر) .

لك ولم أفعله ؟ " وكان هذا الهجوم على مشاعر كونراد ، أقوى من أن يتصدى له . فأعلن انضمامه للحملة الصليبية ، وحذى حذوه عدد كبير من النبلاء، وعلى رأسهم ابن أخيه الدوق فريدريك حاكم سويبيا Swabia. وبذلك تمت استمالة ألمانيا إلى جانب الحملة الصليبية. وجعلت التسوية للعداء الضار الطويل بين كونت نامور Namur ، ورئيس أساقفة ترير Trier ، قرار الملك أكثر سهولة. وكان إنهاء هذا العداء أحد أهداف برنارد فى الذهاب إلى ألمانيا . وفى عشية عيد الميلاد (٢٤ ديسمبر ١١٤٦م) ، كان الدوق ويلف السادس Duke Welf VI ، عدو كونراد القديم ، قد أعلن انضمامه إلى الحملة الصليبية ، على الرغم أنه من غير المحتمل أن يكون الملك كان لديه وقت ليسمع هذا الخبر قبل أن يتخذ قراره الشخصى . وتم إرسال خطاب إلى أهالى بافاريا Bavaria ، يدعوهم للمشاركة فى الحملة الصليبية ، وذلك بعد انقضاء المؤتمر الملكى فى سبير Speyer . وفى فبراير ١١٤٧م ، تم عقد اجتماع فى مدينة ريجنزبورج Regensburg ، حضره كثير من البافاريين ، ومنهم أوتو أسقف فريزنج Bishop of Freising ، الذى قدر له أن يكون أحد كتاب الحوليات ، للحملة الصليبية الثانية ، حيث استجاب للدعوة .

وفى الشهر التالى (مارس ١١٤٧م) ، قرر الملك كونراد فى اجتماع آخر فى فرانكفورت ، اتخاذ الطريق البرى عبر بيزنطة وآسيا الصغرى . وكان هذا الطريق موضع احترام وتبجيل وفقاً للتحدار ، وقد سلكه جودفرى دى بوايون . ويبدو أن هذا الطريق كان مناسباً لكونراد بصفة خاصة ، لأنه كان قد عقد تحالفاً مع بيزنطة تقرر بصفة نهائية بزواج الإمبراطور مانويل الأول كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) ، من برثا Bertha أخت زوجة كونراد الثالث . وبالإضافة إلى ذلك فقد حقق مانويل الأول نجاحاً عسكرياً كبيراً ، ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى، وأشار هذا إلى أنه سوف لا يكون هناك تكرار لكوارث ١١٠١م . وكان الفرنسيون قد قرروا فى الشهر السابق (فبراير ١١٤٧م) ، استخدام الطريق البرى برغم الجهود التى بذلها حليفهم روجر الثانى ، حاكم صقلية Roger II ، لإقناعهم بالسفر بحراً من إيطاليا . وكان روجر قد أشار إلى أنه ربما يلحقهم فى الحملة الصليبية فيما بعد ، بيد أن لويس السابع ، أدرك فى الحقيقة ، أن ملك صقلية ، كان يأمل الحصول على مساعدة فرنسا ، فى سياسته المعادية لبيزنطة ، والتى

كان يمارسها . وبرغم ما حدث ، فكان حماس مانويل الأول قليلاً بالنسبة لما تم اتخاذه من إجراءات ، ومن وجهة نظر مانويل الأول، كان المقصود من التحالف مع كونراد بصفة رئيسية أن يظل روجر الثانى فى وضع حرج يضطر معه للدفاع عن نفسه بضراوة . وفى ذلك الحين كان ذلك مستحيلاً. ونظراً لأن الفرنسيين كانوا حلفاء روجر ، فقد بدى لليونانيين أن حقيقة أن الألمان والفرنسيين يسلكون طريق الزحف نفسه ، عبر البلقان ، يمكن أن يعنى أن كونراد ، قد غير ما تم الاتفاق عليه بينه وبين اليونانيين من قبل من تحالف . وبالطبع لم يكن البابا مملوءاً بالابتهاج عند علمه بقرار كونراد . فلقد كان معتمداً على مساعدته فى إيطاليا . غير أنه ما أن أصبحت الحملة الصليبية مشروع أوربى عام ، فلن يستطيع شئ إيقافه ، أو منعه على الإطلاق . ومع ذلك فإن موقف ألمانيا الضمنى كان يعنى منذ البداية أن الحملة الصليبية كانت مثقلة بالمشاكل التى أوضحت إلى حد ما نفاذ البصيرة السياسية عند برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux .

وعندما أعلن أمراء سكسونيا فى اجتماع فرانكفورت فى مارس ١١٤٧م، تفضيلهم القيام بحملة صليبية بمفردهم ضد الونديين Wends ، والسلاف Slavs ، الذين يعيشون بعد الحدود الشمالية الشرقية للإمبراطورية ، تعرضت الفرقة العسكرية الألمانية المقرر ذهابها للبلاد المقدسة إلى نقصان عدد أفرادها . وأعلن كل من برنارد وأيوجينيوس موافقتهما ، ومنح البابا هؤلاء الصليبيين الامتيازات المادية والروحية نفسها التى تمتع بها هؤلاء الذين ذهبوا إلى الأراضى المقدسة . وكان من الصعب ، رفض خطة الساكسون بينما فى الوقت نفسه تقريبا ، كان أيوجينيوس يمنح المنزلة الرفيعة ، والامتيازات الخاصة بالمشاركة فى حملة صليبية إلى الحملة العسكرية التى نظمها الفونس السابق ملك قشتالة Alfonse VII of Castile ضد المسلمين فى أسبانيا . وفى أسبانيا كان هناك ميراث من الحروب ، ضد المسلمين تعود إلى ما قبل الحملات الصليبية، التى باركتها الكنيسة. وكانت أسبانيا حالة خاصة فى هذا المجال. وبالإضافة إلى ذلك ، كان الإسلام هو العدو أيضاً فى أسبانيا .غير أنه إذا ما جرت الحملة الصليبية الوندية مجرى المثال للتطبيق على مناطق أخرى . فإن الأرض المقدسة من الممكن أن تفقد كثيراً من المساعدة التى هى فى حاجة ماسة إليها ، أنه من الممكن محاربة غير المسيحيين فى

أجزاء كثيرة من العالم ، وليس فى الأراضى المقدسة فحسب . وفى الحقيقة فـــإن نظـــام الحملات الصليبية ضد السلاف ، أصبح متطوراً على نحو متزامن تماماً ، وبصفة خاصة بعد أن استقر الفرســـان التيتون Teutonic Order فى بروسيا Prussia فى القرن الثالث عشـــر .

ولما كان نيكلوت Niklot ، أمير القبائل الوندية يتوقع الحملة الصليبية ، لذلك شـــن هجوماً أولاً . فتصدى لذلك الهجوم جيش ألماني كبير تحت قيـــادة هـــنرى الأســـد دوق سكسونيا Henry the Lion Duke of Saxony وكونراد دوق تساهرنين Conrad Duke of Zahringen ، وألبرت الدب حاكم براندنبرج Albert the Bear , Margrave of Brandenburg ، ورئيســـى أســـقفيتى بريميـــن ومـــاجدبورج the archbishops of Bremenand Magdeburg .غير أن القتال انتهى دون نصر حاسم . علـــى أن اعتنـــاق الونديين للنصرانية من الناحية الصورية هى التى منعت الفشل الحقيقى للحملـــة مـــن أن يكون واضحا . (٣٧)

وبدأت الحملة الصليبية ذاتها فى رجنزبرج Regensburg فى مايو ١١٤٧م . وبـــدأ الفرنسيون المسير من متس Metz ، بعد ذلك بأسابيع قليلة . وحدث الزحـــف الألمـــانى عبر المجر دون حادث . غير أنه ما أضرت تجاوزات الجند الألمان بالعلاقات مع مانويل كومنين إلى أبعد حد عندما دخلوا الإمبراطورية البيزنطية ، حتى أنه ما أن وصل كونراد الثالث القسطنطينية فى سبتمر ١١٤٧م ، فلم يحدث أن التقى به الإمبراطـــور مـــانويل . وكان مانويل متميزاً غيظاً ، لأن وصول الجيوش الصليبية حرمه من حرية التحـــرك أو الانتقال . وكان مانويل مضطراً للبقاء فى العاصمة ، فى حين أن روجر الثـــانى ، ملـــك صقلية ، انتهز الفرصة ، فى نهب كورفو Corfu ، وفى تخريب مراكز صناعة الحريـــر البيزنطى فى ثبز Thebes، وكورنيث Cornith . وتمكن مانويل بمساعدة البنادقة ، مـــن إجبار روجر الثانى على الخروج، من أراضى الإمبراطورية ، وذلك بعد مرور عـــامين. ومن ناحية كونراد ، فقد شعر بالضيق إلى حد ما، لأن مانويل طلب منه ، أن يقسم علـــى العهد باحترام الحقوق البيزنطية على أراضى سوريا وفلسطين، مثلما فعل جده من قبـــل. على أن اقتراب الجيش الفرنسى ، أكثر من الضغط والإكراه الذى مارسه مانويل ، هـــو

الذى أقنع كونراد على أن يمضى بقواته ، عبر بوغاز البوسفور إلى آسيا الصغرى . ثـم بدلاً من الالتزام بالخطة الأصلية ، وانتظار الفرنسيين للانضمام إليهم ، قرروا مواصلـة الزحف على الفور فى اتجاه الرها .

وقام كونراد بتقسيم جيشه إلى قسمين فى مدينة نيقية . وكان القسم الأول تحت قيادة الأسقف أوتو من فريزنج Bishop Otto of Freising ، الذى تلقى تعليمات بـأن يسـلك طريق الساحل الذى كان طويلاً . وكان كونراد قد قصد أن يشمل هذا القسم كل المدنيين ، بيد أن بعض الطفيليين ظلوا بالخلف ليعوقوا الجيش الرئيسـى . وفـى نهايـة أكتوبـر ١١٤٧م، حدث أول لقاء بهذه الفرقة مع العدو عنـد دوريليـوم Dorylaeum. وأحـرز السلاجقة نصراً مقنعاً ساحقاً a convincing victory . وبدأ انسحاب الألمان إلى الساحل فى نظام جيد . غير أن الانضباط ضاع تماماً على الفور ، ونتيجة لذلك تعرض الجيـش الألمانى لخسائر جسيمة فى القتلى و الجرحى . ومعظم الذين قدر لهم البقاء علـى قيـد الحياة ، وهم الذين ناضلوا من أجل العودة إلى نيقية فى أوائل نوفمبر ١١٤٧م ، تركـوا الجيش لكى يعودوا إلى بلادهم . وفى الوقت نفسه ، كانت فرقـة أوتومن فريزنج ، قـد واصلت زحفها جنوباً على امتداد الساحل الإيجى . ثم انطلقت تلك الفرقة إلى الداخل ، إلا أنها تعرضت لهزيمة نكراء على أيدى الأتراك فى اللاذقية Laodicea . وأما من بقـوا على قيد الحياة من الجيش، فكانوا على و شك النجاح فى الوصول إلى شـاطئ بامفيليـا Pamphylia ، غير أنهم تعرضوا للتقطيع إرباً إرباً فى فبراير ١١٤٨م. أما الأسقف أتـو من فريزنج ومعـه عدد قـليـل من الذين قـدرت لهم النجـاة ، أكملوا رحلتهـم إلـى سوريا بحـراً .

وفى غضون ذلك ، كان الجيش الفرنسى قد وصل إلى القسطنطينية فى الرابع مـن أكتوبر ١١٤٧م. ومن الناحية المظهرية ، كانت العلاقات مـع مـانويل جيـدة ، وكـان الإمبراطور نفسه مستعداً لعمل أى شىء لكسب لويس السابع إلى جانبه . ومع ذلك فكـان ضمن الجيش الفرنسى فريق قوى يتزعمه الأسقف جودفرى من لاجـرى Godfrey of Langres ، وكان هذا الأسقف شخصاً مثيراً للمتاعب بغيضاً، وطالب بأن يمارس حقـوق

ممثل للبابا a Legate . وفى الحقيقة كان البابا قد منحه تلك الحقوق ، لكن البابـا عيـن محله ، فيما بعد ، جودو من فلورنس Guido of Florence ، القس الكاردنالى سان مـن كريزوجونو San of Crisogono . واستمد الفريق المؤيد له التشجيع مـن أنبـاء نجـاح روجر الثانى فى كورفو Corfu ، وحصل على دعم أكثر ، عندما أصبـح معلومـاً أن مانويل عقد هدنة مع السلطان السلجوقى صاحب قونية Iconium . وقـد صدمـت هـذه الهدنة اللاتين ، على الرغم من أن أسلوبهم فى التعامل ، هو الذى أقنـع مـانويل علـى التوصل إلى تفاهم مع السلاجقة ، على وجه التحديد . ومن ثم فحتى قبل وصولهـم إلـى القسطنطينية ، كان الفريق المعادى لبيزنطة ، يضغط من أجل شن هجوم على المدينـة ، ومن أجل التحالف مع الملك روجر ، لتحقيق هذا الهدف . وواصلوا إثارتهم للمشـاعر ، فى الوقت الذى عسكر فيه الجيش خارج المدينة . بيد أنهم فشلوا فى إقناع الغالبية ، الذين أوضحوا أن البابا ، لم يكن قد رخص لهم بحملة عسكرية ، ضد القسـطنطينيه ، وذلـك بمساعدة جودو من فلورنسا ، ولويس السابع نفسه. ومع ذلك فهنا الإشارة الأولى إلـى أن الرجال ، كانوا مستعدين لإساءة استعمال المثل الأعلى من المشاركة فى حملة صليبيـة ، إلى حد تحويله ضد زملائهم النصارى . فاستيلاء الصليبيين على القسطنطينية قد حـدث سنة ١٢٠٤م . (٣٨)

وأجل الفرنسيون عبورهم بوغاز البسفور باستمرار، إلى أن أطلق مانويل شائعات ، عن نصر ألمانى فى آسيا الصغرى ، فى آخر الأمر . وأسرع الفرنسيون إلى داخل آسيا الصغرى، حيث انضمت إليهم فرقة صليبية من سفوى Savoy – ودفعهم إلى ذلك الخوف من ضياع فرصة تلهفهم الشـديد على الحصول على الغنائم (وهـو أمر نمطى وسائد فى العصور الوسطى) – والذى كان عنصراً مهماً فى دخل الفارس . ومع ذلك رفض مانويل تزويدهم بالمرشدين ، أو المؤن، نظراً لأن مسألة علاقاتهم بالإمبراطورية البيزنطية ، لـم تزل غير واضحة . و فى النهاية وافق البارونات الفرنسيون على تقديم فروض الـولاء الإقطاعى ، للإمبراطور البيزنطى ، ووعد لويس السابع نفسه بأنه سـوف لـن يحـرم الإمبراطور ، من أى مدينة كانت تابعة له من قبل . وفى ذلك زودهم مانويل بالمرشدين ، ولكن نظراً لمعاهدته مع السلطان السلجوقى، فلم يستطع تقديم أكثر من مساعـدة قليلـة

الأهمية للحملة الصليبية . وكان هذا بمثابة دافع آخر للشعور المعادى لليونانيين فى الجيش الفرنسى. وفى نيقية انضم الفرنسيون إلى أزمير Smyrna ، ثم واصلوا مسيرهم إلى أفسوس Ephesus ، حيث مرض كونراد مرضاً شديداً ، فى ٢٥ ديسمبر ١١٤٧م ، حتى أنه كان مضطراً للعودة إلى القسطنطينية. واعتنى مانويل بنفسه بكونراد لكى يعمل على إحياء تحالفهم القديم . وفى الوقت نفسه تعرض الجيش الفرنسى ، لنفس المصير الذى تعرض له الألمان . ففى أوائل العام الجديد ١١٤٨م ، تعرض الفرنسيون لهزيمة نكراء عند اللاذقية Laodicea . وشقت الفرقة القتالية التى قدر لها البقاء على قيد الحياة طريقها إلى الساحل عند الأناضول ، غير أن المدن البيزنطية لم تكن قادرة ولا مستعدة بصفة خاصة لإيواء أعداد كبيرة من الصليبيين. وطلب الفرنسيون السفن من البيزنطيين، غير أن عدداً قليلاً جداً تم إرساله، لدرجة أن الملك ، والكهنة ، والبارونات هم الذين كانوا قادرين على الإبحار. أما من تم تركهم ، فقد حاولوا شق طريقهم إلى سوريا براً ، غير أنهم تعرضوا لهزيمة نكراء على أيدى السلاجقة بمجرد مغادرتهم أطاليا؟ Attalia ، أما بخصوص لويس السابع فقد وصل إلى أنطاكية ومعه أتباعه بسلام .

ولم يكن الوضع فى سوريا على ما يرام على الإطلاق. وكان جوسلين الثانى حاكم الرها ، قد انتهز فرصة موت عماد الدين زنكى فى ١١٤٦م ، وحاول استرداد عاصمته ، بيد أن نور الدين محمود ، تدخل بسرعة ، وتمكن من التأكيد على أن الرها ضاعت ، وأصبحت خارج نطاق الاسترداد ، بعد القضاء على سكان الرها من اليعاقبة والأرمن . وبعد هذا لم تكن هناك مناوشات مهمة ، إذ كان كل من المسلمين والنصارى فى انتظار الصليبيين . وطلب ريموند حاكم أنطاكية من لويس السابع ، قيادة حملة ضد حلب ، لتخفيف الضغط على حدوده الشمالية ، حيث كان عليه مواجهة سلاجقة آسيا الصغرى ، بالإضافة إلى نور الدين . وكانت خطة معقولة. وبهذه الطريقة فقط لم يعد هناك أى أمل ، فى إعادة بناء كونتية الرها ، التى كانت تقع بعض أجزائها على الضفة الغربية لنهر الفرات. وبالإضافة إلى ذلك ، قدر لنور الدين محمود أن يصبح عدواً أكثر خطورة على الإمارات الصليبية برغم أن هذا ربما لم يكن واضحاً تماماً فى ١١٤٨م. وبرغم ما حدث، فلا بد أنه كان من الواضح أن النصر على نور الدين محمود ، يمكن أن يعوق اتحاد حلب

مع دمشق . غير أن لويس السابع كان ضعيفاً جداً لدرجة عدم مقدرتـــه علـــى مســـاعدة ريموند بمفرده ، فى الشمال ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن الإشاعات عـــن وجـــود علاقـــة غرامية بين زوجته إليانور Eleanor ، وريموند جعلته يشعر بأنه تمت معاملته بطريقـــة لا يمكن تحملها . على أن ما تبقى من القوات المشاركة فى الحملة الصليبية ، كان قليـــلاً تماماً ، وأن تقسيم تلك القوات كان عملاً يبدو وكأنه حماقة . ولذلك تحرك لويس الســـابع جنوباً ، للانضمام إلى أوتو الفريزنجى Otto of Freising ، وكونراد الثالث ، الذى كان قد وصل إلى الأراضى المقدسة فى أبريل ١١٤٨م ، بعد تماثله للشفاء . وبعـــد زيـــارة الأماكن المقدسة ، تقابل كل من ملك فرنسا وملك ألمانيا فى عكا ، حيـــث كـــان كونـــراد الثالث يحاول فى الوقت نفسه حشد جيش جديد . كما تم تعزيز قـــوات لويـــس الســـابع ، بوصول بعض الصليبيين الجدد من أهالى بروفنسال Provencal .

وانعقد الاجتماع الملكى لمملكة بيت المقدس فى مدينة عكا فى ٢٤ يونيـــه ١١٤٨م. وتم السماح للصليبيين بحضور الاجتماع ، حيث كان مسموحا لهم وفقـــا لتقـــاليد البـــلاط الملكى ، بالرغم من أن هـــذه هى المرة الأولى ، التى استطاع المـــؤرخ مـــن الناحيـــة الواقعية ، ملاحظة استمرار هذا التقليد فيما بعد . وبالإضافة إلى كونراد الثـــالث ، مثـــل الألمان أساقفة فريزنج ، وميتـــس ، وتول ، وممثل البابا ، وأسقـــــف بورتـــو ، ودوق سوابيا ، والدوق ويلف السادس ، والحكام العسكريون للنمسا ، وفيرونا ، ومونتفـــزات . وبخصوص الفرنسيين، فكان هناك لويس السابع ، وأساقفة لانجر ، وليزو ، والكاردينـــال جدو الفلورنسى ، وكونتات بيرش ، وتروى ، وفلاندر ، وسواسون. ومثل مملكـــة بيـــت المقدس الملك بلدوين الثانى ، والملكة ميليزند ، وبطريرك بيت المقدس، ورؤساء أســـاقفة قيصرية ، والناصرة ، وأساقفة صيدا ، وعكا ، وبيروت ، وبيت لحم ، ورئيس كل مـــن فرسان الداوية ، وفرسان الأسبتارية ، وحكام نابلس ، وطبرية ، وصيـــدا ، وقيصريـــة ، وشرق الأردن ، وتبنين ، وبيروت . ولم يتم تمثيل شمال سوريا . وبعد تبـــادل الآراء ، أصدر المجتمعون قراراً أحمقاً ومدهشاً ، وذلك بمهاجمة دمشق . وبعد ١١٤٦م لـــم يعـــد هناك مجال للرها كهدف للحرب ، وبالنظر إلى غياب السوريين فى الشمال ، فإن حالـــة حلب مرت بسبب الإهمال إلى حد ما . غير أن دمشق كانت آخر مكان يمكن مهاجمتـــه .

إن بقاء مملكة بيت المقدس ، اعتمد على استمرار التحالف المبرم مع دمشق ضد حلب ١١٣٩م. وجعلها ارتباطها ببولس الرسول مدينة مقدسة ، غير أن التحالف مع أتابك دمشق ، كان مسألة حياة أو موت بالنسبة لبيت المقدس ، ويجب ألا يتم التضحية به ، لسبب من هذا النوع ، مهما كان مثالياً . وكان هناك اعتقاد عام على أن بارونات بيت المقدس هم الذين قدموا هذا الاقتراح ، وتابعوا تنفيذه . غير أنه ليس هناك دليل في المصادر على تأييد هذه النظرية ، وأن الحوادث التاريخية التالية ، تشير إلى أنه غير صحيح . إن إلقاء نظرة عابرة على تكوين الاجتماع ، سوف توضح أن كلاً من الملك الصغير ووالدته ، كان أمام فرصة ضئيلة لمقاومة رغبات ملكي ألمانيا وفرنسا ، وإن الصليبيين وحدهم الذين كانوا يجهلون الاحتياطات المحلية ، وهم الذين عرضوا مثل هذا المشروع البعيد عن الواقع .

وكانت خطة مهاجمة دمشق غير مقبولة فى التنفيذ مثلما كانت فى الفهم والإدراك. وفى الرابع والعشرين من يوليو عسكروا بين أشجار البساتين عند الجهة الغربية من دمشق . على أن اقتراب جيش النجدة الإسلامية تحت قيادة نور الدين محمود زنكى ، قد أثار الرعب والذعر عند أتابك دمشق، مثلما فعل الشيء نفسه عند البارونات الصليبيين. وتصرف البارونات بطريقة مخادعة على نحو خطير ، عندما أقنعوا الملكين بأن أشجار البساتين يمكن إضافتها إلى صعوبات حصار دمشق ، وأن من الأفضل تحريك الجيش إلى الجنوب الشرقي. غير أن الجيش الصليبى أدرك أنه وقع فى أرض منبسطة، لا ماء فيها وشديدة الحرارة ، وأن البقاء الطويل بها مستحيل ، ولذلك قرر فى اليوم نفسه فك الحصار والإنسحاب. وحاول وليم الصورى فى حوليته إلقاء اللوم على كونت الفلاندز، أو نفوذ ريموند حاكم أنطاكية ، برغم أن تعليقات وليم الصورى على المناقشات فى عكا ، كانت مقتضبة جداً . بيد أن الرأى العام المعاصر فى الغرب الأوربى ، وجه اللوم إلى بارونات فلسطين مباشرة . والواقع أنهم كانوا فى مأزق a dilemma ، وقد تصرفوا وفقا لذلك . فمن ناحية ، كان عليهم المحافظة على اهتمام الغرب الأوربى ، لأنهم فى حاجة إلى الرجال والمال ، ولا يوجد مصدر آخر للتمويل والإمداد . ومن ثم كان عليهم التحرك

صوب دمشق سواء أكان ذلك فى مصلحتهم أم ضدها . ومن ناحية ثانية ، كـــان عليهــم إحباط الحملة ، وإلا سوف يتعرض التحالف المهم للضياع . ولقد كان إجراء ناجما عـــن اليأس الذى أفضى إلى التهور ، ونتائجه التى لا تحتمل . فمن ناحية أصيب الرأى العـــام فى الغرب بصدمة ، ومن ناحية ثانية ، فعلى الرغم من أن أتابك دمشق ظل صادق الولاء للتحالف ، فإن سكان المدينة ، الذين كانوا قد قبلوا فى يوم ما ، ارتابوا أيضا فـــى ذلـــك الحين فى الفرنجة، وفى ١١٥٤م فتحوا أبواب المدينة، لنور الدين محمود زنكى. وهكـــذا ساعدت حملة ١١٤٨م الاتحاد بين حلب ودمشق بدلا من إعاقته . ثم غادر الملك كونراد الأراضى المقدسة غاضباً فى الثامن من سبتمبر ١١٤٨م. وبقى لويس السابع حتى عيـــد فصح (وهو يوم الأحد الذى يأتى مباشرة بعد ٢١ مارس من كل عـــام) عـــام ١١٤٩م ، وإن كان لم يحقق شيئاً له أهمية. كما علق وليم الصورى : "ومنذ ذلك الحين فصـــاعدا ، تدهور وضع اللاتين فى الشرق بوضوح " .

وذهب كونراد الثالث إلى سالونيكا ، وهناك عقد معاهدة مع مانويل كومينينـــوس ، قبل عودته إلى ألمانيا فى أكتوبر ١١٤٨م على الأرجح ، مجدداً تحالفـــه القديـــم ضـــد النورمان، منذ فترة قبل الحملة الصليبية الثانية . (٣٩) ولقد تم الاتفاق على قيام كونـــراد الثالث بقيادة حملة ضد روجر الثانى فى العام التالى بمساعدة بيزنطة بالمال والرجـــال . وكانت الهدنة الأوربية التى أجراها برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux ، لكـــى تستمر الحملة كانت قد انتهت . غير أن روجر كان قد أجرى اســتعداده مبكـــراً . ففـــى ١١٤٨م ، دبر روجر تمرد مسلح قامت به أسرة ويلف Welf فى ألمانيا . ومنـــع هـــذا التمرد كونراد الثالث من دخول إيطاليا. وفى يوليو ١١٤٩م . عندما زار لويس الســـابق ملك صقلية ، وهو فى طريقه للعودة إلى فرنسا، إنتهز روجر الفرصة لتقوية تحالفهمـــا . وأيد روجر، أخرى مع نية توجيهها ضد اليونانيين . وساعد روجر على ذلك حقيقـــة أن فرنسا ، فى الوقت نفسه كانت قد بدأ بها كل من برنارد من كليرفو، وسوجر رئيس ديـــر القديس دينس ، وبطرس المبجل رئيس دير كلونى الدعوة لحملة صليبية جديدة - خاليـــة من الرياء - والتى كان هدفها تعويض ما حدث فى ١١٤٨م . وكان من الممكن اختيـــار

برنارد قائداً للحملة ، لولا إخفاق الخطة لأن الفرسان الفرنسيين ، كانوا غير راغبين في تحمل عبء حملة صليبية جديدة في مدى قصير جداً . خاصة أن صدمة الفشل الأخير كانت لا تزال كبيرة جداً ، فالخسائر في الأرواح كانت فادحة للغاية. ولكن على الأقل ، تم تجنب حرب أوربية كبرى بكل عزم ، عندما رفض البابا الانضمام إلى التحالف المؤقت ، ضد كونراد ومانويل ، لأنه يخشى أن يسيطر النورمان من الناحية السياسية .

إن النجاح الوحيد للحملة الصليبية كلها حدث بعد انتهائها . وفي ١١٤٧م قامت مجموعة من الإنجليز ، وأهالي الفلاندر ، والفريزيين من الصليبيين ، الذين قرروا الذهاب إلى فلسطين بحراً ، وأبحروا من نهر تيجس Tagus، واستولوا على مدينة ليزبن من المسلمين بالأندلس بعد حصار استمر عدة أشهر . (٤٠) وكانت عودة محدودة تثير الشفقة لحملة صليبية كانت قد بدأت في جو من الأمل والتعصب الديني ، والتي تم تنظيمها على نطاق واسع جداً . ولا ريب أن خيبة الأمل كانت شديدة . وكان هذا واضحاً من المحاولات العديدة التي أجريت لتفسير الفشل . وفضل البعض خاصة كاتب الحوليات الفرنسي، أودو من دوى Odo of Deuil ، التفسيرات العقلانية – الشعور بالعداء الشديد تجاه اليونانيين والأتراك وصعوبات الرحلة. واستخدم البعض الآخر مثل أوتو من فريزنج Otto of Freising ، وبرنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux ، الحجج الغيبية - خطايا الناس والعقاب الإلهي . كما نجد كل أنواع التفسيرات الطبيعية والخارقة للطبيعة بين تلك النهايات البعيدة . وفيما بعد ذهب كل من جيرهو من رتيشرزبر وورزبورج الحولي Gerhoh of Reichersber and the Wuszburg Annalist ، الناقدان الأكثر تزمتاً للحملة الصليبية ، بعيداً جداً ، عندما اعتبراها من عمل الشيطان والمسيح الدجال. ومن الطبيعي أن يكون رئيس دير كليرفو موضع النقد الأكثر أهمية ، عند الناقدين ، إذ أنه هو الذي كان قد فعل أكثر من أي شخص آخر للعمل على بدء تحرك الحملة الصليبية ، وربط نفسه بها إلى أقصى مدى ممكن . فعن طريقة معالجته للحملة الصليبية كوسيلة والتي عن طريقها استطاعت الروح الحصول على الخلاص ، عمل على إثارة الآمال، التي تعرضت للإحباط على نحو مؤلم ، نتيجة لفشل الحملة الصليبية . وكان الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، قبل أن يسترد المثل الأعلى المتعلق

بالمشاركة فى حملة صليبية وضعه السوى. ورد برنارد على نقاده فى الكتاب الثانى مــن مؤلفه عن التأملات De Consideratione . ولا ريب أن برنارد أخذ النقد مأخذ الجــد ، وعانى من أضراره ، لأنه قارن العقاب الإلهى – وفى تلك الحدود نظر إلى النقد – إلــى جهنم التى كان يعانى فيها فى ذلك الحين . ولم يتمكن النقد من هــز إيمانــه ، غــير أن كتاباته أظهرت بوضوح أنه وجد الموضوع مؤلماً . وبحث برنارد بــالتفصيل الأفعــال التى – ربما – تعرض بســببها للــوم ، غير أنه لم يكن على استعداد علــى الإطــلاق للاعتراف بأنه كان مسئولاً عن الأمور المتتالية المخيبة للأمل. ومع ذلك ، لقــد جــرت محاولات لإثبات أنه قد أضاف إلى المصاعب التى تعرضت لها الحملة الصليبية ، عــن طريق توســيع مداها ، داخلياً وخارجياً فى موقف سياسى ، الذى لم يكن على الإطــلاق مؤيد لعملية الاتساع تلك . وانتهى دفاع برنارد عن نفسه دائماً ، بالاحتماء خلف التكليــف بالدعوة للحملة الصليبية ، الذى تلقاه من البابا . على أن محاولته التملص مــن مســئولية الحملة الصليبية التى فشلت ، يكشف عن جانب من شخصيته التى لم تكن جذابة . وأقــام برنارد خطأ آخر للدفاع ، للرد على أولئك النقاد الذين سوف لن يقبلــوا هــذا العــذر ، ووصف برنارد نفسه بأنه درع الله the Shield of God ، يتلقى نار المجدفين على الله ، والنقاد ، لكى لا تمس الله سهامهم المسمومة . (٤١) إن الحماس الذى شدد عليه جماعــة السسترشن the Cistercians ، وهم الرهبان التابعين لبرنارد عند تفسيرهم الدينى للإخفاق التام ، يشير إلى حد ما ، إلى أنهم رغبوا فى إخفاء أسباب الفشل الأخرى . غير أن الرأى العام لم ينخدع . وفى المستقبل لم يعد من السهل الدعوة لحملة صليبية .

٦ - الإمارات الصليبية ١١٤٩ - ١١٨٧م

إن تقسيم مملتكات عماد الدين زنكى فى ١١٤٦م ، والذى بناءاً عليه حصل سيف الدين غازى على الموصل ، ونورالدين محمود على حلب (١١٤٩م - ١١٧٤م) كان غير سار بالنسبة للفرنجة. وكان ذلك يعنى أن نور الدين كان خالياً من مسئولية الاضطرابات فى الشرق ، التى أثقلت كاهل والده بشدة. واستطاع نور الدين أن يركز على الكفاح ضد دمشق والفرنجة .(٤٢) وتحقق نجاحه عندما بدد محاولة جوسلين الثانى العقيمة من أجل استرداد الرها. ثم هاجم نور الدين إمارة أنطاكية فى ١١٤٧م و١١٤٨م، واحتل أفضل أجزائها شرق نهر العاصى . ولكنه لم يحقق خطوة حاسمة فى ذلك الحين . حقيقة أن الحملة الصليبية الثانية أجبرته على الذهاب لنجدة دمشق ، ومع ذلك ظلت قاعدته فى حلب بعيدة عن الخطر، لأن الصليبيين أثبتوا عدم مقدرتهم على صنع القرار للهجوم فى شمال سوريا . وبمجرد انتهاء الحملة الصليبية الثانية ، استأنف نور الدين محمود حربه ضد أنطاكية . وفى صيف ١١٤٩م ، ظهر نورالدين محمود أمام أسوار أنب Inab ، وهو حصن تابع لأنطاكية. وذهب ريموند وفرسانه لنجدة الحصن ، بيد أنهم تعرضوا لهزيمة منكرة ، وقتل ريموند نفسه فى التاسع والعشرين من يوليو ١١٤٩م. وازدادت مكانة نور الدين محمود فى كل أنحاء العالم الإسلامى إلى حد كبير .

وأشار السير هاملتون جب Hamilton Gibb ، إلى أن النصر فى أنب ، كانت له نتائج أخرى بعيدة الأثر . فمنذ ذلك الحين فصاعداً ، رأى نور الدين فى نفسه بطلاً مدافعاً عن الإسلام ، ورجل رسالة تاريخية عليه أن يؤديها . وكان واجبه توحيد المسلمين ضد الفرنجة . ولكى نفهم نور الدين ، فمن الأساسى أن نعلم ، أنه كان أيضاً متحمساً دينياً ، وأن الوحدة السياسية كانت تقتضى ضمناً الوحدة فى العقيدة . ومن ثم اتخذ إجراءات صارمة ضد الشيعة، وشجع كل فكرة يمكن أن تساعد فى العمل على النهوض بالمذهب السنى وتعميقه ، ولذلك قام بفتح المدارس وبناء المساجد ، وطلب من الشعراء ، ورجال

الدين مساندة أهدافه الدينية والسياسية . وتمكن الشعراء ورجال الدين من إيقـاظ الحميـة الدينية عند المسلمين بالدعوة للجهاد فى سبيل الله . والأكثر أهمية من كل شـيء أنهـم أدانوا التحالف "المخزى" بين دمشق والفرنجة، والذى عقد نور الدين العزم على القضـاء عليه. ومنذ ١١٥٠م فصاعداً ، زادت هجماته المستمرة على دمشق ، وفى عدة مناسـبات شيد معسكراً أمام أسوارها . وبعد موت أنر فى ١١٤٩م ، ظلت حكومة دمشق ضعيفة ، وغير قادرة على الاستفادة من حملات نور الدين محمود المتكررة فى أقليم الرها، حيـث أن جوسلين الثانى فى الأسر ، سمح لنور الدين محمود بتعزيز غزواته وتقويتها . وفـى ١١٥٤ ، فتح أهالى دمشق أبواب مدينتهم لنور الدين محمود ، بعد مقاومة تكاد لا تذكر . وعلى الفور امتد برنامجه الدينى ليشمل الإمارة الجديدة . وفى ذلك الحين اتحدت سـوريا المسلمة ، كما جلب انضمام دمشق إضافة كبرى إلى قوة جيشه . وقـدر المـؤرخ جـب Gibb ، عدد قوات نور الدين محمود بحوالى من عشرة آلاف إلى خمسـة عشـر ألـف فارس كحد أقصى . وتكون حراسته الخاصة من ألفين من هؤلاء الفرسان ، والباقى تكون من فرق عسكرية ، تحت قيادة رجال منحهم إقطاعات حربية ، لكى يتمكنوا مـن تقديـم الأعداد المطلوبة من المقاتلين . وأثناء تلك الفترة كان هناك عدد كبير على نحو ملحـوظ من الجنود الأكراد فى كل من السلك الوظيفى والجيش النظامى عند نور الدين محمود .

على أن افتقار الفرنجة للقيادة ، جعل علو نجم نورالد ين أمرا مثيراً للأخطار إلـى حد كبير ، فقد كان بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس (١١٤٣ - ١١٦٣م) ، لا يزال فـى سن الصبى، وجوسلين الثانى حاكم الرها سجيناً، وأمير أنطاكية سقط قتيلاً فى المعركـة. وأخيراً وبعد معركة أنب ، أظهر نور الدين امتداد نفوذه بوضوح على نحـو مسـرحى ، بالسباحة فى مياه البحر المتوسط أمام أعين جنوده . وتم إنقاذ أنطاكية ذاتها بفضل جهـود البطريرك إيمرى Aimery (١١٤٤ - ١١٩٣م) . إذ قام هذا البطريرك بـإدارة شـئون إمارة أنطاكية ، دون تطفـل ، فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة من الناحـية الرسمية ، تحت سيطرة كونستانس Constance ، أرملة ريموند ، التى كـان اهتمامهـا الرئيسـى المحافظة على الإمارة لأطفالها . وأقنع تدخل بلدوين الثالث ، نور الدين على الانسـحاب

من أنطاكية ، ومؤكداً بذلك على وجودها المستمرعلى الفور. غير أن بلدوين الثالث ، لـم يكن قادراً على أن يقوم بالشيء نفسه بخصوص الرها. إذ كانت الأحوال في مملكة بيـت المقدس ، لم تسمح له بالبقاء بعيداً لفترة طويلة من الوقت . فقد بلغ الملك بلدوين الثـالث العشرين من عمره في ذلك الحين وكـره مشاركة والدته ميليزند Melisende له الملك ، ومثلما لم يوافق الغالبية العظمى من البارونات على ذلك ، إذ إن امرأة لم تكـن مؤهلـة للتصدى للأخطار المحدقة من كل صوب . ولقد كان الصراع بين الملك الشاب ووالدتـه أكثر خطورة مما ورد في حولية وليم الصوري . إن تحليل المواثيق الملكية لتلك السنوات يكشف تماماً عن مدى شدة الخلافات الخطيرة بينهما . ولم تكن ميلزند بدون حلفاء علـى الإطلاق بين طبقة النبـلاء، والأكثر أهمية من كل شيء أنه كان في إمكانهـا الاعتمـاد على تأييد الكنيسة لها. وفي بداية عهد بلدوين الثالث كانت ميليزند تسيطر على الجليـل ، والسامرة ، ويهوذا (جنوب فلسطين) ، وظل الإقليمين الأخيرين تحت سـيطرتها حتـى ضياع السلطة منها ، والواقع أنها احتفظت بسامرة حتى وفاتها. وقامت هيمنتها السياسية ، إلى حد ما ، على تأييد النبلاء الكبار لتلك الأقاليم : أمير الجليل ، وفيليب أمير نابلس في إقليم السامرة ، وردهارد الأكبر في يهوذا . واستطاعت أيضاً الاعتماد على أسرة إبليـسن Ibelins ، في الجنوب الغربي، والتي كان نجمها يعلوا سريعاً. واعتمدت الملكة إلى حـد ما في قوتها على ولاء الرجال الذين تولوا الوظائف الملكية الكـبرى ، ولا سـيما كبـير رجال القصرConstable ، واسمه مانس من هيرج Mansses of Heirges ، وهو أحـد أقارب بلدوين الثاني، والذي كان قد وصل إلى الأرض المقدسة في ١١٤٠م. وفي النهاية، كان بلدوين الثالث قادراً رويداً رويـداً ، على مضارعة هذه القوة بإيجـاد قـاعدة آليـة لنفسه، في الممتلكات الملكية في الشمال ، حول صور عكا . ومنـذ ١١٤٩م فصـاعداً ، ظلت العلاقة بين الأم والإبن غير ودية . وبدأت ميلزند في إقصاء بلدوين الثـالث عـن شئون الحكم وفقاً لخطة . ورد الملك بتدخله في شمال سوريا، بالعمل الحاسم هنـاك ، إذ كان يأمل في بناء مكانة مرموقة لنفسه . وأنشأت الملكة الأم حرسها الخـاص تدريجيـاً وبجهد، وعاملت مناطق المملكة التي سيطرت عليها ، كما لو كانت تتمتع بالحكم الذاتـي.

وامتدت تلك العملية بعيداً للحد الذي وصل فيه الأمراء ، الذين ساعدوا ميليزند إلى اتخاذ خطوة ليس لها سابقة مماثلة ، وذلك بإهمال دعوة الملك لهم بالانضمام للجيش الذي كـان

يقوده فى سوريا ، فى صيف ١١٥٠م. ومن الواضح أنهم عقدوا العزم علـــى إضعـــاف مركز الملك ، إلى أن أصبح من المستحيل عليه ممارسة حكومة الوصاية التقليدية، لملوك بيت المقدس على الإمارات فى سوريا . غير أن خطتهم منيت بالفشل . فعلى الرغم مـــن أن بلدوين كانت لديه قوات قليلة جداً فى جيشه ، فإنه تحرك شمالاً ، وأثبت أنه كان حاكماً مقتدراً ، ودبلوماسياً بارعاً ، قادراً تماماً على الاحتفاظ برباطـــة جأشـــه ، فـــى بعـــض المفاوضات الدقيقة مع بيزنطة. وبحلول ١١٥٠م ، كان التقسيم الواقعي للمملكة قد ذهب بعيداً ، لدرجة أنه قد أصبح من المستحيل على بلدوين الثالث أن يدع الأمور تنحرف أكثر من ذلك . إذ ما كان عليه أن يأمل فى إنقاذ المملكة ومركزه الشخصى أيضاً. ومن حسن حظ بلدوين أن والدته أقدمت على غلطة كان لها تأثير حاســـم . فقـــد ســـمحت لمانـــاس Manasses ، المفضل عندها، بالزواج من هيلفيز Helvis of Ibelins ، وربما كان ذلك فى ١١٥٠م . وقد قرر المؤرخون فى العصر الحديث أن هذا الزواج ، الذى كون القاعدة لسلطة ماناس ، بضمان تأييد أسرة إبليين Ibelins ، وذلك اعتمادا علـــى روايـــة وليـــم الصورى . وقبل ذلك فى حوالى ١١٤٨م ، كانت هيلفيز قد ورثت المقاطعة المزدوجـــة للرملة – ومجدليابه المزدوجة المهمة عن أخيها ، وانتقل إلى يدى زوجها الأول باليـــان "العجوز" من أسرة إبلين Balian the old" of Ibelin . واستطاع أبناء باليـــان الثلاثـــة التطلع إلى الإرث الثمين على نحو يمكن تبريره ، بيد أن آمالهم تم إحباطها بالزواج الثانى لوالدتهم ، لأنه أصبح واضحاً سيطرة مانـــاس علـــى الرملـــة – مجدليانـــة Ramleh-Mirabel . والواقع أن زواج باليان "العجـــوز" كان الزواج الأول الذى كتب له التوفيق تم بمعرفة أسرة إبليين منذ وصولهم فى المشرق الإسلامى ، وأن ما ورثه الأبنـــاء مـــن ناحية والدهم عن العائلة ، سوف لا يمدهم إلى حد بعيد بما هو مرغـــوب فيـــه ، لجـــذب اهتمام وريثات الثروات الضخمة . ومن ثم فإذا لم يعمل الإخوة الثلاثة ، علـــى إســـقاط ماناس، ونظام الحكم الذى ينتمى إليه، قبل أن ينجب أبناء من زواجه من هيلفيز Helvis ، فإنهم سوف يواجهون ضياع كل آمالهم . وعلاوة على ذلك ، فإن أسرة إبلين كانت إحدى الأسر القديمة – تلك المجموعة من ملاك الأراضى من طبقـــة البارونات التى أصبحـــت لها وجهة النظر الخاصة بها ، للأمور على نحو متزايد . ومن الطبيعى أنهم استاؤوا من ذلك عندما، نجح ماناس فى نهاية الأمر فى الانضمام إلى المجموعة – علـــى حســـابهم ،

وهو الذى ظل من الناحية الواقعية خارج النشاط المهم، فضلاً عن كونه رجـــل شـــاب a Homo Novus . ومن حســن حظهم كان لأســرة إبلين أقارب لهم نفوذ مؤثر بين طبقة النبلاء . وفى استطاعتنا ، فهم المغزى الكامل تجاه تلك الخلفية ، لتفسير وليم الصـــورى بسبب القطيعة النهائية بين بلدوين الثالث ووالدته. واســتياء البارونــات مــن الســيطرة المتعجرفة المزعومة لماناس . ولا ريب أن زواج كبــير رجــال القصــر الملكــى the Constable ، من هيلفيز Helvis ، عمل على زيادة نفوذه إلى حد بعيد – وأن ذلك فــى الواقع كل ما ذكره وليم الصورى عن هذا الموضـــوع . وعلــى الرغــم مــن أن تلــك الاستنتاجات التى توصل إليها المؤرخون فى العصر الحديث ، فإنه لــم يقــل أن ذلــك الزواج ، نظم أساس سلطته أو أنه مكنه من الاعتماد على تأييد أســرة إبليــن Ibelins . ومنذ ١١٤٣م، كان ماناس كبير رجال القصر الملكى ، بيد أنه لم يتمكن من الزواج مــن هيلفيز إلا فى ١١٥٠م . وفى ١١٥٢م سقط ماناس من السلطة . ولهذا الســبب ، فمــن الواضح أن الزواج من هيلفيز حدث متأخراً جداً ، لدرجة أنه لا يمكن أن يكون أساســاً لسلطة ماناس . ومنذ أوا ئل ١١٥٢م ، كانت المعارضة ضد ميليزند ومانــاس منظمــة بإحكام جيد ليتمكن بلدوين الثالث من التحرك . وبناءاً على نصيحــة البارونــات الذيــن ساندوه – بدون استشارة ميليزند – أعد الملك الشاب خطة تتويج ثانية لكى يدعم مركزه . وأراد بطريرك بيت المقدس، تغيير هذا بتقليده التاج فى عيد الفصح ، فى وجود الملكــة الأم ، بيد أن هذا سوف لا يضيف شيئاً إلى سلطة بلدويــن ، ولذلــك خــدع البطريــرك بظهوره علانية ، فى زيه الملكى الكامل، قبل عيد الفصح ، وبدون والدته. ومع ذلــك ، فعندما انعقد مجلس الوصاية بعد ذلك مباشرةً ، كانت ميليزند لا زالت قوية ، للحد الــذى أجبرت بلدوين على قبول تقسيم المملكة. فاحتفظت ببيت المقدس ونابلس ، بينما كان مــن نصيب بلدوين صور وعكا . والوحيد الذى خسر إلى أبعد حد كان ماناس الذى لــم يكــن يحظى بمحبة شعبه ، وكان عليه أن يتخلى عن وظيفته إلى همفرى الثانى مــن تــورون Humphrery II of Toron * .

---

* تورون Toron (هى تبنين قرب عكا) . الشاعر

وأصبح من الواضح بعد فترة قصيرة من الوقت أن التقسيم يستحيل تنفيذه . وكانت النتيجة قيام حرب علنية بين الأم والابن . وحاصرها فى نابلس أولاً ثم فى قلعة بيت المقدس – مكان القصر الملكى قبيل ١١٥٠م. وأجبر بلدوين والدته على تسليم المدينة ، ولم يسمح لها بممارسة دور فعال فى ممارسة السلطة . ومنذ ذلك الحين فصاعداً عاشت ميليزند فى نابلس (إقطاعية ملكية)، محتفظةً ببعض النفوذ بشأن التعيينات فى الوظائف الكنسية . أما ماناس ، فقد تم إبعاده عن البلاد . وفى ذلك الحين ، حكم بلدوين الثالث بمفرده، بيد أن الحرب الأهلية لم تكن فألاً حسناً للمستقبل، ولم تساعد على تعزيز سلطة الأسرة الملكية .

كان بلدوين الثالث (١١٤٣م ــ ١١٦٣م) شاباً طويل القامة ، شعره أشقر، ولحيته كثيفة. وتمتع بإدراك سريع على نحو فريد ، وفصاحة ملحوظة. وقد تلقى التعليم باهتمام ، وتم الثناء عليه كثيراً لأخلاقه الحميدة ، وللكياسة التى أظهرها للجميع، ولشجاعته الحربية، ومعرفته القانونية ، ولتفضيله القراءة التاريخية ، ولرغبته فى تبادل الآراء . ومن الواضح أنه لم تكن لديه أكثر من تقوى عادية ، ولم يستطع مراقب ميّال إلى المحاباة ، مثل وليم الصورى من التغاضى عن ولع بلدوين الثانى بلعبة السنرد ، وألعاب الحظ الأخرى ، بالإضافة إلى الفجور الجنسى إلى حد ما ، إلى أن حل موعد زواجه .

وبعد التتويج الثانى لبلدوين الثالث ، كانت مهمته الأولى التحرك شمالاً حيث كان عليه ، أن يسوى الخلاف الذى نشب بين ريموند الثانى حاكم طرابلس وزوجته هوديرنا Hodierna ، وهو الأمر الذى تكرر فيما بعد . غير أن الحشاشيرAssassins قتلوا الكونت ريموند (١١٥٢م) ، أثناء زيارة الملك لطرابلس . وأقنع الملك البارونات فى طرابلس بتقديم فروض الولاء الإقطاعى إلى الكونتس (أرملة ريموند) ، التى سوف تحكم نيابة عن ابنها الصغير ريموند الثالث (١١٥٢ ــ ١١٨٧م) . وحاول الملك أيضاً إقناع الأميرة كونستانس Constance ، حاكمة أنطاكية ، بأن عليها أن تتزوج مرة ثانية. والواقع أن البطريرك كان قد رشح لها بعض المتقدمين للزواج منها من قبل دون جدوى ، وحقق بلدوين نفسه نجاحاً إلى حد ما ، عندما عرض الإمبراطور البيزنطى

مانويل كومنين ، تزويجها إلى أمير بيزنطى ، على الرغم من أن ذلك كان يعنى المساعدة فى الحرب ضد نور الدين محمود زنكى ، وسوف يتضمن تزايد الضغط البيزنطى، على أنطاكية أيضاً . وفى العام التالى (١١٣٦م) ، أدهشت كونستانس الجميع ، عندما قــررت الزواج من ريناد (أرناط) * من شاتيو Reynald of Chatillon ، ولم يكن أرناط أحد المرشحــين للزواج من كونستانس ، ولم يكن هناك اعتبارات سياســية ، للثنــاء علــى الزواج ، الذى عارضه البطريرك . غير أن أرناط كان وسيماً وشــجاعاً بتهــور ، وأن زواج كونستانس سراً منه ، كان بناءاً على رغبتها الرومانتيكية . ولسوء الحظ ، كــانت شخصيته غير منضبطة تماماً ، ولم تكن لديه موارد ماليــة ، أو أتبــاع ، أو مقــدرة سياسية . وظل أرناط حتى وفاته مغامراً متهوراً ، غير قادر على الإطلاق على الحكــم على أفعاله ، أو عواقب تصرفاته. (٤٣) وأشير بإلحاح على بلدوين الثالث عندما أعلــن موافقته على الزواج . وبمجرد انتهــاء عقد القران ، كشف أرناط عن الجانب الوحشــى فى طبيعته ، عندما ألقى القبض على البطريرك ، وأمر بتغطية وجهه بالعســل ، قبــل تركه فى العراء تحت رحمة شمس سوريا والذباب. وأجبــرت احتجاجات بلدوين القويــة أرناط على عودة البطريرك إلى منصبه، غير أنه مما لا يثير الدهشة أن البطريرك قــرر أن يعيش فى مدينة بيت المقدس لأنها أكثر أمناً له .

وفى الوقت نفسه ، أحرز بلدوين نجاحاً منقطع النظير فى الجنوب . وبحلول عــام ١١٥٠م بنى بلدوين الثالث قلعة فوق أطلال مدينة غزة القديمة ، وبذلك سد الطريق بيــن الفاطميين والجنوب وعسقلان ، وأكمل الحلقة حول هذه المدينة، "عروس سوريا " والتــى كان العمل قد بدأ بها فى عهد فولك Fulk . وفى يناير ١١٥٣م ، حشد بلدوين الثالث كل القــوات المتاحة لضرب حصار. وقاومت الحاميــة بعســقلان بعنــاد ، ولكــن برغــم الانتكاسات – لم يخفف بلدوين الثالث هجماته علــى الإطــلاق ، وفــى ١٩ أغســطس استسلمت القلعة شريطة أن يسمح للحامية بالرحيل فى أمان خلال ثلاثة أيــام . وكــانت الغنيمة ضخمة . كما تم تعيين عمورى Amalric ، أخو الملك ، وكونت يافــا ، كونتــاً لعسقلان أيضا . وعلى الرغم من أن هذه الكونتية المزدوجة ، أصبحت إحــدى إقطاعات

* أرناط : هو الاسم الذى درجت المصادر العربية على تسميته . (الشاعر) .

التاج الكبرى ، فلم يكن من العدل لأسباب عائلية ، أن يتم منح عمورى عسقلان إقطاعة له . إذ كان هوج الثانى من لوبيوزى Hugh of le Puiset ، وهو حاكم سابق لمدينة يافا ، اعتبر عسقلان كإقطاعة له فى المستقبل، وحتى قبل ١١٣٠م ، كان قد سلم مسجد عسقلان الكبير إلى دير القديسة مارى اليوسفية the abbey of St. Mary Josaphat ، وأصبح المسجد فى ذلك الحين كاتدرائية ، باسم القديس بولس ، وتم انتخاب كاهن فى هيئة كهنة القبر المقدس أسقفاً لها . ولكن بعد ذلك بوقت قصير ، احتج أسقف بيت لحم على ذلك إلى البابا ، وكان على الأسقف الجديد الانسحاب، وأصبحت عسقلان مجرد أبرشية فى أسقفية بيت لحم . وهذا يعنى أن النظام الكنسي فى عصر ما قبل الحرب الصليبية، عندما كانت بيت لحم أبرشية ، وعسقلان المدينة الأسقفية ، قد انعكس فى ذلك الحين .

ولا ريب أن الاستيلاء على عسقلان كان إنجازاً عظيماً . وبعد أن سقطت آخر قلعة للفاطميين ، أصبح الشاطئ الساحلى كلية فى قبضة الفرنجة فى ذلك الحين . وكان من الممكن فى ذلك الحين التغاضى عن المشاكل فى الشمال. لكنه كان انتصاراً باهظ الثمن a Pyrrhic Victory ، إلى حد ما . ومنذ عهد فولك الإنجوى ملك بيت المقدس (١١٣١- ١١٤٣م) ، لم تعد عسقلان تمثل تهديداً خطيراً لبيت المقدس . غير أنه ما أن سقطت عسقلان حتى بدا الطريق مفتوحاً للتوسع جنوباً حيث مصر ، بمدنها الغنية ، والتى بها مدن تحصيناتها قليلة ، والتى كانت أملاً مغرياً لمن يرغب فى الاستيلاء عليها. واستسلم ملوك بيت المقدس لهذا الإغراء. وبقيامهم بذلك ، فإنهم جنوا ثروات قيمة بعيداً عن الدفاع الشمالى ، واستفزوا نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين ، من أجل التدخل فى شئون مصر . وكانت النتيجة النهائية أن طوقت إمبراطورية إسلامية موحدة بمملكة بيت المقدس ، تطويقاً مميتاً. وأصبحت بعض النتائج الأخرى واضحةً فى الحال.

ولكى يتولى بلدوين الثالث الإنفاق على جيشه تعرض للاستدانة على نطاق أدى إلى الحد من حريته فى المناورة السياسية. ومن ثم فعلى الرغم من أن كلاً من معاهدة ١١٣٩م ، والحرص على المصلحة الشخصية الفرنجية ، تطلبت أن على بلدوين الثالث ضرورة مساعدة دمشق ضد الهجوم الأخير لنور الدين محمود فى ١١٥٤م ، فإنه فى الحقيقة كان

غير قادر على القيام بأى عمل فعال . وكان على بلدوين مراقبة تكوين إتحاد دمشق وحلب ، والذى يهدده بالخطر ، وكان قانعاً عندما عقد نور الدين هدنة ، لكى يقوى مكاسبه ، وأمر بأن تظل دمشق مستمرة فى دفع الإتاوة السابقة . وعلى الرغم مما حدث ، فقد كانت هناك مناوشات متكررة الحدوث ، على فترات قصيرة ، بين الفرنجة ونور الدين محمود ، وبخاصة فى إقليم بانياس ، فى شمال فلسطين شرق نهر الأردن .

ووصلت الشئون السورية ، مركز الصدارة فى الأهمية ، خلال تلك الفترة . ومن حسن حظ الفرنجة والبيزنطيين، أن نور الدين محمود تعرض لمرض خطير فى أكتوبر ١١٥٧م . وأجرى نور الدين استعدادات لخلافة الحكم – غير أنها لم تكن كافية لمنع أزمة سياسية من الظهور ، وبخاصة فى حلب ، حيث ثار الشيعة على الحكومة السنية . وتم قمع الثورة ، عندما تدخل الحاكم المريض شخصياً ، غير أنه كانت هناك إشارات بأن جيشه تفرق شمله لفترة قصيرة من الوقت. وقدر لنور الدين الشفاء ، بيد أن فترة نقاهته كانت طويلة ، وبعد ذلك لم يعد قادراً إبداً على إبداء ذلك النشاط الحربى ، الذى كان سمةً مميزة للفترة الباكرة من حياته . وانتهز أرناط Reynald ، حاكم أنطاكية الموقف ، وبمساعدة كل من بلدوين الثالث ، وكونت شيرى من فلاندر Count Thierry of Flanders ، الذى كان فى زيارة للأراضى المقدسة ، تمكن من استرداد قلعة حارم the Fortress of Harenc ، التى كانت تحمى أنطاكية شرق نهر العاصى ، وذلك فى فبراير ١١٥٨م .

ومع ذلك ، فبصفة عامة ، بدا أن أمير أنطاكية (أرناط) فعل كل شئ فى استطاعته ، ليجعل من نفسه شخصاً مكروهاً . وبصفة خاصة فقد أغضب كلاً من الإمبراطور البيزنطى ، والملك بلدوين بالاشتراك مع ثوروس Thoros، الأمير الأرمنى فى مهاجمة جزيرة قبرص البيزنطية الغنية فى ١١٥٦م . وانشغلت قوات أنطاكية فى الانغماس فى القيام بالتدمير، والقتل ، والسلب ، والنهب ، لمدة ثلاثة أسابيع . وكان هذه الحالة الأولى التى أصبح واضحاً أنه فى تقدير أرناط ، أن السلب والنهب ، تفوق على كل وضع معقول . وأقنع سلوك أرناط ملك بيت المقدس بضرورة التحالف مع بيزنطة . وفى ١١٥٧م ، بدأت المفاوضات التى انتهت فى سبتمبر ١١٥٨م ، بحفل رائع لزفاف

بلدوين وثيودورا ، ابنة أخت الإمبراطور مانويل ، والتى قدمت للملك مهراً Dowry قيماً، أعان الملك مؤقتاً من ارتباكه المالى. وكانت شـروط التحالف أن بلدوين سوف يوافـق على إذلال أرناط حاكم أنطاكية ، فى مقابل تلقى مساعدة مانويل ضد نور الدين محمـود. وفى خريف ١١٥٨م ، بدأ الجيش الإمبراطورى تحركه . وأذهلت المفاجأة الأرمـن فـى قيليقية تماماً ، ووجد الأمير ثورس Thoros، وقتاً ليلوذ بالفرار إلى الجبال بشق النفـس. ولم ينتظر أرناط وصول الجيش البيزنطى المتفوق عليه تفوقاً كبيراً ، فذهب أرناط للقـاء مانويل عند المصيصة Mamistra ، فى أرمينيا الصغرى . وانبطح أرناط أرضـاً عنـد قدمى الإمبراطور البيزنطى ، يلتمس الرأفة ، وهو حاسر الـرأس ، وحـافى القدميـن . وأجبره الإمبراطور على أن يعد تعيين بطريرك يونانى ، وأن يسلم قلعة أنطاكية للسلطات البيزنطية . وبعد ذلك بوقت قصير التقى الإمبراطور مانويل بالملك بلدوين للمرة الأولى ، ونجحت جاذبية الملك ، ومهارته الدبلوماسية فى استمالة الإمبراطور . ووافـق بلدويـن على تسوية خلافاته مع ثوروس أمير أرمينيا ، وألا يعترض علـى بطريـرك أنطاكيـة الأرثوذكسى ، ثم أجرى الإمبراطور مانويل مراسـم دخول انتصارى لمدينة أنطاكيـة ، فى الثانى عشر من أبريل ١١٥٩م .

ويعتقد براور Prawer ، أن بلدوين الثالث كان يخطط من أجل " حلف كبير " يضم كل القوى المسيحية فى الشرق الأدنى من بيزنطة إلى بيت المقدس ، بهدف التخلص مـن نور الدين محمود ، وغزو مصر . وإذا ما قدر لتلك الخطة الوجود ، وأن الدليل عليهـا كان ضعيفاً إلى حد ما ، فإنها سرعان ما انتهت إلى لا شيء، وبعد مرور أسـبوع علـى انتصار مانويل فى أنطاكية ، خرج ثانية ، لعقد هدنة مع نور الدين محمود ، وليس لشـن حرب ضد حلب . كما كان يأمل الفرنجة . ومع ذلك كانت شروط الهدنة دليلاً قوياً علـى المستوى الرفيع لفن إدارة شئون الدولة البيزنطية . وكانت هناك فوائد لكـل الأطـراف بشروط تلك الهدنة – حتى للفرنجة الذين اعتقدوا أنهم تعرضـوا للخيانـة والغـدر . إذ تخلص نور الدين من هجوم وشيك على يد مانويل ، وفى المقـابل نجـح مـانويل فـى الحصول على تأييد نور الدين ، للقيام بحملة ضد سلاجقة الأناضول ، الذين كانوا أكـثر خطورة على الإمبراطورية. وبالإضافة إلى ذلك ، حقق مانويل أهدافه فى قيليقية ، فعلى

الرغم من عدم قيام إدارة بيزنطية فى أنطاكية ، فقد تحقق تفوقاً فى شمال سوريا ، قدر له البقاء لعشرين عاماً تقريباً . غير أن هذا النفوذ البيزنطى الحذر ، لم يكن مقدراً له البقاء طويلاً ، بدون الضغط المستمر (الذى مارسه نور الدين على أنطاكية ، مجبراً الفرنجة ، على قبول الحماية الإمبراطورية . وقد أوجد مانويل نظاماً لتوازن القوى معقداً ، كان إمكانه البقاء طالما لم يقض نور الدين على الإمارات الصليبية . وأثبت مانويل أنه فى حالة الضرورة الملحة يستطيع التدخل بفاعلية إلى أبعد حد، إلى جانب الفرنجة . وكانت الحملة الإمبراطورية كافية لإقناع نور الدين بهذه الحقيقة ، وهكذا تتجه الفائدة إلى الفرنجة. كما أحدث مانويل وضعاً جديداً a new status quo ، فى شمال سوريا ، قدر له البقاء حتى ١١٧٦م بثمن زهيد جداً ، بالنسبة للحياة الإنسانية . وفهم الفرنجة الموقف ، عندما شن نور الدين محمود حملة ضد السلاجقة فى الأناضول ، وجعلوا عملياتهم العسكرية فى نطاق ضيق ، ولم يقوموا بهجمات جدية على القواعد السورية ، حتى لا يحدثوا خللاً بنظام توازن القوى البيزنطى. وفى إحدى المناوشات سنة ١١٦٠م ، تم أسر أرناط Renald حاكم أنطاكية . وظل أسيراً فى قبضة حاكم حلب لمدة ستة عشر سنة . ولم يقم أحد بجمع المال لدفع فديته .

وللمرة الثانية كان لا بد من إجراء الاستعدادات لأن حكومة أنطاكية والبارونات اتجهوا صوب بيت المقدس ، مثلما اعتادوا أن يفعلوا ، وليس إلى مانويل سيدهم الإقطاعى الجديد . وأسند بلدوين الثالث الحكومة فى أنطاكية إلى إيميرى Aimery البطريرك الذى عاد مؤخراً ، متجاهلاً ادعاءات الأميرة كونستانس Constance. ومن الواضح أن هذه التسوية لم تعجب كونستانس أو الأمبراطور البيزنطى . ففى ذلك الحين ، كان الإمبراطور مانويل يحاول عقد زواج جديد ، لأن زوجته الأولى برثا من سولزباش Bertha of Sulzbach ، ماتت فى ١١٥٩م . واقترح بلدوين الثالث على الإمبراطور الزواج من ميليزند Melisende ، حاكمة طرابلس ، لأنه لم يكن يرغب فى ازدياد آخر للنفوذ البيزنطى فى أنطاكية ، ولكن بعد عام من التردد ، قرر مانويل لصالح ماريا Maria ، صاحبة أنطاكية ، ابنة كونستانس ، التى كانت أمها قد راقت له ، على عكس ترتيبات بلدوين الثالث . وعلى الرغم من أن بلدوين الثالث ، كان عليه الخوف من ترسيخ

الادعاءات البيزنطية فى أنطاكية ، ونتيجة لذلك فلم يكن فى وضع يسمح لـــه بمعارضـــة اختيار مانويل ، إذ أن التحالف مع بيزنطة ، كان فى ذلك الحين حيوياً لبيــت المقــدس ، مثلما كان التحالف فى وقت ما مع دمشق . ولكن قبل حلول ١١٦٣م ، تم حســم الأزمـــة الحكومية فى أنطاكية بصفة نهائية . ففى ذلك العام طرد البارونات كونســتانس خـــارج المدينة ، وعينوا ابنها بوهيموند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠١م) .

وفى ذلك الحين مات بلدوين الثالث وكان قد ذهب فى زيارة إلى طرابلـــس وهـــو مريض ١١٦٢م . وعندما أدرك عدم احتمال شفائه ، انتقل إلى بيروت لكى يمـــوت فـــى مملكته . وكانت وفاته فى العاشر من فبراير ١١٦٣م . واســتغرق الموكـــب الجنـــائزى أسبوعاً ليصل إلى بيت المقـــدس ، وحتى السكان من غير النصارى من المعتقـــد أنهـــم أعلنوا الحداد على الملك المتوفى عندما مر جثمانه بهم على مهل . وتم دفنه بجوار أجداده فى كنيسة القبر المقدس . ولمدة تزيد على عشر سنوات قاد بلدوين الثالث مملكته بمهـــارة دبلوماسية فائقة فى علاقاته مع المسلمين من ناحية ، ومع حليفه البيزنطى صاحب السلطة المستبدة فى بعض الأحيان من ناحية أخرى . وفى سبتمبر ١١٦١م ماتت والدته ميلـــيزند بعد مرض طويل (أى قبله بحوالى عام ونصف عام) . وقدر لاسمها الخلود فى مؤسساتها الدينية ، وفى سفر المزامير الرائع الذى يحمل اسمها فى المتحف البريطانى .

ومات بلدوين الثالث دوق عقب ، ولذلك خلفه عمورى الأول الأخ الأصغر ، الـــذى كان فى السابعة والعشرين من عمره ، ويحكم يافا وعسقلان من قبل. ثم مسح البطريرك جبهة الملك بزيت البركة على سبيل تكريسه ملكاً ، ووضع التاج علـــى رأس عمـــورى. وفى بعض الأحوال ، كان هناك تشابه ظاهر بينه وبين أخيه الأكبر . فكان لـــه الأنـــف المعقوف نفسه ، والشعر الأشقر، على الرغم من أن شعره قد بدأ يتوقف عن النمو عنـــد الجبهة ومقدمة الرأس . وكان متضلعاً فى القانون ، ومستمتعاً بقراءة المؤلفات التاريخية . والواقع أن عمورى الأول هو الذى أقنع وليم الصورى ليصبح مؤرخ القصـــر الملكـــى ، وأن يكتب حولياته الشهيرة ، وأنه هو الذى أمد وليم بالكتب التاريخية العربيـــة ، والتـــى بمساعدتها كتب رئيس أساقفة صور حوليه - ولسوء الحظ مفقودة حالياً - عـــن الـــدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام. ولكن فى نواحى أخرى كان الملك الجديد مختلف جداً عـــن

الملك السابق . إذ كان متوسط القامة ، وبدين على نحو غير عادى - برغم حرصه على عدم تناول الطعام أو الشراب بإفراط . وكان أقل تعليماً مـــن أخيـــه ، وقليـــل الكـــلام ، وانطوائى، وغير اجتماعى ، ويعانى من لعثمة بسيطة. وإذا كان يشعر بالسعادة إلى حد ما فى المغامرة ، فإنه اتجه نحو ذلك لميله إلى المغامرات الغزلية . واتهمه وليم الصـــورى بالبخـــل، واضطهاد الكنيسة نظراً لمطالبه المالية. ولا ريب أنـــه أدرك إدراكـــاً كـــاملاً الحاجة إلى خزينة مليئـــة ، ولكن فمن الواضح أنه لم يكن كثير الشكوك فى الطرق التى يستعملها ، لكى تظل خزانته عامرة - مثلما علق ولـــيم الصورى على تخفيض تســـليح بلاده، بأن ممتلكمات التابع الإقطاعى فى أمان عندما يكون الحاكم نفسه لديه ما يكفيـــه . فالمال أساسى إذا ما أريد المحافظة على قوة المملكة ، وكثيراً ما حبط عمـــل السياســـات الملكية نتيجة للافتقار للمال . ولم يكن لدى عمورى نية المعاناة فى هذا السبيل ، ولكـــن بين الفينة والفينة - ومما يؤسف له - أعطى الحصول على المال ، مكانة عاليـــة غـــير معقولة فى أولويات سياسته الخارجية. وكـــان عمـــورى الأول متدينـــاً وفقـــاً للمعنـــى الاصطلاحى للكلمة - ونادراً ما كان يفوته قداس - غير أنه أصـــاب مؤرخـــه بصدمـــة شديدة عندما عبر عن شكوكه الحادة ، بخصوص بعث الأموات من القبور ، وأنه طلـــب أن يرى دليلاً مادياً على ذلك .

وفى مجال السياسة الداخلية ، كان عمورى مشرعاً ممتازاً . فقد ساعدت دراســـاته التمهـــيدية عن المحاكم الاســـتئنائية ، فى معالجة موضـــوع قضايـــا القـــانون البحـــرى والتجـــارة .

وكان الهجوم على مصر الشغل الشاغل لسياسة عمورى الخارجية .(٤٤) ونتج عن هذه السياسة، صرف الانتباه عن الهزائم التى حدثت فى الشمال، كما أدت إلى اســـتنزاف الموارد المالية ، التى كان البيت الملكى فى حاجة إليها ، والذى أصبح يعانى من العجـــز المالى تماماً . وبعد الاستيلاء على عسقلان لم تعد تلك الفرص موجودة داخل فلســـطين . وكان بلدوين قد مهد الطريق بالفعل لهذه السياسة ، عندما اتفق مـــع البـــيزيين Pisans ، فرض حظر على الأخشاب ، والحديد ، والقـــار (كل لوازم بناء السفن) إلى مصـــر . وبالطبع كانت النتيجة أن التهريب حدث للتجارة التقليدية ، ولم تكـــون عقوبـــة الإعـــدام

(الصادرة فى بيت المقدس)، ولا الأوامر البابوية التى تكررت باستمرار قادرة على منع التهريب .

ومن الطبيعى أن يتجه اهتمام عمورى إلى مصر باعتباره كان كونتاً على يافا وعسقلان . فقد أحدثت الثروة التى لا تنفذ لمواردها الطبيعية جاذبية غير عادية . ففى مصر الزراعة الوافرة الإنتاج القائمة على مياه وادى النيل . وبمصر مصايد الأسماك ، والتراكمات الطبيعية لصبغ النيلة الزرقاء ، ومناجم حجر الشب التى يسرت عمليات الصباغة لصناعة النسيج الفعالة (الحرير ، والكتان ، والقطن) . وكانت تلك المناجم احتكار حكومى ، مثل كثير من الأشياء الأخرى المهمة . وبمصر صناعة الصابون المراهم ، وسن الفيل أيضاً . وتجنى مصر أرباحاً طائلة نتيجة التحكم فى مرور السلع التجارية بين الهند من ناحية وبيزنطة والغرب من ناحية ثانية . وعلى سبيل التناقض ، كان المسرح السياسى المصرى فى حالة من الفوضى. وعانت السلطة الحاكمة الفاطمية من النهاية المأساوية لكل الخلفاء الفاطميين لفترة طويلة من الزمن ، إذ أنها تحولت إلى ألعوبة متفسخة فى أيدى الوزراء الأقوياء ، وفى تلك الفترة ، كان كل من ضرغام وشاور فى حالة صراع شرس من أجل السلطة . وتفشت البيروقراطية على غير العادة، وكان النظام الإدارى المالى معقداً ، لدرجة أنه استمر معروفاً للموظفين الأقباط حتى القرن التاسع عشر ، وهم الذين كانوا من جهة نظر الفلاحين ، على أنهم يبتزون أموال الغير ، ونظر إليهم حكام مصر ، على أنهم يمارسون الاحتيال والخداع . ومن الواضح أن نور الدين محمود أصبح بلا ريب منافساً لعمورى فى هذا الجزء من العالم . وعندما تم تحييد سوريا بعد ١١٥٨م كان من المؤكد أن تصبح مصر ميداناً حاسماً فى الصراع بين الفرنجة والمسلمين . ومن ثم بعد أن قام ضرغام بطرد شاور من مصر فى ١١٦٣م، اتجه شاور إلى نور الدين محمود طلباً للمساعدة . وفى بداية الأمر تردد نور الدين محمود نظراً لما لديه من مشاكل جمة فى سوريا ، غير أنه قرر فى نهاية الأمر، إرسال جيش إلى مصر . تحت قيادة القائد الكردى أسد الدين شيركوه ، وعاد شاور إلى السلطة ، غير أنه اختلف مع شيركوه على الفور، وكان مضطراً للبحث عن حليف جديد فى شخص عمورى الأول ملك بيت المقدس . وكان عمورى قد قام بهجوم

قصير الأمد على مصر فى ١١٦٣م ، والآن فى ١١٦٤م ، قام بمحاصرة شـيركوه فـى مدينة بلبيس فى الوجه البحرى , فبدأ وضع شيركوه يبدو محفوفاً بالمخاطر ، ولذلك سارع نور الدين محمود ، بشن هجوم كبير على الإمارات الصليبية السورية ، لشـعوره بـأن التوازن فى الشرق الأدنى ، قد تعرض للاختلال . وألحق نور الديـن محمـود هزيمـة ساحقة بجيش مشترك من أنطاكية وطرابلس ، وأسر بوهيموند الثالث حـاكم أنطاكيـة ، وريموند حاكم طرابلس ، وذلك فى أغسطس ١١٦٤م عند بلـدة أرتـاح Artah . وتـم إطلاق سـراح بوهيموند الثالث بعد قليل ، غير أن أرناط ظل فى الأسر ، لمـدة عشـر سنوات ، فى حين حكم الملك عمورى إمارة طرابلس كوصى عليها . وسـقطت قلعـة حارم فى أيدى المسلمين مرة ثانية، وتراجعت حدود أنطاكية إلى نهر العاصى ، فى تلـك المرة حتى نهاية إمارة أنطاكية. ولم ينتهز نور الدين محمود الفرصة فى مهاجمة المدينـة ذاتها حتى لا يستفز بيزنطة ويثير غضبها . وحقق هجوم نور الدين محمود هدفه عندمـا توصل عمورى وأسد الدين شيركوه إلى تفاهم ، وانسحبا من مصر .

وفى السنة التالية (١١٦٥م) أجبر نور الدين محمود الأمراء الصغار فى سـوريا الذين كانوا فى وضع شبه مستقل ، على الاعتـراف بنفوذه وسيادته . ثم أمر نور الديـن محمود قائده أسد الدين شيركوه بقيادة حملة أخرى إلى مصر فى عام ١١٦٧م. وإذا كـان عمورى حريصاً على المحافظة على توازن القوى ، فإن عليه أيضاً التقدم نحو مصـر . واجتمع مجلس البلاط الملكى فى نابلس. وقرر هذا المجلس شن الحرب ، وفرض ضريبة قدرها عشرة فى المائة على الممتلكات المنقولة . ثم اتجـه الجيش الفرنجى إلى النيـل ، ووافق شارو بسرور على التحالف ، بهدف القضاء على شـيركوه . وفى مقابل ذلك وعد شارور بدفع أربعمائة ألف دينار من الذهب لعمورى. وأصر يوج حاكم قيصريـة Hugh of Casarea ، الذى أجرى تلك المفاوضات نيابة عن الفرنجة، على ضرورة أن يصـدق الخليفة عليها . وعلى هذا الأساس ، ذهب الوفد الفرنجى المفاوض إلى قصـر الخلافـة بالقاهرة ، وأصابت الوفد الدهشة عند رؤية الساحات الفخمة وبها أحـواض الأسـماك ، والأقفاص الكبيرة وما بها من طيور . وفى ذلك الحين طـالب يـوج Hugh بضـرورة إقرار الخليفة للمعاهدة عن طريق المصافحة، وهذا دليل بليغ على الثقة بالنفس الجريئـة

عند الفرنجة. وكان هذا الأمر بغيضاً تماما فى تقدير رجال حاشـية الخليفـة ، غـير أن سخطهم بلغ مداه ، عندما عبر يوج عن عدم رضاه عندما قدم الخليفة يده داخـل قفـاز ، وأصر يوج على ضرورة خلع الخليفة لقفازه .

وبعض التعرض لبعض النكسات الأولية فى الوجه القبلـى ، نجـح الحلفـاء فـى محاصرة شيركوه بالإسكندرية ، وإجباره على عقد اتفاق سلام. وللمرة الثانية وافق كـل من شيركوه – وعمورى مرة ثانية على مغادرة مصر ، وعودة الحال على ما كان عليـه من قبل . غير أن الفرنجة قد جنوا الكثير . فقد ظل التحالف مع شاور قائماً فـى مقـابل إتاوة Tribute ، سنوية مقدارها مائة ألف دينار تدفعها الدولة الفاطمية للفرنجـة . كمـا رفرف علم ملك مملكة بيت المقدس على منارة الإسكندرية ، وبقيـت حاميـة عسـكرية فرنجية بالقاهرة ، وبذلك أصبحت مصر نوعاً من الدولة الواقعة تحت الحماية الفرنجية .

وبعد عودة عمورى مباشرة من مصر ، عمل على تقوية التحالف مـع بيزنطـة ، بزواجه من ماريا كومنينا Maria Comnena ، الابنة الكبرى لشقيق الإمبراطور . وبعـد مفاوضات مطولة ، تم إنجاز هذا الزواج ، وحفلة التتويج فى مدينـة صـور بـدلاً مـن العاصمة ، لأن خلال الوقت القصير بين عودة عمورى مـن مصـر والـزواج ، كـان عمورى قد منح المغامر البيزنطى – والذى صار إمبراطوراً فيمـا بعـد – أندرونيـق كومينين Andronicus Comnenus حق دخول المملكـة اللاتينيـة ، ومنحـه بـيروت كإقطاعة. وكان أندرونيق قد أساء إلى الحكومة فى القسطنطينية. وأحرج القصر البيزنطى بصلاته الغرامية فى وقت لا يسمح بذلك . وكان أندرونيق قـد اختلس المـوارد الماليـة العامة لقبرص ، وقيليقية البيزنطية قبل هروبه من حنق الإمبراطور إلى فلسطين . ولـم يضعف هذا من انجذاب عمورى الشديد الجشع إليه . ومن ناحية ثانية فقد خاطر بفقـدان البائنة Dowry ، الثمينة جداً التى حصل عليها من عروسه، بل والزيجة كلها ، إذ كـانت أنباء إيوائه أندرونيق قد تسربت قبل إتمام حفل الزواج. فعلى الأقل كان فى مقدرة بيزنطة خصم المبالغ التى اختلسها أندرونيق فى مكان آخر من بائنة ماريا Maria . وظهـر أن الاستعدادات كانت دقيقة ، ليس فقط لحقيقة أن معالجة المسألة قد استغرقت عامين كاملين، فى مفاوضات ، ثم انتهت تلك المفاوضات على وجه السرعة ، فى مكان غير مناسب ،

ولكن أيضاً نتيجة الظروف ، التى خالفت كل الأعراف ، فقد تم تتويج ماريـــا أولاً ، ثـــم تزوجت من عمورى . ويبدو أن الحكومة فى القسطنطينية أصرت علـــى هـــذا التتـــابع للأحداث للتأكد من أن ماريا سوف لن تبقى غير متوجة – فقبل ذلك فى عـــام ١١٦٥م ، تزوج بوهيموند الثالث حاكم أنطاكية ، إحدى بنات شـــقيقة مـــانويل Manuel ، وعيـــن بطريركاً يونانياً بأنطاكية . وتم طرد البطريرك اللاتينى إلى المنفى ، وبقى هنـــاك حتـــى مات البطريرك اليونانى مدفوناً تحت أنقاض كاتدرائية أنطاكية نتيجة لزلـــزال ١١٧٠م . وتوطدت ثقة عمورى بعقده معاهدة تحالف مع الدولة البيزنطية ، وبرغم اعتقـــاده بعـــدم مقدرته فى ذلك الحين فى الاستيلاء على مصر ، فإنه شرع فى القيـــام بمغـــامرة ســـنة ١١٦٨م . ولم يبد عمورى اهتماماً بانتظار وصول الأسطول البيزنطى الذى كان أساســـياً فى حالة محاصرة مصر بحراً. وبدلاً من ذلك سمح عمورى لنفسه بالرضوخ للمحـــاربين من بين رجال الدولة القائلين بأن شروط ١١٦٧م، كانت متساهلة مع المصريين . وبنـــاءاً على نصيحتهم شن هجوماً غير مدروس جيداً . وعنـــد عـــودة وليـــم الصـــورى مـــن القسطنطينية ، بعد نجاحه فى التفاوض على الاتفاق ، وجد أن الجيش قد تحـــرك بـــالفعل (فى أكتوبر ١١٦٨م). إذ فى اعتقـــاد الفرنجة أنهم قد اقتسموا غنائم مصر . فالأســـبتارية هم قادة الجانب المحارب، بشروا أنفسهم بحصص وافـــرة من الغنـــائم ، فـــى حيـــن أن الداوية (فرسان المعبد) رفضوا المشاركة – إما بدافع الالتزام بالوفاء بشروط المعادة مع شاور ، أو بسبب مصالحهم الاقتصادية فى مصر . ثم اتجه شاور إلى شـــيركوه ، فـــى لحظة يأس طالباً المساعدة ، وفى الوقت نفسه انتهـــج سياســـة إتـــلاف وحـــرق الأرض والممتلكات قبل التخلى عنها للعدو a scorched policy ، لكســـب الوقـــت . واســـتولى الفرنجة فى نوفمبر ١١٦٨م على بلبيس ، ثم حاصروا القاهرة . غير أن الصليبييـــن لـــم يتمكنوا من أجبار جيش شيركوه – الذى حضر للنجدة – على خوض المعركة ، وكذلـــك قرر عمورى الغاء هجومه . ولم يتمكن عمورى من الاستيلاء على مصر لعدم وجود ما يكفى من اللاتين من أجل السيطرة على مصر ، مثلما حدث فى الإمـــارات الصليبيـــة . وعلى الرغم من عدم إحراز عمورى لنجاح حاسم فى مصر ، فإن سياسة التوسع الإقليمى فى هذا الاتجاه ، كانت تعنى أن عمورى ، قد عاد تماماً إلى ما أسماه المـــؤرخ بـــراور

Prawer " العصر الذهبى " للسياسة الخارجية لبيت المقدس . تلك كانت سياسة ضمـــان بقاء الإمارات الصليبية الشمالية لكى تستطيع الصمود كحصون مدافعة عن بيت المقدس . ووفقاً لهذا المبدأ اتجه ملوك بيت المقدس شمالاً مراراً وتكراراً إلى حوالى ١١٥٠م، إمـــا على رأس جيش ، أو للإشراف على ترتيبات الوصاية على الحكم. والحقيقة أن التحييـــد لشمال سوريا الذى قامت به بيزنطة ، كان يعنـــى أن التغـــيرات فـــى البنـــاء السياســـى والعسكرى لهذا الإقليم، كان غير وارد فى ذلك الحـــين، برغم أنه مازال من الممكن لبيت المقدس تقديم قدر من الحماية للإمارات الشمالية .

وتقدم شيركوه صوب القاهرة فى الثانى من ينـــاير ١١٦٩م . ووجـــد شـــيركوه أن شاور عدوه القديم قد لقى حتفه ، ومن ثم تولى وظيفة وزير بدلاً منه. وبعد شهرين مـــات أسد الدين شيركوه ، وخلفه فى الوزارة ابن أخيه ، صلاح الدين (الملك الناصر صـــلاح الدين يوسف (١١٦٩ – ١١٩٣م) . (٤٥) وقدر لصلاح الدين أن يكون أشـــد خصـــوم الفرنجة بأساً ، الذى كان عليهم مواجهتم. وفى القرن الثالث عشر كان السلطان بيـــبرس عدواً قوياً ، بيد أنه لم يحظ على الإطلاق بالاحترام العام فى كل أرجاء العالم الإسلامى ، مثل صلاح الدين ، وينتمى صلاح الدين إلى أسرة عسكرية كردية. وتربى صلاح الديـــن فى بعلبك ، حيث عمل والده حاكماً لها . وكان هذا المقاتل الشاب ممتازاً بصفة أساســـية فى لعبة الكرة Polo (لعبة رياضية شبيهة بالهوكى، تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية) . ومنذ ١١٥٢م عمل صلاح الدين ضمن الحرس الخـــاص لنـــور الدين محمود ، ثم شارك عمه شيركوه فى حملاته إلى مصر . وبعد أن اعتلـــى كرســـى الوزارة ، تكشفت قدراته . وعلى الفور قام صلاح الدين بالقضاء على الجيش المصـــرى السودانى ، وبنى تنظيماً عسكرياً خاص به . وتنسب له قلعة بناها فى القاهرة للدفاع عن المدينة ضد أى هجوم فرنجى محتمل . وفى ١١٦٩م تمكن صلاح الدين تبديد شمل هجوم فرنجى على دمياط ، برغم أن بيزنطة ساندت الفرنجة بأسطول بحرى هذه المرة . وفـــى ١١٧٠ م قام صلاح الدين بشن هجوم معاكس . واسترد صلاح الدين من اللاتيـــن غـــزة وأيلة ، ميناءهم على البحر الأحمر . وكما سيطر على الوجه القبلى ، وعلى شبه الجزيرة العربية واليمن وعلى طرق التجارة إلى شرق آسيا. وبعد التردد فى بداية الأمر ، قضـــى

صلاح الدين على حكم الأسرة الفاطمية ، فى سبتمبر ١١٧١م ، وعندما أمر بالدعاء للخلفاء العباسيين فى صلاة الجمعة . ومن ثم عادت الوحدة للمذهب السنى . ولم يكن هناك أى رد فعل شعبى لهذا الإجراء ، مما يشير إلى أن المذهب الشيعى ، كان له تأثير قليل على الشعب المصرى . ومن الناحية الرسمية ، ظل صلاح الدين وزيراً ، تحت قيادة نور الدين محمود ، بيد أنه كان سلطاناً لمصر من الناحية العملية . ومن المحتم أن هذا أدى إلى توتر العلاقات مع نور الدين. الذى أضاف إلى سيطرته كلاً من الموصل وبلاد ما بين النهرين فى ١١٧٠م . ونظر كلاهما إلى منطقة نفوذه على أنها المركز الحقيقى للدولة الإسلامية ، كما رفض صلاح الدين السماح لنور الدين بمعاملة مصر على أنها مجرد مصدر لجمع الأموال للإنفاق على حروبه فى بلاد الشام . ولم تكن المسألة قد سويت بعد عندما حسمها القدر لصالح صلاح الدين، ففى الخامس عشر من مايو ١١٧٤م، مات نور الدين فى دمشق. وعاش نور الدين حياة بسيطة ، والتزم بممارسة الشعائر الدينية . وكانت رزانته متجهمة ، ونادراً ما كان يضحك. وبعد مرور قرن على سيطرة السلاجقة الرحل the nomadic Seljuks على بلاد الشام ، تمكن نور الدين من تقوية إقتصاد البلاد كثيراً. غير أن أعظم إنجازه كان حركة الإحياء الاسلامى سياسياً ودينياً ، وتطبيقه فكرة الجهاد ، فى محاربة الفرنجة. حتى أن المؤرخ اللاتينى ، وليم الصورى ، كان عليه إحترام نور الدين محمود .

وبعد مرور شهرين على وفاة نور الدين محمود ، مات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ١١ يوليو ١١٧٤م ، لإصابته بمرض الديسنترى dysentery (الديسنتاريا). وفى ١١٧١م حظى عمورى الأول باستقبال رائع فى القسطنطينية . وعلى أية حال اعترف عمودى بمانويل الإمبراطور البيزنطى ، بأن له نوعاً ما من السيادة الإقطاعية ليس واضحاً ، (٤٦) ولكن لا ريب أن مانويل كان مهتماً بفعالية بالشئون الفلسطينية فى ذلك الوقت على نحو غير عادى . فقام مانويل بترميم كنيسة القبر المقدس ، وأمر بإرسال فسيفساء جديد إلى كنيسة الميلاد فى بيت لحم . وفى ١١٧٣ م ظهر فجأة رئيس أساقفة بيزنطى ، وجماعة من القساوسة البيزنطيين عند القبر المقدس . وفى ذلك الحين ، تم إعادة شكل الزى الرسمى لملوك بيت المقدس ، وفقاً لنموذج زى الإمبراطور البيزنطى،

حتى أن أوستاثيوس من سالونيكا Eustathius of The Salonika ، إنتقـد الملـك لأنـه ظهر، كما لو كان إمبراطوراً . (ومن المهم أن هذا الزى تـم إبطالـه ، بعـد سـقوط القسطنطينية ١٢٠٤ م) . وبوضوح كان عمورى معتمداً تماما على بيزنطة . وكحاكم لـم يكن لدى عمورى أى موهبة غير عادية بخصوص بعد النظر ، بيد أنه كـان مقـاتلاً لا يعرف الكلل . أما فى الشئون الداخلية ، فكانت له سيطرة قوية ، وفقاً لمـا تسـمح بـه الظروف. ومنذ ١١٦٩ م قاد الشيخ القوى رشيد الدين سنان (ت ١١٩٣م) الحشاشين فى بلاد الشام (جماعة ظهرت فى عهد الحروب الصليبية) ، واشتهر هذا الشـيخ " بشـيخ الجبال " (٤٧) ، وهو الذى حاول تكوين حلف مع عمورى الأول ضد نور الدين محمـود السنى المذهب ، ويبدو أن المفاوضات حققت نتائج طيبة . ثم إغتال أحد فرسان الدوايـة Templers رسل الحشاشين ، أثناء عودتهم إلى موطنهم .عند ذلك لم يتردد عمورى فـى إستخدام القوة فى القاء القبض على القاتل، ثم أمر بمعاقبته على الرغم من أن هذا خـرق لامتيازات النظام الديرى لفرسان الداوية، والتى جعلت أعضاء هذا النظـام لا يحـاكمون سوى أمام البابا فقط . ومع ذلك ، فمن الناحية النظرية الكلية ، كان عهـده الرائـع مـن الناحية الخارجية ، يحمل فى داخله بذور الاضمحلال الداخلى .

وكان وريث عمورى ابناً فى الثالث عشر ، ومريضاً على نحو خطير . ولم يكـن هذا بشير خير لمملكة بيت المقدس . فلم يزل شمال بلاد الشام يعانى من زلـزال ١١٧٠م الرهيب الذى كان قد حول أنطاكية وطرابلس إلى أنقاض. وأخيراً فمن سوء الطـالع ، أن تعرضت بيزنطة لانتكاسة فاجعة . ففى ١١٧٦م تعرض الإمـبراطور مـانويل كومنيـن لهزيمة منكرة على أيدى سلاجقة الأناضول عند ميريوكيفالوم Myriocephalum فى إقليم فريجيا Phyrgia . وفى أعقاب الهزيمة، أصبح واضحاً على الفور ، أن الاقتصاد القـائم على مضاعفة الجهد هو الممكن الوحيد فى جعل سياسة مانويل الخارجية رائعة. وبـدون مبالغة يمكن القول بأن معركة ميريوكيفالوم – بمقارنتها بنتـائج معركـة مـنزكرد فـى ١٠٧١م – حددت مصير الوجود الصليبى فى بلاد المشرق Outremer . وأخيراً صارت الأناضول من نصيب السلاجقة ، وضعفت مكانة بيزنطة تماماً فى قيليقية وبلاد الشـام ، وانتهى نظام توازن القوى ، وفقد الفرنجة حاميهم والمدافع عنهم . ولم يعد هناك حلفـاء آخرون ، وبخاصة بعد فشل الحملة الفرنجية الصقلية المشتركة علـى الإسـكندرية فـى

١١٧٤ م ، بسبب نشاط صلاح الدين وقوته والدعم الفرنجي الذى كان غير كافٍ . وما لم تأتى مساعدة من الغرب فستقف الإمارات الصليبية بمفردها تماماً . وكلما ازداد الخطـر على وجود الإمارات الفرنجية .

وبعد وفاة نور الدين محمود زنكي تفسخت الإمبراطورية التى أقامهـا والـده . إذ تنافس جماعة من قادة جيش نورالدين ، وناضل كل منهم بغية القيام بالوصاية على ولـده الصغير . وفى ١١٧٤ م ، إحتل صلاح الدين دمشق لاعتقاده بأنه الوريث الحقيقى للخطط الطموحة لنور الدين محمود . وبعد ذلك بعامين تزوج صلاح الدين من أرملة نور الديـن محمود ، وكان قادراً على التوصل إلى تسوية مع البيت الزنكى، على الرغم من أن هـذا استلزم بقاء حلب والموصل ، فى أيدى إثنين من أفراد ذلك البيت . وفـى ذلـك الحيـن إعترف الخليفة بصلاح الدين كحاكم لمصر والشام . وكانت الإمارات الصليبية فى حالـة تطويق تامة من جميع الاتجاهات ، وعزم صلاح الدين على الاسـتفادة بالكـامل مـن منصبه ، فى تنفيذ البرنامج الذى كان نور الدين محمود ، قد تحدث عنه علانيـة ، منـذ بداية ١١٦٩ م ، عندما عين إماماً للمسجد الأقصى بالقدس . ومنذ ذلك الحيـن فصـاعداً صار استرداد بيت المقدس الهدف المهيمن .

واستغل صلاح الدين السنوات القلائل التالية فى بناء قوته . وأوضحـت حمـلات الفرنجة فى ١١٧٧م ، ١١٧٩م ، أنه لا يمكن أن يتوقع مساعدة كبيرة من البيت الزنكـى فى حلب والموصل . وعلى العكس من ذلك فقد شكلوا خطراً دائما لمركزه . وعلى أيـه حال فقد أوقف صلاح الدين محـاربة النصارى ، وبدلاً من ذلك ركـز علـى منافسـيه المسلمين من سنة ١١٧٩ م حتى سنه ١١٨٥ م * . ولم تكن هناك فرصة لشن معركـة فاصلة ضد الفرنجة قبل أن يخضعوا لسيطرته . واستخدم صلاح الدين المجموعة المؤتلفة من الدبلوماسية ، والدعاية، واستعراضات القوة العسكرية التى كان يستخدمها نور الديـن محمود ضد دمشـق. كما تحـالف صلاح الدين مع السلطان السلجوقى الأناضولى قـلج

* الواقع أن صلاح الدين كان حريصاً للغاية على توحيد الجبهة الإسلامية لخوض معركـة فاصلـة ضـد الصليبيين . (الشاعر) .

أرسلان الثانى سنة ١١٨٠م . وكان هذا التحالف موجها ضد الموصل فى البداية ، ولكن فيما بعد ثبت أن له أهمية كبرى ، فى مواجهة تهديد الحملة الصليبية الثالثة . وفى سنة ١١٨٢ منع صلاح الدين إتحاداً بين حلب والموصل كان على وشك الحدوث ، وفى سنة ١١٨٣م وضع حلب تحت سيطرته. وفى ١١٨٥م ، عقد هدنة مع الفرنجة لمدة أربع سنوات . وأعطته هذه الهدنة حرية المناورة التى احتاج إليها للتعامل مع الموصل . وانتهز صلاح الدين الفرصة على الفور . إذ أن ارتباط الموصل القوى بنظام أحلاف صلاح الدين كان يعنى أن قوة جيشه ازدادت حوالى ستة آلاف مقاتل .

وبحلول ١١٨٧ م كان جيش صلاح الدين حوالى إثنى عشر ألف فارس الغالبية العظمى منهم من الأكراد . إن نظام الإقطاعات الحربية للإنفاق على المقاتلين أوجدت مشاكل كثيرة لصلاح الدين . وكانت الأجور تدفع عيناً بالإضافة إلى النقد ، وهذا يعنى أن المستفيد كان عليه البقاء فى إقطاعاته للإشراف على المحصول . ومن ثم كان من الصعب جداً ، بقاء جيش فى ميدان المعركة فترة طويلة من الوقت . على أن التغلب على هذه المشكلة ، فرض إجهاداً شديداً ، على خزانة صلاح الدين ، وأدى إلى وجود نظام قوائم للجند ، معقد للغاية ، بين بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ، والقوات المصرية . وعلى أية حال ، فنظراً لأن صلاح الدين لم يكن عبقرياً من الناحية المالية ، وكان مستقيماً بصرامة – وهى مصدر قوته السياسية – فإنه اضطر لإلغاء كل الضرائب غير المتعارف عليها ، وكان مفلساً بصفة دائمة تقريباً . إذ أن كل ما يملكه أو يحصل عليه ، يوزعه بسخاء على أقاربه وأنصاره . وقامت الدولة الأيوبية على نظام عائلى شبه إقطاعى حيث كان أتباعه الكبار من أمراء السلالة الحاكمة. وكان لكل من كبار الأمراء سيطرة مستقلة على إقليمه ، بيد أنه كان ملزماً بأن يحكم بالعدل ، والمساعدة فى تمويل حروب السلطان ، وتقديم القوات المحاربة . ولكل أمير أيوبى له أتباعه الإقطاعيين ، والكل يتمتع بقدر محدود من الاستقلال ، ويليهم إقطاع المستأجرين للأرض . كما أن الدولة التى حكمها صلاح الدين ، لم تشبة الدولة المركزية الموحدة ، وإنما مجرد حقيقة أن وزيراً كان معيناً لمساعدة كل أمير ساعد على تحقيق نظام واحد فى الحكم إلى حد ما. وكانت الوظائف الرئيسية الثلاث فى الحكومة المركزية بمصر هى ديوان الجند، وديوان

بيت المال ، وديوان القضاء . ومع ذلك كان صلاح الدين رجل إدارة دون مستوى الكفاية، وفى العادة ترك تلك الأمور لأخيه العادل ، ولوزيرة القاضى الفاضل . وبصفة عامة كان صلاح الدين بارعاً فى التكتيك الحربى ، بيد أنه لم يكن بارعاً فى الاستراتيجية. وكان صلاح الدين رجل سياسة بكل ما فى الكلمة من معنى ، فقد كانت خططه السياسية ناجحة ، لأنها كانت معدة إعداداً جيداً على الدوام ومناسبة للموقف المحدد . وكان صلاح الدين مدفوعاً بإيمان راسخ لا يتزعزع بأنه قدر له القيام بتوحيد المسلمين . وطبقاً لما ذكره المؤرخ جيب Gibb ، كان الهدف الأكبر لصلاح الدين هو طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة ، وإعادة دولة الخلافة القديمة للوجود . وأراد أن يضع حداً ، للفوضى السياسية الواضحة ، التى عاشها المسلمين ، لفترة طويلة من الوقت. وأوجد هذا مشكلة أخلاقية ، وأخرى سياسية كما أن الطرق التى استخدمت فى الحل كانت أخلاقية كذلك . وأثبت صلاح الدين أنه موضع ثقة دون أدنى ريب فى معاملاته مع الصديق والعدو . ونادراً ما نقض صلاح الدين عهده – وكان ذلك موقفاً غير عادى تقريباً بمعايير عصره . وعلى أية حال ، رأى صلاح الدين أنه نجح لاعتماده إلى حد كبير على السلطة الأدبية ، التى يمتلكها فى العالم الإسلامى . ونظراً لشهامة صلاح الدين، فقد أصبح شخصية بارزة ومحبوبة فى الشعر الأوربى فى أواخر العصور الوسطى .

وبحلول ١١٨٥ م كانت كل القوى الرافضة للفرنجة فى مكانها الصحيح . وبفضل براعة صلاح الدين الدبلوماسية ، فقد حاول عزل ضحاياه المقصودين عن كل الحلفاء الأقوياء . وأنشأ صلاح الدين أسطولاً بحرياً مصرياً تدريجياً وبجهد ، وفى الوقت نفسه حاول إقناع المدن البحرية الإيطالية ، لتحويل تجارتهم إلى مصر ، لكى يحرم الفرنجة من الاستفادة من هذه الناحية . كما أجرى اتصالات دبلوماسية مع بيزنطة أيضاً . وبعد وفاة الإمبراطور مانويل Manuel فى ١١٨٠ م ، حكمت أرملته ، ماريا الأنطاكية Maria of Antioch كوصية على العرش . وكانت سياستها مقبولة من اللاتين أكثر من سياسات زوجها مانويل ، وفى ١١٨٢ م انفجرت التوترات فى القسطنطينية بين اللاتين والإغريق وتحولت إلى مذبحة دموية للتجار الغربيين. وانتهى الحزب اللاتينى ، وظهر إمبراطور

جديد ، وهو أندرونيكوس كومينينـــوس Andronicus Comnenus (١١٨٣ - ١١٨٥م)، وهو رجل قوى له سيرة ذاتية جسورة . ولا ريب أنه كان معادياً للاتين ، ولذلـــك توقـــع التهديد الرئيسى لمركزه ، أن يأتى من أوربا، وليس من الألمان لأن الخلاف معهم بشـــأن "مشكلة الإمبراطورين" ، الذى يخص مجال المثل العليا بصفـــة أساســـية ، وأن التهديـــد الحقيقى كان من النورمان . وفى ١١٨٤ م توثقت علاقة النورمان بالإمبراطور الغربـــى نتيجة لزواج كونستانس Constance ، الأميرة النورمانية من هنرى الرابع Henry VI ، ابن الإمبراطور فريدريك برباروس Barbarossa . وفى ١١٨٥ م نهب النورمان مدينـــة سالونيكا بعد الاستيلاء . وفى تلك الظروف شعر أندرونيكوس بأنه مضطر للتوصل إلـــى تفاهم مع صلاح الدين (١١٨٥م) . وأكمل ذلك عزل الإمارات الصليبية . وقيـــل الكثـــير على مهارة صلاح الدين السياسية، لأنه كان قادراً على الاحتفاظ بالبيزنطيين والســـلاجقة فى الأناضول كحلفاء له .

وفى الوقت الذى علا فيه نجم صلاح الدين ، خبى نجم الفرنجـــة . (٤٨) وعندمـــا انتهى الزواج الأول للملك عمورى الأول (١١٦٣ - ١١٧٤م) بالفشل ، حرص التـــأكيد على أن ثمار هذا الزواج من الأطفال هم أطفال شرعيون . ونظراً لعدم إنجاب عمـــورى الأول ذكوراً ، فقد خلفه بلدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م) . وكان وليم الصورى مســـئولاً عن تعليم بلدوين الرابع ، وليس له فضل عليه فى سجايا خاصة ، فيما عـــدا المثـــابرة ، والصبر ، والقدرة على ركوب الخيل . وكان بلدوين الرابع قد أصبح ضحيـــة لمـــرض الجذام Leprosy فى طفولته. وشوه هذا المرض مظهره ، وأدى إلى شلل مستفحل متدرج ببطء فى أطرافه ، أجبره فى النهاية على استخدام محفة a litter بدلاً من ركوب الخيـــل. وكانت خلافة بلدوين الرابع للعرش علامة لانتصار حاسم لفكرة حق الوراثـــة . وكـــانت نهايه مأساوية من الناحيتين السياسية والشخصية . وبذل بلدوين الرابع جهـــوداً مضنيـــة لإنقـــاذ مملكته ، ولمنع انقسام البلاد إلى حزبين متعارضين تعارضـــاً شـــديداً. علـــى أن مرض بلدوين الرابع أجبره على تعيين وصى . وكان الوصى الأول قريبـــه ، الكونـــت ريموند الثالث حاكم طرابلس فى فترة ما قبل بلوغه سن الرشد حوالى ١١٧٦م . ولما كان ريمـــوند متزوجاً من إستثيفا Eschiva ، أرملة أمير الجليل، فقد كـــان ريمونـــد حاكمـــاً

لطبرية أيضاً، ومن ثم كان تابعاً إقطـــاعياً لملك بيت المقدس . وبتمالك شـــديد لنفســـه ، انتهج ريموند البالغ من العمر ٣٤ عاما ســـياسة دفاعية حكيمة إذ كان يتطلع دائما إلـــى عقد تسوية مع المسلمين الذين كان قد عرفهم جيداً إبان الفتره الطويلة التى قضاهـــا فـــى الأسر . وكان ريموند زعيماً للزمرة التى يمكن أن يطلق عليها حزب الأسر القديمة إلـــى حـــد ما . والزمرة الأخرى كانت تتكون من عناصر أكثر تبايناً . وكان الفريـــق الثـــانى تحت هيمنة الوفود القـــادمة الحديثة ، ورجال الجيل الأول فى الأرض المقدســـة الذيـــن كانوا تواقين للبحث عن الإثارة وحيازة الممتلكات . وكان رينالد (أرناط) مـــن شـــاتيو Reynald of Chatillon أحد قادتهم ، وكان قد تم إطلاق سراحه من الأسر مـــن أيـــدى المسلمين ، غير أنه لم يتمكن من العودة إلى أنطاكية .. ثم ذهب أرناط إلى إمارة شـــرق الأردن المهمة وصارت تحت سيطرته بعد زواجه من أميرتها التى كانت أرملـــه وبذلـــك سيطر على تلك الإمارة ، والتى فى منتصفها قلعة الكرك المهمة والشهيرة . وانضم إلـــى أرناط جوى Guy ، وعمورى من لوز جنان، وجوسلين الثالث من كورتنـــاى ، الكونـــت الشرفى للرها titula count of Edessa (١١٥٩ - ١٢٠٠ م) ، إذ أنه كان كونتاً بـــدون كونتية . وبلغ أرناط مرتبة أسمى ليصبح وكيلاً لحاكم بيت المقدس، ونجح فى إقامة دوقية عرفت باسم دوقية جوسلين Joscelin فى إقليم عكا . وكانت هناك أيضاً أخته ، آجن من كورتيناى Agnes of Courtenay ، وهى والدة الملك ، والتى مارست نفوذاً غير ملائـــم بوضوح على بلدوين ، حتى أن وليم الصورى لم يكن قادراً على إجراء تـــوازن لذلـــك السلوك . وكان وليم (ت ١١٨٦م) ، قد أصبح مستشاراً للملك فـــى ١١٧٤م ، ورئيســـاً للأساقفة فى العام التالى .وحتى ١١٨٠ م ظل وليم المستشار السياســـى الأول للملـــك ، ويعمل على تدعيم التحـــالف مع بيزنطة ، الذى كان يؤيده ، منذ عهد الملـــك عمـــورى الأول . بيد أن هذا التحالف انهار نتيجة لمذبحة اللاتين فى ١١٨٢م. وبعد ١١٨٦م مالت التنظيمات العسكرية الديرية إلى مساندة حزب رينالد من شاتيو لأن رئيس الفرسان الداوية جيرارد من ريدفور Gerard of Ridfort ، كان لديه شعور بالحقد الشخصى المرير ضد ريموند الثالث حاكم طرابلس ، الذى كان قد رفض السماح له بالزواج من وريثة غنية من أتباعه الإقطاعيين ، قبل دخول جيرارد تنظيم الداوية العسكرى . وعندما وافقـــت آجـــن

Agnes ، الملكة الأم ، على تعيين هرقـل رئيس أساقفة قيصرية ، الحقير مـن الناحيـة الأخلاقية ، فى ١١٨٠م (ت حوالى ١١٩٠ - ١١٩١م)، كبطريرك لبيت المقدس ، حيث عارض وليم الصورى تعيينه ، عند ذلك اكتملت تكتلات الأحزاب . وبذلك تم استبعاد وليم الصورى عن الشئون السياسية أكثر فأكثر. وأيدت الغالبية العظمى مـن رجـال الديـن البطريرك وعائلة لوزجنان Lusignans ، ولا ريب أن ذلك إلى حد ما ، لأن الملك كـان قد اصطدم بالأساقفة بسبب تقتيره على الكنيسة . على أن التناقض بينه وبين كرم خلفائـه يمكن ملاحظته بقسوة لافتة للنظر ، عند معرفة حقيقة أنه لم يتقدم بهبـة لدير القديـس لازاريوس St. Lazarus الخاص بالمصابين بمرض الجذام ، على الرغم من أنـه ملـك مجذوم . وفى ١١٨٠م تزوجت سبيلا Sibylla أخت بلدويـن الرابـع مـن جـوى دى لوزجنان Guy of Lusignan الذى صار كونتاً على يافا وعسقلان ، وأحد أتباع الملـك الأقوياء . وكانت سبيلا قد أنجبت ابناً ، بلدوين الخامس ، ابن زوجها الأول ، وليم لونـج صورد ماركيز مونتفرات William Longsword , marquis of Montferrat .

وفى تلك الظروف لم يكن من الممكن إبداء مقاومة فعالة ضد صلاح الدين . وفـى الحقيقة حقق بلدوين الرابع نصراً رائعاً عند مونتجيزارت Montgisard بـالقرب مـن الرملة فى ١١٧٧م ، غير أن الأكثر أهمية ، من ذلك ، أنه كان غير قادر على إسـتغلال هذا التميز . ففى ١١٧٩ م لم يستطع أن يفعل شيئاً لمنع صلاح الدين من الاستيلاء علـى القلعة الجديدة ، التى أقيمت على نهر الأردن بالقرب من مخاضة يعقوب Jacob`s Ford. وفى ١١٨٠م تم عقد هدنة لمدة عامين. وأجبر التقدم الناجح لصلاح الدين صوب حلـب، الفرنجة على اتخاذ إجراءات مضادة . وتم فرض ضريبة حرب خاصة للمرة الثانية ، بيد أن مرض الملك اتجه صوب الأسوأ ، وأجبره على تعيين جوى كنائب له . وأدى هذا إلى خلافات داخل الجيش ، والتى قيدت فعاليته الحـربية . وكان علـى الفرنجـة الاكتفـاء بجعل صلاح الدين فى وضع يضطر معه إلى الدفاع عن نفسه بضراوة .وفى العام نفسه أنهى بلدوين خدمة جوى لعدم كفاءته ، ثم ألبس التاج لابن أخته بلدوين الخامس ، البـالغ من العمر خمس سنوات بموافقة البارونات ، ثم مسحه البطريرك بزيت البركة على جبهته على سبيل تكريسه ملكاً . وفى ١١٨٤م تم تعيين ريموند حاكم طرابلس نائباً للملك للمـرة

الثانية ، إلى أن يبلغ بلدوين الخامس سن الرشد . غير أن جوسلين من كورتناى ، أقـرب الذكور للملك الطفل ، وأحد أعضاء الفريق المعارض ، ثم تعيينه وصيـاً علـى الملـك الصغير . وفى ١١٨٥ م وقع كل من ريموند وصلاح الدين هدنة لمدة أربع سنوات .

وفى مارس ١١٨٥ م مات بلدوين الرابع التعيس . ولم تظهر معارضة مؤثرة عندما خلفه بلدوين الخامس فى تولى عرش المملكة ،وقيام ريموند بالوصاية علـى العـرش . ولكن إذا كان خصوم ريموند لديهم الأمل فى الاستفادة، من أخطاء الوصاية على بلدويـن الخامس ، فإن تلك الآمال ، ذهبت أدراج الرياح ، عندما مات الملك الطفل ، فجـأة فـى أواخر صيف ١١٨٦م. وكان بلدوين الخامس آخر ملك لمملكة بيت المقـدس يدفـن فـى كنيسة القبر المقدس. ولم يكن هناك وريث ذكر ، وطبقاً لشروط وصية بلدوين الرابـع ، كان لا بد من رفع الأمر إلى البابا، والإمبراطور ، وملكى إنجلترا وفرنسا ، للفصل فـى ادعاءات كل من سيبلا Sibylla ، وإزابيلا Isabella (أو زوجيهما أو الأطفال) ، بنـات عمورى الأول من زواجه الأول والثاني . غير أنه بفضل الانقلاب الذى تم تنظيمه بمهارة تمكنت سيبلا ومؤيدوها من إحباط مناورات ريموند حاكم طرابلس فى سـبتمبر ١١٨٦م. وبذلك تم تتويجهـا ملكها ، ثم قامت بتتويج زوجها بنفسها . وحاول ريموند إقنـاع زوج إيزابيلا على إعلان نفسـه ملكاً مضـاداً ، بيد أنه فضل التحول إلى جانب الملك جـاى King Guy (١١٨٦ - ١١٩٠م) . وكان على البارونات التسليم بالأمر الواقع the Fait accompli. وانسحب ريموند فى غضب إلى طبرية ، وأثبت ذلك تجنب حرب أهلية بينه وبين جاى . غير أن جاى وأتباعه كانوا غير قادرين على استخدام السلطة التـى كـانت بأيديهم على النحو الأمثل .

وفى أوائل ١١٨٧ م ، أعطى رينالد (أرناط) من شاتيو Reynald of Chatillon ، لصلاح الدين كل ما يتخذ ذريعة للحرب Casus belli، عندما هاجم من كمين قافلة متجهة من دمشق، إلى القاهرة ، متجاهلاً الهدنة . وحتى قبل ذلك ، فقد أغضب رينالد (أرنـاط) هذا ، صلاح الدين بقيامه بأعمال هوجاء مشابهة - عن طريق مهاجمة قوافل الحجـاج ، وهم فى طريقهم إلى مكة المكرمة ، سواء فى وقت السلم أو غيره ، وفى إحدى غزواتـه المثيرة ، قام بسلب ونهب المدن الواقعة على امتداد ساحل البحر الأحمر . ولـم يسـتطع

صلاح الدين تحمل تلك التهديدات المستمرة للطريق الرئيسى بين مصر والشام ، وعلـــى البحر الأحمر المطل على مصر والمرتبط بالهند . وبعد أن رفض رينالد (أرناط) إعـــادة ما سلبه وتقديم أى تعويضات ، أعلن الحرب على صلاح الدين . وكانت السلطة الملكيـــة فى بيت المقدس ضعيفة لدرجة أنها لم تتمكن من إعادة رينالد (أرناط) إلى صوابه الـــذى كان أميراً على شرق الأردن the Lord of Oultrejourdain . غير أن الملك جاى Guy نجح فى إجراء تسوية مع كونت طرابلس الذى كان قد عقد تحالفاً من قبل مـــع صـــلاح الدين . وقطع ريموند علاقاته مع صلاح الدين ، ووقف بثبات بجانب رفاقـــه الفرنجـــة . وبالقرب من الناصرة Nazareth ، اجتمع أكبر جيش حشده الفرنجة ، استعداداً لمعركـــة فاصلة. وبلغ عدد جيش الفرنجة ١٨,٠٠٠ مقاتل منهم ١,٢٠٠ من الفرسان ثقيلى العدة ، ٤,٠٠٠ من الفرسان خفيفى العدة. وكان ذلك إشارة إلى الحاجة الملحة غير العادية حتـــى أن كل شاب قوى البنية ، تم استدعاؤه لحمل السلاح، وليس مجرد أولئك الذين يحصلـــون على إقطاعات. وقد فاق صلاح الدين الفرنجة عدداً لأن فرسانه كانوا ١٢,٠٠٠ فـــارس ، بيد أن الفرسان النصارى ثقيلى العدة، ظلوا قادرين على شن هجوم مفاجئ بتأثير مروّع ، إذا ما أتيحت لهم الفرصة. ومع ذلك ، فقد كانت استراتيجيتهم قائمة على عدم المخـــاطرة بالدخول فى معركة ، وتجنب مواجهة جيش صلاح الدين، وذلك لمنعه من تحويل الحملة إلى حرب خاطفة ، إلى أن يحين الوقت الذى يتأثر فيه جيشه ، بالانسحابات الموســـمية ، وعند ذلك يكون صلاح الدين فى وضع المجبر على الانسحاب . وقاوم صـــلاح الديـــن إستراتيجية الفرنجة وذلك بقيامه بالهجوم على طبرية . وأخرجت خطـــة صـــلاح الديـــن البارعة كل الفرنجة من موقعهم الدفاعى الآمن ، حيث كانوا يحصلون على المياه العذبـــة بوفرة . وعارض ريموند حاكم طرابلس القيام بأى عمـــل ، برغـــم أن زوجتـــه كـــانت محاصرة فى طبرية. وقد وافق البارونات على هذه المعارضة ، غير أن رئيس الرهبـــان الفرسان الداوية the Master of the Temple ، أقنع الملك جاى Guy إلـــى أن غـــير رأية أثناء الليل . وفى الصباح التالى ، بدأ المسير خلال تل الجليل ، فى حرارة الصيـــف الشديدة ، نحو طبرية . ولم يتمكن جيش الفرنجة من الوصول إلـــى المكـــان . وحدثـــت المناوشات الأولى مع المسلمين فى حطين Hattin ، فى الثالث مـــن يوليـــو ١١٨٧ م ،

غرب بحر الجليل . وكان الفرنجة مجبرين على التوقف لقضاء الليل فى ذلك المكان الذى لا ماء فيه . وفى هذا المكان قضى الفرنجة ليلة مروّعة، وهم يعانون من شدة العطش ، ومن الآلام الشديدة بأعينهم ، من دخان حرائق الشجيرات الكثيفة التى أشعل المسلمون النيران بها .وعند مطلع الفجر ، وجد الفرنجة ، أنهم قد ضرب حولهم حصاراً محكما . وبعد قتالٍ بطولى ، تعرض الفرنجة لهزيمة، كانت أسوأ بكثير من أى شيء تعرضوا له ، على مدى تاريخ الإمارات الصليبية . ولم يتمكن من النجاح فى الهروب فى المعركة سوى ريموند حاكم طرابلس وعدد قليل من أصدقائه . وسقط كثير من الفرسان الصليبيين قتلى . وتعرض باقى الجيش للأسر ومنهم الملك جاى ، ورئيس الداوية ، ورينالد (أرناط) من شاتيو . وقام صلاح الدين بنفسه بقطع رقبة رينالد (أرناط) . وتم إعدام الأسرى من الداوية باستثناء رئيسهم .

وكانت النتائج الفورية لمعركة حطين مفجعة . فمن الناحية العملية ، فقدت المملكة كل رجالها المقاتلين . ولم يبق على قيد الحياة سوى حاميات صغيرة فى بعض المدن والقلاع . وسار صلاح الدين فى مسيرة يسيطر عليها الإحساس بالانتصار ، الذى لا نظير له عبر فلسطين وبلاد الشام . وذكر أحد المؤرخين من كتاب الحوليات العرب أن صلاح الدين ، استولى على خمس وعشرين مدينة وقلعة . ونظراً لأن الفرنجة كانوا يعلمون أن صلاح الدين سوف يحافظ على عهده ، فكان من السهل عليهم الموافقة على شروط الاستسلام . وفى العاشر من يوليو ١١٨٧م سقط ميناء عكا المهمة ، وفى سبتمبر ١١٨٧ م سقطت عسقلان . وقامت كل من الملكة سيبلا Sibylla ، والبطريق هرقل، وباليان من إبلين Balian of Ibelin، بالدفاع عن بيت المقدس، غير أنها استسلمت فى ٢ أكتوبر ١١٨٧م ، بعد حصار دام لمدة أسبوعين. بل أن الطقوس الدينية الخاصة بالتكفير عن الذنوب كانت من غير طائل، وقامت الأمهات بحلق شعور بناتهن، وجعلتهن يخلعن ثيابهن لأخذ حمامات باردة علانية على تل الجمجمة the hill of Calvary ، بالقرب من بيت المقدس ، ولكن عبثاً ودون جدوى . وكانت المدينة تفتقر إلى الرجال المحاربين ، وأن المدافعين القلائل كانوا راضين لأنهم كانوا تحت رحمة عدو رحيم . واستطاع كل من لديه مبلغ من المال الخروج من بيت المقدس بأمان ، والذهاب إلى الساحل ، حيث

حدد صلاح الدين مبلغاً على كل فرد، وتفاوت هذا المبلغ وفقاً للسن ، والجنس ، وكان مبلغاً فى مقدرة الكثيرين . واستلم المسلمون المسجد الأقصى ، وأجروا احتفالاً بوضع منبر نور الدين محمود بالمسجد. وتم إنزال الصلبان من سقوف الكنائس ، وتم السماح لأربعة قساوسة من أهالى بلاد الشام بالاستمرار فى أداء الطقوس الدينية فى كنيسة القبر المقدس. على أن استرداد المسلمين لبيت المقدس ، وهو المكان المقدس عند كل من المسلمين والنصارى ، كان انتصاراً عسكرياً دوى صداه فى كل أنحاء العالم الإسلامى. ومن الناحية العلمية لم يبق شىء للنصارى. وفى ١١٨٨م ، ١١٨٩م سقط حصن مؤاب Moab ، وكذلك قلعتى الكرك Kerak ، والشوبك Montreal المفترض أنهما كانت منيعتين. وتمسك النصارى بشقيف Beaufort ، وبرج صافيا Chestel Blanc، وحصن الأكراد Krak des Chevaliers ، والمرقب Margab ، وطرطوس Tortosa . ودافع الصليبيون بضراوة، عن المدن الساحلية الثلاث ، وهى : طرابلس ، وأنطاكيه ، وصور ، والتى صمدت مرتين أمام هجوم صلاح الدين ، بفضل وصول أسطول صقلى ، فى الوقت المناسب . وكانت مدينة صور تحت حكم المركيز كونراد من مونتفرا Marquis Conrad of Montferrat، الذى وصل بعد كارثة حطين بوقت قصير وجعله دفاعه القوى والعنيد عن المدينة مشهوراً فى كل مكان بالغرب . وباعتباره كان رجل الساعة ، فرأى أن فرصة العمر قد واتته . وتمكن من الانتصار فى معركة بحرية أمام أسوار صور ضد المصريين . ثم كان صلاح الدين مجبراً على رفع الحصار عن صور فى أول يناير ١١٨٨م. ورغم ذلك فقد بدا من المستحيل إنقاذ الأراضى المقدسة .

٧ - الحملة الصليبية الثالثة ، ١١٨٧ - ١١٩٢م .

بعد الحملة الصليبية الثانية ، كان فى إمكان أوربا إرسال عدد وافر من الحملات الصليبية لفترة من الوقت . (٤٩) فمنذ أواخر الستينيات من القرن الثانى عشر ، بدا أن يكون للأعداد المتزايدة من طلبات النجدة القادمة من الأرض المقدسة بعض التأثير على الرأى العام . وأصبح من المتوقع أن يتم إرسال تلك الاستغاثات إلى غرب أوربا فى المقام الأول لكثرة إرسالها إلى هناك . ونظر ملوك الغرب ، مثل الإمبراطور ، بارتياح إلى فكرة حرب صليبية ، فقد وجدوا فيها فرصة لإضفاء الشرف والمجد لحياتهم ، وأنهما أسمى إنجاز لسموهم الملكى . (٥٠) غير أن الموقف السياسى لم يكن مواتياً تماماً . فالإمبراطور فريدريك بربار وسا Frederick Barbarossa (١١٥٢ - ١١٩٠م) ، كان مشغولاً تماماً فى إيطاليا حيث كان يحاول استعادة الحقوق الإمبراطورية فى تنفيذ مراسيم رونكاجليا Roncaglia ، التى كان قد أصدرها فى ١١٥٨م . وأدى ذلك إلى تورط فريدريك الأول فى صراع شرس مع المدن اللومباردية ، والذى استمر حتى عقدت معاهدة سلام فى كانستانس Constance فى ١١٨٣م . وفى الفترة ما بين ١١٥٩ و١١٧٧م كان فريدريك يحارب الإسكندر الثالث إلى أن أجبر على الاعتراف به كبابا فى آخر الأمر. وفى وطنه ألمانيا كانت يداه مغلولتين نتيجة للمعارضة التى قادها هنرى الأسد Henry the Lion ، دوق ساكسونى وبافاريا Bavaria . وليس قبل ١١٨٤ م ، عندما تم عقد اجتماع إمبراطورى فى ماينتس Mainz ، حيث كشف بربار وسا عن ألمعية، وقوة أسرة هوهنستوفين الحاكمة ، فى تقدير العالم عندما كانت هناك فرصة بأنه سوف يكون قادراً على مغادرة الإمبراطورية إلى الأرض المقدسة . وعمل كل من إدراكه التام لمكانة الإمبراطورية ، وإحساسه السياسى على جذبه نحو فكرة حملة صليبية. واعتقد فريدريك أنه إذا ترك الحملة الصليبية فى أيدى حكام غرب تماما ، فإن ذلك سوف يحط من سمعته . والواقع أنه كان معترفاً به كسيد أعلى للعالم المسيحى فى عهد الحملة الصليبية . ويقال أن خطاباً مزوراً فى إنجلترا ، قد تم إرساله من فريدريك

إلى صلاح الدين حيث جاء فى هذا الخطاب بأن الإمبراطور بربروسا حاكم العالم . وتم الاتفاق على إسناد قيادة الحملة إليه بطريقة تلقائية تقريباً . وأشار إليه وليم من نيوبرج William of Newburgh ، مؤرخ الحوليات الإنجليزى على أنه "إمبراطورنا" .

ولم تعد فرنسا المملكة الوحيدة فى غرب أوربا التى يتطلع إليها الرجال فى بيت المقدس طلباً للمساعدة . والأكثر أهمية أنهم اعتمدوا على هنرى الثانى ملك إنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩م) . ويمت بيت بلانتجينت the house of Plantagenet بصلة القرابة إلى الأسرة الملكية الأنجوية فى بيت المقدس . وبالإضافة إلى ذلك ، فلما كان ملك إنجلترا يحكم الجزء الأكبر من فرنسا فى ذلك الحين ، فكان على ملك إنجلترا أن يحتاج إلى تعاون إنجلترا إذا ما قرر الذهاب على رأس حملة صليبية . وحكم هنرى الثانى وأبناؤه دوقيات نورماندى ، وبريتانى ، وأكويتين ، ومين Maine ، أنجو ، ولا مارش ، وبواتو ، وأفرين Auvergne .ونظر البلانتجنت Pantagenet وآل كابيه Capetian، إلى بعضهم الآخر نظرة ارتياب من المتعذر استئصاله. ولا يستطع أحدهما المشاركة فى حملة صليبية بمفرده ، فكل منهما يعلم أن غيره يترقب فرصة الذهاب فى تلك الحملة بمفرده ، ليغزو أراضى من ذهب . كما لا يستطع أحدهما السماح للآخر بالذهاب بمفرده ، لأنه سوف ينتج عن ذلك خسارة فى مكانته الممتازة، ومكاسب فى نفوذ خصمه . وبوضوح لم يكن هناك سبيل للخروج من الموقف . وحتى ذلك الحين ، كان من الممكن تقديم مساعدة مالية فحسب . وكان هنرى الثانى ، نشطاً جداً فى هذا المجال ، بسبب قرابته لملوك بيت المقدس بكل تأكيد . ويبدو أن فرنسا قد فعلت أقل من إنجلترا ، وربما يكون هذا الانطباع، مجرد نتيجة للندرة النسبية فى الموارد فى فرنسا . ففى ١١٦٦ م ، فرض هنرى الثانى ضريبة عامة ، على الدخول والممتلكات المنقولة، على أن يدفعها رجال الدين ، بالإضافة إلى غيرهم من المواطنين ، وتم إرسال الحصيلة للأراضى المقدسة . وكانت هذه أول ضريبة للمشاركة فى الحملات الصليبية يمكن إدراكها بوضوح فى الغرب. وحتى أواخر الثمانينيات من القرن الثانى عشر ، كانت تلك السنوات فترة انشغال فى نشاط دبلوماسى ذهاباً وإياباً . وفى ١١٧٢م وعد هنرى الثانى بالمشاركة فى حملة صليبية بيد أنه لم ينفذ . وفى ١١٧٧م عقدت معاهدة نونانكورت Nonancourt بين ملكى إنجلترا وفرنسا حيث

وضعا قواعد نظمت سلوكهما تجاه كل منهما للآخر فى حالة ذهاب أحدهما للمشاركة فى حملة صليبية أو وفاة أحدهما . غير أن الحملة الصليبية بقيت مجرد مشـــروع وكشـفت معاهدة نونا نكورت أن عـــدم الثقة المتبادل بين الملكين يفوق تحمسهم لقضية وجيهـــة " من الناحية القـــانونية " . وعندمــا اعتلى فيليب الثانى أغســطس Philip II Augustus (١١٨٠ - ١٢٢٣م) ، عرش فرنسا أصبح فى الحال مشغولاً فى منازعات مرهقة ، مـــع كونت الفلاندر ، Flanders ، فى حين استطاع هنرى الثانى التغلب على الثوار التـــابعين لأبنائه المتهورين ، والذين أبدوا عقوقاً .

وفى ١١٨٤ - ١١٨٥ م ، أرسل الصليبيون فى بلاد الشام Outremer وفداً خاصاً على أعلى مستوى ، لإبلاغ ملوك غرب أوربا بخطورة الموقـــف ، ومحاولـــة إقنـــاعهم بضرورة اتخاذ إجراء حاسم ، إذا كان هناك أى فرصة لإنقاذ بيت المقدس التـــى كـــانت تحت حكم ملك مصاب بالجذام ، وهو بلدوين الرابع ، والذى سوف يخلفه ملك طفل هـــو بلدوين الخامس . وكان هذا الوفد تحت قيادة هرقل بطريرك بيت المقدس ، وأرنولد مـــن توروجا رئيس الرهبان الفرسان الداوية Arnold of Toroga , Master of the temple، وروجر من لى مولين رئيس الرهبان الفرسان الإسبتارية Roger of Les Moulins , the Master of the Hospital . وقابل هذا الوفد البابا والإمبراطور فى فيرونا Verona فى نوفمبر ١١٨٤ م . وكان الإمبراطور بربروسا Barbarossa ميالاً إلى أن يعـــد بالقيـــام بحملة صليبية فى ١١٨٦م . وكان بربروسا فى منتصف المفاوضات مع الإدارة البابويـــة للتسوية الاقتصادية للمسألة المضنية ، بشأن من منهما له شرعية الســـيادة العليـــا علـــى أراضى ماتيلدين Matildine فى إقليم توسكانى Tuscany . وفـــى الوقـــت نفســـه كـــان الإمبراطور بربروسا يراجع سياسته الإيطالية ، حيث توصل إلى تفاهم مع النورمان فـــى الجنوب . وساعد التوصل إلى التفاهم إعلان خطوبه هنرى الســـادس ابن بربروسا إلـــى كونستانس إبنه روجر الثانى ، وعمة الملك النورمانى وليم الثـــانى (١١٦٦ - ١١٨٩م). وربما يكون بربروسا قد استعمل عرضه الاستعداد للقيام بحملة صليبيـــة ، لكـــى يمهـــد الطريق لمفاوضاته مع الإدارة البابوية ، غير أن المشروع أخفق عنـــدما تـــم انتخـــاب أوربان الثالث بابا لروما ، وعلى الفور أثار نقاطاً جديدة للاختلاف ، وحرض على بعض

المعارضة التى قام بها الأمراء ضد الإمبراطور فى ألمانيا . وعندما وصـل وفـد بيـت المقدس إلى فرنسا حرص ملك فرنسا جيداً ، على أن يواصل هذا الوفد سفره إلى إنجلترا بأسرع ما يمكن . وأكد لهم هنرى الثانى أيضاً نواياه الحسنة ، وأعاد إليهم علـى الفـور مفتاح بيت المقدس الذى عرضوه عليه ، مثلما فعل فيليب أغسطس . ومن ثم عاد الوفـد ثانية إلى بيت المقدس ، وهو يشعر بخيبة الأمل بمرارة . ومع ذلك يبدو أن هذه السـفارة كانت الدافع خلف ضريبة المشاركة فى حملة صليبية التى فرضت فى إنجلـترا وفرنسـا سنة ١١٨٥ (أو ١١٨٤م) . وكان هناك مناقشة مهمة فيما يتعلق بما إذا كانت الضريبة قد تم فرضها من الناحية الواقعية من عدمه نظراً لعدم وجود سـجل عـن أى ردود فعـل عـادية عن ضريبة . وليس معرفاً بالتأكيد ما إذا كان البابا وافق على ضريبـة يدفعهـا الكهنة.(٥١)

وبعد الهزيمة النكراء فى حطين فى صيف ١١٨٧م، حدث تغير حقيقى فى أعمـاق القلب . ومات البابا أوربان الثالث تحت وطأة صدمة الخبر . وأعطى خليفته جريجـورى الثالث ، قوة دافعة حاسمة إلى الدعوة لحملة صليبية ، بعد مرور شهرين علـى اعتلائـه كرسى البابوية . وكان منشوره البابوى " التقرير المرعب Audita Tremendi " الصادر فى ٢٩ أكتوبر ١١٨٧ م . وثيقة مثيرة للمشاعر ، وأثر فنى من الطراز الأعلى للبلاغـة البابوية ، على الرغم من أن اقتراحه بعقد هدنة لمدة سبع سـنوات ، بين حكام أوربا ، لم يكن واقعياً تماماً. وكان وليم الثانى حاكم صقلية أول من استجاب ، لدعوة البابا الجديـد ، من حكام أوربا ، إذ أرسل خمسين سفينة شراعية كبيرة إلى الشرق ، والتى لعبـت دوراً مهما فى نجدة طرابلس . غير أن أى مساعدة أخرى قدمها ، انتهت إلى لا شيء نتيجـة لوفاته. وكان ريتشارد قلب الأسد ، كونت بواتو ، أكثر أبناء هنرى الثانى حباً للفروسية، وبرغم ذلك ، تصرف بطريقة تلقائية ودون الحصول على موافقة والده . وألف الشـعراء الأغانى ، وقصائد الرثاء المتعلقة بالحرب الصليبية ، بخصوص سقوط بيت المقدس فـى يدى صلاح الدين باللغة اليونانية والمحلية . كما خرج من مدينة صور سيل منهمر مـن التقارير المتوالية ، وطلبات النجدة ، منذ سقوط بيت المقدس فى يدى صلاح الدين .

وتم إسناد مهمة الدعوة للحملة الصليبية في شمال الألـــب إلـــى رئيـــس الأســـاقفة جوسيوس من صور Joscius of Tyre ، وهـــنرى مـــن ألبانيـــا Henry of Albano ، الكاردينال الموفد رسمياً من قبل البابا ، وهو من الرهبان السسترشن Cistercian ، ولـــه مقدرة دبلوماسية فائقة . وهو الذى صاحبه التوفيق فى إجراء تسوية للاختلافـــات التـــى كانت قائمة بين إنجلترا وفرنسا . وفى مدينة جيزور Gisors ، فى إقليـــم نورمـــاندى ، أعلن الملكان انضمامهما للحملة الصليبية وسط ابتهـــاج شـــعبى ، وذلـــك فـــى الحـــادى والعشرين من يناير ١١٨٨م. وعقد الملكان العزم على السفر فى عيد الفصح (وهو يـــوم الأحد الذى يأتى مباشرة بعد ٢١ مارس من كل عام) ، ١١٨٩م ، وأن يسلكا طريق البر . ومن أجل تمويل الحملة تم فرض ضريبة عامة قدرها عشرة فى المائة على كل الممتلكات الثابتة والمنقولة (عشر الكنيسة للتصدى لصلاح الدين the Saladin Tithe) . وعارض الكهنة تلك الضريبة إلى أبعد حـــد، لأن البارونات المدنيين ، كان فى اســـتطاعتهم ليـــس فقط عدم دفع الضريبة عند إعلانهم المشاركة فى الحملة الصليبية ، ولكن فى استطاعتهم الاحتفاظ أيضاً لأنفسهم بكل المبالغ التى يدفعها المستأجرون لأراضيهم . وقـــام بلدويـــن رئيس أساقفة كانتربرى ، الذى كان أحد الرهبان السسترشن ، بالدعوة للحرب الصليبيـــة فى ويلز ، بنفس النشاط ، والأسلوب الذى سلكه برنارد من كليرفو Clairvaux . وفـــى ألمانيا كانت الدعوة للحملة الصليبية تتم بهدوء أكثر .(٥٢) ولم يكن هناك حاجة لفـــرض ضريبة خاصة بالحملة الصليبية فى ألمانيا ، وإنما كان على كل مشارك أن يـــأخذ معـــه مبلغاً من المال يكفيه لمدة عامين ، وساعد هذا على وضع نهاية لأعداد المتطفلين، الذيـــن لم تكن هناك حاجة إليهم. وأول من أعلن مشاركته فى حملة صليبية ، فعل هذا فى حفـــل غذاء ملكى فى ستراسبورج Strasbourg ، فى ديسمبر ١١٨٧م . وأجـــل الإمـــبراطور إعلانه المشاركة فى الحملة الصليبية ، حتى مارس ١١٨٨ م ، حتى أعلن فيليـــب مـــن كولون رئيس الأساقفة الخضوع إليه فى حفل الغذاء الذى تم فى مدينة مـــاينتس Mainz . وفى ذلك الحين كان الامبراطور بربا روسا ، على استعداد تام لإعلان انضمامه للحملـــة الصليبية ، أيضاً ، فى أبريل ١١٨٩ م ، وتسلم عصا وحقيبة الراغب فى زيارة الأراضى المقدسة the pilgrim`s staff and scrip ، فى هاجينو Hegenau . وبسبب قلة السفن لم

يكن أمامه سوى سلوك طريق البر . وأجرى بربروسا سلسلة من المفاوضات والمعاهدات مع الصرب Serbia ، والمجر، وبيزنطة، والسلطان السلجوقى فى قونيه، من أجل إعداد الطريق البرى. وأرسل بربروسا إنذاراً an utimatum إلى صلاح الدين ، غير أن صلاح الدين رفضه . غير أن مفاوضات بربروسا مع ولايات البلقان وتحالفه مع النورمان ، جعلت إسحاق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ – ١١٩٥م) ، الإمبراطور البيزنطى، ميالاً جداً للشك ، كما دفعه ذلك ليكون تحت رحمة صلاح الدين . وقام صلاح الدين والإمبراطور البيزنطى بتجديد تحالفهم السابق ، والهدف السريع هذه المرّة هو منع الإمبراطور فريدريك من اجتياز الأراضى البيزنطية . وقام الإمبراطور البيزنطى بإلقاء القبض على الوفد الألمانى المفاوض فى القسطنطينية ووضعه فى السجن .

وبدأ تحرك جيش بربروسا من رجنزبرج Regensburg فى الحادى عشر من مايو ١١٨٩م . ولو نجحت الحملة ، فلا ريب أنها كانت ستجعل من الإمبراطور ، الذى كان فى منتصف الستينيات من عمره ، الشخصية البارزة المهيمنة على المسرح الأوربى. واصطحب الإمبراطور معه إلى الأراضى المقدسة ، ابنه ، الدوق فريدريك حاكم سوابيا Swabia ، ورئيس أساقفة تارانتيس Tarentaise ، وأساقفة ليج Lie`ge ، وثلاثة من النبلاء ، وتسعة وعشرين كونتاً من كل أنحاء ألمانيا . وعلى سبيل الخطأ ، كان معروفاً أن أنسبرت Ansbert ، وهو رجل دين نمساوى كان المؤرخ الأساسى لهذه الحملة . أما رجال كولون ، والفريزيون ، ورئيس أساقفة بريمين ، والنبيل لودويج الثالث حاكم ثورنجيا ، ومن بعدهم الدوق ليوبولد الخامس حاكم النمسا ، فقد اختاروا الطريق البحرى . على أن التقدير المعاصر للجيش بأن عدده كان مائة ألف مقاتل مبالغ فيه للغاية ، ومع ذلك ، فلا ريب أنه كان من أكبر الجيوش الصليبية التى خرجت من أوربا . وكان التحرك عبر المجر يجرى فى يسر ، ولكن بمجرد أن وضعوا أقدامهم فى الأراضى البيزنطية بدأت مشاكلهم. وأصبح من المتعذر المرور فى سلام وفق ما كان مخططاً لذلك.

واحتل بربروسا مدينة فيليبوبوليس Philippopolis ، وهدد بالاستيلاء على العاصمة ، والقضاء على الإمبراطورية . وأمر ابنه هنرى بأن يلتقيا فى القسطنطينية مع أسطول إيطالى فى مارس ١١٩٠ م ، وفى الوقت نفسه ، انتظر فى فصل الشتاء فى أدريا نوبل

Adrianople . واستسلم حاكم بيزنطة الضعيف فى فبراير ١١٩٠ م . وفى عيد الفصح (يوم الأحد الذى يأتى مباشرة بعد ٢١ مارس) Easter ، عبر الألمان إلى الشاطئ الأسيوى عند جاليبولى Gallipoli ، وبذلك ابتعدوا عن العاصمة ، وفقاً للمعاهدة التى تم عقدها فى أدريانوبل . وهكذا ظهر ضعف الإمبراطورية البيزنطية بوضوح للعيان فى ذلك الحين .

وفى ٢٥ أبريل ١١٩٠م دخل الجيش الألمانى أراضى السلاجقة فى الأناضول . وظهر على الفور ، أن المعاهدة مع السلطان قلج أرسلان الثانى كانت عديمة الجدوى. وبرغم الأنباء العدائية التى وردت فى المصادر التاريخية الغربية ، فإن ذلك لم يكن نتيجة لموقف السلطان . وفى الحقيقة ، كان السلطان متخذاً موقفاً ودياً تماماً من الصليبيين ، غير أن ابنه الأكبر ، وهو قطب الدين ملكشاه ، الذى تولى زمام السلطة ، والذى تزوج من إبنة صلاح الدين لم يكن لديه النية فى السماح للجيش الألمانى بالتحرك ، دون اتخاذ موقف عدائى منه وهو فى طريقة إلى بلاد الشام . ومضت التشكيلات الصليبية غير الفعّالة فى شقاء وشدة عبر الأناضول ، وهى تتحمل مشقات لا يمكن تصورها ، ومتأثرين على نحو خطير بالجوع والعطش ، ويعانون من الخسائر الفادحة فى الأرواح فى الطريق. وبالقرب من قونية Iconium تقابل الصليبيون بجيش قطب الدين ، الذى انضمت إليه القبائل التركمانية ، التى كانت تقوم بعمليات سلب ونهب ، فى آسيا الصغرى منذ ١١٨٥م ، وكان ذلك اللقاء فى ١٨ مايو ١١٩٠م . وأحرز الألمان نصراً باهراً فى تلك المعركة. وتولى السلطان العجوز { قلج أرسلان الثانى } ، إدارة شئون الدولة من جديد وتوصل إلى تفاهم مع الإمبراطور . وبعد أن استراح الجيش لعدة أيام واصل تقدمه فى سلام ، فى أرمينيا الصغرى – وهى أراضى نصرانية . وعبروا جبال طوروس، وإقتربوا من البحر عند سلوقيه Seleucia ، وفى العاشر من يونيه ١١٩٠م غرق فريدريك بربروسا فى نهر سالف Saleph ، عندما حاول ، دون صبر ، السباحة لعبوره ، فى الوقت الذى لم تتمكن فيه قواته من عبوره . وكان بذلك آخر حاكم ألمانى أعلن انضمامه لحملة صليبية ، وأولهم فى الذهاب . وكان الحاكم الوحيد الذى لقى حتفه فى حملة صليبية .

وتبدد شمل الحملة الصليبية الألمانية ، وكانت فى حالة من الفوضى نتيجـــة لوفـــاة الإمبراطور . وكان ابنه فريدريك يفتقر إلى الشخصية المطلوبة ، لتوحيد الجيش اليائس. واتجه معظم الصليبيين صوب الموانى القيليقية والشامية ، ثم أبحروا فى طريـــق العـــودة لبلادهم. أما باقى الجيش الذى كان تحت قيادة الدوق فريدريك ، فقد واصلوا المسير إلـــى أنطاكيه ، حيث تعرضوا لخسائر كبيرة فى الأرواح لوباء . وفـــى أنطاكيـــه ، تـــم دفـــن الإمبراطور فى كاتدرائية القديس بطرس، بعد نزع عظامه على أمل أن يحصـــــل علـــى مثوى قيّم فى بيت المقدس . والحقيقة أن رفات الإمبراطور تم دفنه فى كاتدرائية صـــور. وفى السابع من أكتوبر ١١٩٠ م وصلت البقايا التى أنهكتها الضربـــات المتلاحقـــة مـــن الجيش الذى كان ضخماً فى يوم ما ، إلى مدينة عكا ، حيث التقوا بزملائهم ، من أبنـــاء وطنهم ، الذين كانوا ، قد سلكوا طريق البحر . ومن ناحية ثانية ، فإن الرحيل المفـــاجئ لكونت ثورنجيا Thuringia ، أنقص من حجم الفرقة القتالية الألمانية . ولذلـــك لعـــب الألمان دوراً غير مهم فى بقية الحملة الصليبية الثالثة . ومع ذلك ، فإن ماله أهمية كبرى فى المستقبل ، كان إنشاء مستشفى كبير ، على نفقة بعض المواطنين من لوبيك وبريميـــن Lubeck and Bremen ، فى ١١٩٠ بالقرب من عكا . وصدّق البابـــا علـــى تأسـيس الوحدة العلاجية الألمانية فى ١١٩٦ م . وفى ربيع ١١٩٨ م ، فإن المستشفى التى يجـــب ألاّ تنضم إلى مؤسسة أقدم منها ، فى بيت المقدس ، تم تحويلها إلى نظام ديـــرى ألمـــانى لفرسان من رجال الكنيسة الرهبان يتبع بيت القديسة ماريا St. Maria للألمان فى بيت المقدس : إنه نظام الفرسان الرهبان التيتون the Order of Teutonic Knights . وقـــد أعلن البابا موافقته الفورية على هذا التحول . وعاش فرسان التيتون وفقاً للنظام الديـــرى الخاص بفرسان الداوية the Templar rule حتى حوالى ١٢٤٥ م ، عندما تلقى النظـــام الجديد نظامه الديرى الخاص به ، واتخذ زيه الموحد المتمثل فى الرداء الأبيض الطويـــل الذى يشد بحزام حول الخصر the white tunic ، والصليب الأسود . (٥٣)

وتزود النصارى فى الأرض المقدسة بالشجاعة القوية ، بدفاع المركيز كونراد من منتفرات القوى ، عن مدينة صور ١١٨٧ م ، وبالأنباء عن الاستعداد لحملة صليبية والتى كانت على وشك التحرك . وفى يونيه ١١٨٨ م تم إطلاق سراح الملك جاى Guy شريطة

أن يغادر البلاد . وعلى الفور حصل على إعفائه من اليمين الذى كان قد أقسمه . وتم إطلاق سلاح رفاقه السابقين فى المعركة الواحد بعد الآخر . وفى طرابلس جمع الملك جاى عدداً قليلاً من الفرسان ، واتجه صوب صور. غير أن كونراد لم يكن لديه نيه التخلى عن المدينة ، التى كان قد دافع عنها ، والتى كانت من ممتلكات التاج ، لكنه لم يعد يعترف بجاى كملك . وأدى الصراع من أجل السلطة ، الذى نشب فى ذلك الحين ، بين كونراد وجاى ، والذى استمر حتى ١١٩٠م أدى إلى تبديد لا نظير له للأراضى الملكية المتناقصة ، وجعل المدن التجارية الفرنسية والإيطالية ، المستفيد لأول . وظل جاى معسكراً لعدة أشهر أمام أسوار مدينة صور ، دون إحراز أى تقدم ، إلى أن أظهر فجأة أنه عنده فى ذاته أكثر مما كان الناس يشكون فيه من قبل . وتمكن الملك جاى من التحالف مع أسطول بيزى وصل حديثا ، واتجه مباشرة إلى عكا ، مما أثار دهشة كبيرة عند صلاح الدين . وفى الثامن والعشرين من أغسطس ١١٨٩ م ، بدأ جاى يضرب حصاراً حول مدينة عكا من معسكر محصن على تل تبنين . (٥٤) وكان يبدو أن جاى عمل لفكرة حمقاء ، لا يمكن تصديقها ، نظراً لأن قواته ، لم تكن حتى فى وضع مساوٍ لحامية المدينة ، وهناك خطر إضافى ، وهو أن صلاح الدين ، كان من الممكن أن ينقض على مؤخرة جيشه ، ويحصره بين جيش النجدة والمدينة . غير أن جاى كان فى حاجة إلى قاعدة يمكن منها استرداد مملكته ، وأن عكا كانت دائما أقوى وأغنى مدنها . وبعناد شديد ناضل جاى من أجل تحقيق الهدف الذى رسمه لنفسه . وأصبح امتلاك عكا مسألة مكانة متميزة ، ولذلك تعرض صلاح الدين لضربة قاسية ، عندما سقطت المدينة بعد حصار دام لمدة عامين . ولم يكن جاى ، وإنما صلاح الدين الذى ارتكب عملاً أحمقاً ، عندما عارض نصيحة أمرائه ، بتدمير المدينة ومساواتها بالأرض ، بعد أن احتلها فى ١١٨٧م . ويكشف هذا القرار عن قصور فى الإدراك للبراعة فى التخطيط والتدبير . وبدلاً من تدمير مدينة عكا قام صلاح الدين بإصلاح القلعة والميناء ، ووضع كل معداته العسكرية من مصر وبلاد الشام بالمدينة . وأدهش هجوم جاى على عكا صلاح الدين ، ووجد جاى أن صلاح الدين لم يكن مستعداً ، على نحو كافٍ لهذه المباغتة . وفى ذلك الحين كان على صلاح الدين التعامل مع مشكلة لم يتعرض لها حاكم مسلم من قبل -

وهى المحافظة على جيش عامل لمدة ثلاث سنوات (١١٩٠-١١٩٢م) . ووفقاً لما ورد عند القاضى الفاضل : " فإن صلاح الدين استغل موارد مصر لضم سوريا ، وموارد سوريا لبسط نفوذه على بلاد ما بين النهرين ، وموارد بلاد ما بين النهرين لتحرير فلسطين " . وفى ذلك الحين كان احتياطه المالى فى طريقه إلى النضوب . كما أن الصراع الطويل حول عكا منعه من تحقيق هدفه الحقيقى ، وهو نشر المذهب السنى . كما كانت حملة بربروسا الصليبية قد ملأت صلاح الدين من شر مرتقب، وجمع معلومات عنها من كل مصدر متاح . وقبل أن يعرف أنه لم يعد لديه خوف من هذا الاتجاه ، كان عليه أن يتخذ موقفاً ضد الملك جاى .

ومنذ سبتمبر ١١٨٩ فصاعداً أتى سيل منهمر من المقاتلين بحراً من أوربا للانضمام إلى الفرنجة ، الذين حاصروا عكا .وأحضر الإسكندنافيون والفريزيون Scandinavians and Frisians السفن التى كانت هناك حاجة ماسة إليها لمحاصرة مدينة من ناحية البحر . وانضم للمحاصرين لعكا السفن التى حملت الفلمنكيين ، والفرنسيين ، والإنجليز ، كما انضمت أيضا سفن تحمل قوات ألمانية تحت قيادة الدوق لوديج الثالث حاكم ثورنجيا Ludwig III of Thuringia . بل إن كونراد من مونتفرا Conrad of Montferrat شارك فى المغامرة فى مراحلها الأولى. وفى الرابع من أكتوبر ١١٨٩ خاطر الفرنجة بالدخول فى معركة مع صلاح الدين، بيد أنهم تعرضوا لهزيمة نكراء. وعلى الرغم من أن عكا كانت على وشك الموت جوعاً والاستسلام ، فى أيام عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) at Christmas ، فقد نجح أسطول الإمدادات المصرى فى اختراق الحصار . وإرتسمت الشهور الأولى من ١١٩٠ م بالمصاير المتغيرة للحرب . إذ كسب الفرنجة المعركة البحرية ، بيد أن محاولات الاستيلاء على المدينة بهجوم خاطف فى الخامس من مايو ١١٩٠ م ، باءت بالفشل . وتحولت آلات حصار الفرنجة إلى لهب عندما تعرضت الأبراج الخشبية إلى وابل من قذائف النار الإغريقية المروعة ، والمزيج من النفط المخلوط الذى لا يمكن إطفاؤه إلاّ بالخل . ومن ١٩ إلى ٢٦ مايو ١١٩٠م ، حاول صلاح الدين إجبار الفرنجة على الابتعاد عن عكا ، غير أنه لم يتمكن من إحراز نصر حاسم . ومن ناحية أخرى تعرض مشاة الفرنجة لنكسة أيضاً عندما شنوا هجوماً مفاجئاً ، على

معسكر صلاح الدين ، على عكس رغبة قادتهم ، وذلك فى الخامس والعشرين من يوليو ١١٩٠م. غير أنه من الواضح ، أن صلاح الدين سوف لا يكون قادراً ، على التغلب على الفرنجة ، فى الوقت الذى كانوا يتحصنون خلف نظام آمن من الحصون الدفاعية . وبوضوح لم تكن قوات صلاح الدين مجهزة للتعامل مع هذا النوع من الصراع . إذ استمر تدفق الإمدادات العسكرية على الفرنجة . وكان هنرى من شامبين ، كونت بلاتين من تروى Henry of Champagne , count palatine of Troyes أهم الشخصيات الجديدة التى وصلت . ولما كان هنرى كونت شامبين يمت بصلة القرابة لكل من ملك إنجلترا وفرنسا ، لذلك تم تكليفه بالعمل على تسوية الخلافات التى أحضرها معها من أوربا القوات الإنجليزية والفرنسية، والتى تم التعبير عنها بوضوح ، بأنه من الضرورى تعيين قيادة ثنائية، فى المعسكر الصليبى . وتولى هنرى من شامبين القيادة العليا بمجرد وصوله . ثم وصل دوق سوابيا the duke of Swabia ، ومعه بقايا الجيش الألمانى فى السابع من أكتوبر ١١٩٠م ، وبعد ذلك بعدة أيام وصل بلدوين رئيس أساقفه كانتربرى . وفى الثانى عشر من نوفمبر ١١٩٠ م نجح الفرنجة فى طرد صلاح الدين من معسكره على قمة التل ، غير أنه كان مجرد تقهقر إلى موضع أقوى ليس بعيداً .

وفى غضون ذلك كان كونراد من مونتفرات قد أوقف فجأة تأييده للملك جاى . وفى الخريف ماتت الملكة سبيلا Sibylla وابنتيها . ولما كان جاى يحكم بصفته زوجا لسبيلا ، لذلك طالب كونراد بالتاج لنفسه. ولم ينجب كل من جاى وسبيلا ، ولذلك ظهرت مطالبه أخرى بحق إرث العرش ، وهى إحدى أقارب سبيلا ، وهى الابنة الصغرى للملك عمورى الأول ، وهى زوجة همفرى الرابع حاكم تبنين Humphrey IV Toron . وأدلى كونراد بمعلومات بأن الابنة الصغرى لعمورى ، كانت قد تزوجت ، قبل بلوغ سن الرشد . وبمهارة فائقة ، قام كونراد بربط هذه الحجة القانونية ، بالخصومة السياسية ، للبارونات تجاه همفرى Humphrey ، والتى كانت لها جذورها ، عند خضوع الأخير المفاجئ لجاى سنة ١١٩٦ م . وفى مهزلة قضائية ، تم فسخ زواج همفرى من سبيلا ، ثم تم زفافها إلى كونراد (فى ٢٤ نوفمبر ١١٩٠م) على الرغم من أنه كان فى الحقيقة متزوجاً بالفعل . وكان رئيس أساقفة كانتربرى قد عارض الزواج ، ومات من الحزن

عندما تم هذا الزواج. وترددت الإدارة البابوية ، غير أنها فى آخر الأمر ، حملت نفسها على قبول هذا النظام الخاص بالزواج من إمرأتين فى وقت واحد . وفى ذلك الشتاء (١١٩٠ - ١١٩١م) . عانى المحاصرون بشدة ، من النقص فى الطعام ، حيث وجهوا اللوم ، إلى ماركيز مونتفرا ، الذى كان قد ذهب إلى صور . وبلغ ثمن البيضة فلساً من الذهب ، وثمن جوال القمح مائة قطعة من الذهب . وتشاجر الرجال مع بعضهم البعض أمام المخابز من أجل رغيف الخبز . ولم ينصلح الموقف حتى جاء فصل الربيع . ثم وصلت إلى عكا سفن المؤن والإمدادات، وكذلك سفن الجنود الذين طال انتظارهم : ففى العشرين من أبريل ١١٩١ م ، رسا فى عكا فيليب الثانى أغسطس ملك فرنسا ، وتبعه ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا بسبعة أيام .

إن الحملة الصليبية الإنجليزية - الفرنسية كانت قد تأخرت بسبب حرب جديدة بين المملكتين (١١٨٨-١١٩٠م) . ومما زاد من الأمور سوءاً أن ريتشارد قلب الأسد ثار ضد والده للمرة الثانية . وقام الشعراء ، وكذلك البابا بنقد هذه الحالة صراحة ، ولكن دون جدوى . وكان بطرس من بلوا أكثر الكتاب نشاطاً فى تشجيع الحملة الصليبية ، وهو مؤلف المقالة المطولة " عن التعجيل بالحملة الصليبية " On the Speeding - up of the Crusade. وفى غضون ذلك كتب بطرس من بلوا Peter of Blois عن (أرناط) رينالد من شاتيو Reynald of Chatillon المتهور ممجداً إياه ، ومنزلاً سيلا منهمراً من اللعنات والسباب المرضية على رأس صلاح الدين . على أن الطريقة الفاترة التى اتبعها رالف نيجر Ralf Niger الإنجليزى ، والذى لفت الأنظار بهدوء ، إلى كل المشكلات التى اعترضت الحملة الصليبية التى تم إعدادها ، استطاعت أن تحدث تقدم طفيف ضد هذا النوع من الشعور . (٥٥)

ولم يتحقق السلام إلاّ بصعوبة شديدة. فبعد ذلك بوقت قصير مات هنرى الثانى فى يوليو ١١٨٩ م . فخلفه ابنه ريتشارد كملك (١١٨٩-١١٩٠م) ، وكمشارك فى حملة صليبية . وكان ريتشارد فى الثانية والثلاثين ، أشقر ، وطويل القامة ، وقوى البنية ، محارب فذ ، وقائد مقتدر ، وشخصية فروسية جليلة ، بيد أنه كان رجلاً فى حاله عدم استقرار نفسى ملحوظ ، إذ كان يتغير بين المبالغة فى الكرم ، والقسوة ، والندم المذل .

وعلى عكسه كان ملك فرنسا فى الخامسة والعشرين ، ولم يكن شخصية مسيطرة. وكان ملك فرنسا (فيليب أغسطس) يمتلك ذكاءاً محدوداً ، غير أنه كان مصاباً بالوسواس ، وغالباً ما كان يعانى بشدة من الخوف من الموت . وكان فيليب أقل اهتماما بالفن أو التعليم ، إذا ما قورن بريتشارد ، بيد أنه كان رجل دولة ، يمتلك الصبر ، بالإضافة إلى النشاط ، والذى تمكن تدريجياً من بناء قوة التاج الفرنسى بحذر ولكن بنجاح . وكان فيليب أقل ثراء من ريتشارد ، بيد أنه كان أكثر ذكاءاً . وكان ريتشارد قد ورث عن والده خزانة عامرة مملوءة بالأموال، وتمكن من جمع أموال كثيرة للحملة الصليبية عن طريق بيع الوظائف الملكية . فطول فترة حكمه التى امتدت عشر سنوات لم ير فيها إنجليزا سوى عشرة أشهر ، وكانت مملكته من وجهة نظره ، مجرد مصرف يستطيع أن يسحب منه الأموال التى احتاج إليها ، إشباع رغبته الملحة فى الحرب .

وأخيرا ، غادر الملكان فيزيلاى Vezelay ، وهو المكان المحدد للتجمع ، فى الرابع من يوليو ١١٩٠م . ومع ذلك قرر الملكان الذهاب بحراً ، وسار كل واحد منهما بمفرده عند مدينة ليون Lyons. واتجه الملك فيليب إلى جنوه Genoa وطبقاً لشروط الاتفاق مع أهالى جنوه ، تم نقل (٦٥٠) ستمائه وخمسون فارسا، و (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة من أتباع الفرسان ، ومعهم خيولهم ، والمؤن والعلف ، لمدة ثمانية أشهر ، والنبيذ لمدة أربعة أشهر. واستلم الجنويون مبلغ ٥,٨٥٠ من الماركات الفضية (المارك عملة أوربية قديمة من الفضة وزنه ثمانى أوقيات .) ، فى مقابل ذلك . وسار ريتشارد فى نهر الرون Rhone حتى مرسيليا ، حيث انتظر الأسطول الإنجليزى المكون من حوالى مائة سفينة للمؤن، وعشرين للمقاتلين. والتقى الأسطولان فى ميسينا Messina ، فى سبتمبر ١١٩٠ م ، حيث استمتعا بقضاء فصل الشتاء هناك . وكان هناك عداء بين ريتشارد وحاكم صقلية ، تنكرد من ليس Tancred of Lecce ، بسبب الحقوق الوراثية لإخته جوانا Joanna ، أرملة الملك السابق . ومع ذلك فقد وجد ريتشارد وقتاً ، لمقابلة جوكيم من فوار Joachim of Foire ، الأب الكالبريننى لدير كورازو the Calabrian abbot of Corazzo ، الذى كان مشهوراً بأنه معلم ملهم ، والذى كان قد تنبأ بانتصار ريتشارد فى الشرق . (٥٦) وعمل السلوك المتغطرس للإنجليز على تزايد الكراهية

الدفينة عند الصقليين ضد الأجانب . وتبعا لذلك كان ريتشارد مضطراً للاستيلاء على ميناء ميسينا ، فى هجوم عسكرى خاطف استغرق خمس ساعات فقط . وذكر الشاعر أمبروز Ambroise الأنجلو – نورمانى ، صاحب كتاب " تاريخ الحرب المقدسة " " Estoire de la Guerre Sainte " ، وهذا الكتاب مذكرة خالدة لكل من الأعمال البطولية لريتشارد ، وآلام الصليبيين الفقراء ، وفيه ورد أن ريتشارد استولى على ميسينا خلال فترة زمنية تقل عما يستغرقها كاهن يؤدى قداس صلاة الصبح فى كنيسة إنجليزية in Less time than it takes a priest to sing matins وكان كل من فيليب وريتشارد قد اتفقا على تقسيم الغنيمة بينهما ، ونجم عن ذلك بداية كثير من خلافاتهم. وفى يوم ٣٠ مارس ١١٩١م ، أبحر الملك فيليب الغاضب من ميناء مسينا بمفرده. وتبعه ريتشارد فى العاشر من أبريل ١١٩١م. وفى الطريق ، انتزع ريتشارد جزيرة صقلية (فى مايو ١١٩١م) ، من الإمبراطور إسحاق كومنينن ، بعد أن شن ريتشارد هجوماً جريئاً عليها. وفى قبرص قابل ريتشارد جاى Guy ، وباعتبار ريتشارد السيد الإقطاعى لأسرة لوزجنان فى بواتو ، لذلك إنحاز ريتشارد إلى جانب جاى على الفور ، أما كونراد من مونتفرات Conrad of Montferrat ، فقد حصل على مساعدة من فيليب أوغسطس ودوق النمسا ، الذى كان قائداً للصليبيين الألمان فى ذلك الحين . وعمل هذا الانشقاق على زيادة حدة العداء الإنجليزى – الفرنسى ، ووجد الألمان أيضاً أنه من الصعب الاتفاق والانسجام مع الفرنسيين والعكس بالعكس .

وبرغم تلك المشكلات ، فقد ازدادت حدة الحصار حول عكا ، بعد وصول ريتشارد فى الثامن من يونيو ١١٩١م ، كما كانت المنجنيقات الفرنسية مفيدة بكل وضوح . ولم تتمكن هجمات صلاح الدين على معسكر الصليبيين من تحقيق أى نتيجة ، وفى الثامن عشر من يوليو ١١٩١م – وبرغم اعتراضات صلاح الدين – استسلمت الحامية اليائسة . وفرض الصليبيون شروطاً مقابل إطلاق سراح الحامية التى كانت فى عكا ، وأهم تلك الشروط : إطلاق سراح ألف وخمسمائة من الأسرى الصليبيين ، وأن يدفع صلاح الدين فدية مقدارها مائتى ألف بيزنط (Bezant) (وهى عملة ذهبية بيزنطية قديمة). وأخيراً ، وبعد عامين من الحصار، رفرف علما فرنسا وإنجلترا على عكا . وكانت الخسائر فى

القتلى والجرحى والأسرى فادحة . وذكرت قائمة شبه رسمية بعض القتلى ، مــن بينهــم الملكة سيبيلا Sibylla ، والبطريرك هرقل ، وخمسة رؤساء أساقفة ، وســـتة أســاقفة ، وأربعة من كبار رؤساء الأديرة ، ورئيس دير ، ورئيس شمامسة، وإثنين من الدوقــات ، ونبيل ألمانى ، وعشرة كونتات ، وثلاثة فيكونتات (الفيكونت دون الكونت وفوق البارون). ولم يتم حصر القتلى والجرحى والأسرى بين الفرســان والمشاة . وكانت قائمة القتلى من المسلمين أطول إلى حد بعــيد ، عندما قتل ريتشارد عمداً ثلاثـــة آلاف مــن الأســرى المسلمين ، فى نوبة غضب ، لتعذر سداد القسط الأول من الفدية التى ربما كانت تفـــوق الموارد المالية لصلاح الدين .

وتم حسم مسألة الملكية عن طريق التسوية . وتم تثبيت جاى Guy ملكاً ، وتعييـــن كونراد من مونتفرات Conrad of Montferrad وريثاً للعرش. غير أنه حتى ذلك الحين كان ريتشـــارد الحاكم الحقيقى للصليبيين فى الشرق Outremer، وبخاصة بعـــد نهايــة يوليو ١١٩١م، عندما عاد فيليب إلى بلاده. فقد كان فيليب مريضاً فى أغلب الأحـــوال ، وكان قلقاً بخصوص المسألة الداخلية المتعلقة بميراث كونت الفلاندر . وأنه قد تتاح لـــه فرصة اجتياح إقليم نورماندى ، إذا ظل ريتشارد بعيداً . وكان رحيله محسوباً جيداً مـــن وجهة النظر الفرنســية ، غير أن كتاب الحوليات الإنجليز اتهموه بالجبن والحنـــث فـــى القسم . وظل جيش فيليب باقياً فى الأرض المقدسة ، وكان تحت قيادة دوق بورجونـــدى فى ذلك الحين، غير أن الأخير كان فى حاجة إلى المال لكى يدفع نفقات القوات وتم ذلك عن طريق الاقتراض من الإنجليز .

وقاد ريتشارد حملة عسكرية ضد صلاح الدين لمدة عام كـــامل ، وكـــانت ســـمعة صلاح الدين قد عانت إلى حد كبير نتيجة لسقوط عكا . وأظهر جيشه العلامات المنـــذرة بالتفسخ والانهيار ، باستثناء القوات التى من مصر ، ومن الموصل فهـــى التـــى ظلـــت موضع ثقة كاملة . بل إن أقاربه ، بزعامة تقى الدين ابـــن أختـــه ، دبـــروا تمـــردات ، وشاركوا فى منازعات ، منعته من تخصيص كل نشاطه للحرب . وكان هـــدف صـــلاح الدين الأساسى الاحتفاظ ببيت المقدس ، ولهذا ركز على تهديد خطوط إمداد الصليبيـــن ، فى داخل البلاد. والواقع أن هذا التكتيك الحربى ، منع ريتشارد من القيام بأى محـــاولات

جدية ، للاستيلاء على بيت المقدس . غير أن ريتشارد كان متفوقاً على صلاح الدين كقائد ، ولم يكن من الممكن استدراجه للوقوع فى كمين. وفى ٢٢ أغسطس ١١٩١م، سار ريتشارد جنوباً من عكا ، لأنه إذا أراد بيت المقدس، كان عليه أولاً أن يكون قادراً على استخدام يافا ، أقرب الموانى لبيت المقدس ، كقاعدة . وكان التحرك نموذجاً يحتذى للتكتيكات الحربية الصليبية. إذ كان البحر والأسطول يحمى الجناح الأيمن للجيش ، كما أن سرعة تقدم الجيش ، توقفت على سرعة السفن . وكانت السرايا الثلاث للفرسان فى قلب الجيش ، وقامت تشكيلات المشاة المتراصة على نحو متلاصق بإحكام ، بحماية جناحهم الأيسر . ولكى يتم منع الإجهاد المفروض على هؤلاء المشاة ، فإنهم كانوا يتناوبون مع جماعات المشاة الآخرين ، الذين كانوا يتقدمون يميناً، بحذاء ساحل البحر ، فى الأماكن الأخرى . وفى السابع من سبتمبر ١١٩١م ، حاول صلاح الدين القضاء على الجيش الصليبى فى أرسوف ، شمال يافا فى معركة واحدة فاصلة . بيد أن ريتشارد التزم بقوة ، بنظام المعركة ، ثم جعل الرماة بالسهام الإنجليز الشجعان رجال صلاح الدين فى وضع حرج ، اضطروا معه للدفاع عن أنفسهم ، إلى أن بدأت تظهر على رجال صلاح الدين علامات الإنهاك . وعندئذ انقض الفرسان الإنجليز المحتشدون . ولم يتمكن المسلمون من إبداء أى مقاومة . وكانت الخسائر فى كلا الطرفين قليلة ، بيد أن اللاتين أحرزوا نصراً معنوياً ، فى أول معركة كبيرة منذ معركة حطين. وبذلك تم القضاء على أسطورة تفوق صلاح الدين .

وبعد استيلاء ريتشارد على يافا ، منح الجيش فترة من الراحة . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، فاوض ريتشارد بدون توقف تقريباً عاملاً على إنهاء القتال. وكان العادل أخو صلاح الدين ينوب عنه فى التفاوض مع الفرنجة ، وكان دبلوماسياً قديراً على نحو رائع ، وهو الذى أرهق الفرنجة بطريقته المتأنية . وعلاوة على ذلك ، قسّم العادل الفرنجة ، إلى معسكرين ، عن طريق التفاوض مع كل من ريشارد ، وكونراد من مونتفرات، فى وقت واحد . على أن القضية كلها تمت معالجتها بطريقة كيسة للغاية ، حيث كشفت عن وعى سياسى ، انتقل بعيداً جداً عن الروح الصليبية الدينية . بل أنه فى إحدى مراحل المفاوضات ، جرى بحث زواج أخو صلاح الدين من ابنة ريتشارد، وهو مشروع غير

مفهوم . وبالطبع كانت مشكلة الإبقاء على الإمارات الصليبية ، مشكلة سياسية ، برغم الحماس الدينى الذى كان ، لا ريب، موجوداً ، بين صفوف الجيش ، ولا يمكن حل تلك المشكلة سوى بالوسائل السياسية . بل إن ريتشارد ، وهو الرجل المتهور ، أدرك ذلك ، فالروح الصليبية لم تستمر لفترة طويلة ، مثلما يحدث للحماسة الثورية . غير أنه ليس ثمة مجال للنواح على تدهور فكرة نبيلة ، عندما يكون واضحاً تماما ، أن هناك حاجة ماسة للعمل النشط .

وتم الاستعداد لتحرك الجيش صوب بيت المقدس ، غير أنه فى السنة الجديدة (١١٩٢م)، حدث توقف مفاجئ عند بيت نوبا Bait Nuba، على بعد ١٢ ميلاً من بيت المقدس لأن بيت نوبا لم تكن محصنة على نحو كافٍ. وانتقد الرأى العام فى الجيش هذا القرار غير أنه بالنسبة لتحركات صلاح الدين العسكرية كان هذا القرار صائبا . ثم عاد الفرنسيون إلى عكا فى حين ظل ريتشارد مشغولاً فى إعادة بناء عسقلان .

وفى أبريل ١١٩٢م ، وردت الأنباء أن حنا لاكلاند John Lackland ، أخو ريتشارد قد أجرى مفاوضات مع ملك فرنسا منطوية على الخيانة . ولم يكن الموقف يشكل خطورة فورية ، ولكن ريتشارد ، أدرك أنه لم يعد فى إمكانه البقاء فى الشرق Outremer إلى مالا نهاية. على أن اتفاق التسوية الذى جرى بين جاى وكونراد لم يقدّر له البقاء طويلاً. ورداً على إلحاح البارونات تخلى ريتشارد عن جاى وسمح لكونراد من مونتفرات النشيط بأن يتم اختياره ملكاً وفقاً لقانون الوراثة ، الذى كان فى ذلك الحين أفضل ادعاء لحق الإرث . وقام ريتشارد بتعويض جاى عن هذه الخسارة بجعله حاكما على قبرص ، على الرغم من أنه كان قد باعها ، من قبل ، إلى فرسان الهيكل (الداوية) the Templars ، وكان على جاى أن يشترى كل ما دفعوه . غير أن كونراد لم يقدر له أن يضع تاج الملك على رأسه. ووفقاً لما ذكره إيرنول Ernoul ، مؤرخ الحوليات ، أنه فى مساء ٢٨ أبريل ١١٩٢ م ، ذهب كونراد ، لتناول طعام العشاء ، مع أسقف بوفيه Beauvais ، لأن طعام العشاء فى منزله لم يكن جاهزاً نتيجة لقضاء زوجته إيزابيلا Isabella ، وقتا طويلاً فى الحمام . ولسوء حظ كونراد كان الأسقف ، قد انتهى بالفعل من تناول طعام عشائه ، ولذلك عاد كونراد، سيراً على الأقدام ، على مهل ، إلى القصر

فى صور . وعندما انعطف حول ملتقى شارعين اغتاله اثنان من الحشاشين Assassins . وكان ذلك آخر شيء بالنسبة " لرجل الجبال المسن "، والذى مات على الفور بعد ذلك . واتهم الرأى العام ريتشارد ، بتدبير مؤامرة اغتيال كونراد ، ومن أجل إظهار براءة ملكهم الإنجليزى ، قام كتاب الحوليات بتزوير رسالة " مكتوبة " بمعرفة شيخ الحشاشين ، مرسلة إلى دوق ليوبولد الخامس حاكم النمسا Duke Leopold V of Austria ، الذى كان موجوداً فى ألمانيا ، فى ذلك الحين ، وأدرجوا تلك الرسالة فى حولياتهم . والواقع أنه ليس هناك وسيلة لمعرفة من المسئول . وبعد مرور عدة أيام تزوجت أرملة كونراد من الكونت هنرى من شامبين Count Henry of Champagne ، الذى نادى به شعب صور ملكاً ووافق هنرى على مضض إلى حد ما ، بناءً على نصيحة ريتشارد على أن يتولى أمور المملكة ، غير أنه لم يطالب أبداً باللقب الملكى ، ربما لأنه لم يتم تتويجه .

وفى صيف ١١٩٢م. تقدم الصليبيون صوب بيت المقدس للمرة الثانية ، ثم توقفوا مؤقتا عند بيت نوبا للمرة الثانية . وأثناء انسحاب الجيش الصليبى إلى عكا ، استولى صلاح الدين على يافا. وبمجرد سماع ريتشارد بذلك ، جمع عدداً من الفرسان ، وأبحر معهم إلى يافا . وهناك قام بتنفيذ أحد أعماله البطولية الأكثر شهرة ، عندما خاض خلال المياة الضحلة إلى شاطئ يافا ، وهو غير مرتدى درعه بالكامل ، وتمكن على وجه السرعة من إنتزاع يافا من المسلمين. وفى الخامس من أغسطس ١١٩٢م ، شن صلاح الدين هجوماً ، ولكن ريتشارد ، بدد شمل المهاجمين . ثم وقع الخصمان على هدنة لمدة ثلاث سنوات ، فى الثانى من سبتمبر ١١٩٢ م ، بعد أن سلمّا بأنه ليس فى مقدرة أى طرف منهما إلحاق هزيمة نكراء بالطرف الآخر. وكان على الصليبيين بأن يسلموا بأنه لم يعد فى مقدرتهم استرداد بيت المقدس . وبناءً على شروط الهدنة فقد تقرر أن يظل الساحل ما بين صور إلى يافا فى أيدى الصليبين. كما كانت عسقلان من نصيب صلاح الدين ، وهى التى ظلت سبب الخلاف الرئيسى ، أثناء المفاوضات ، وذلك بعد أن تتم تدمير كل تحصيناتها ، بالإضافة إلى التحصينات ، التى كانت فى كل من غزة ، ودير البلح Darum ، تدميراً كاملاً . وبقيت بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، غير أنهم وافقوا على حق الحجاج النصارى فى زيارتها . ولم يضق صدر ريتشارد نفسه من

انتهاز هذا الحق الممنوح . وفى أكتوبر ١١٩٢م ، شملت الهدنة كلاً من إمارتى طرابلس، وأنطاكيه ، على الرغم من أنهما كانتا على الحياد طوال الحرب .

وفى التاسع من أكتوبر ١١٩٢م ، غادر ريتشارد الأرض المقدسة . وأجبره غـــرق السفينة ، على السفر عبر حدود النمسا ، وكان عليه أن يذهب متنكراً ، لأنه جعـــل دوق النمسا عدواً له ، عندما أنزل بالقوة ، علم ببنبرج Babenberg ، عند عكا. ولا ريـــب أن هذا عمل غير قابل للتحكيم ، إذا ما تم التفكير فيه. فعندما رفع ليوبولد Leopold رايته ، كان يقوم بترسيخ دعامة حقه في الغنائم، ومن ثم معرضاً الاحتكار الذى تم الاتفاق عليـــه بين كل من ريتشارد ملك إنجلترا ، وفيليب ملك فرنسا . غير أن ريتشارد تـــم التعـــرف عليه ، فى فينا Vienna ، وأمر الدوق بسجن ريتشارد فى قلعة درنشـــتاين Durnstein . وفيما بعد تم تسليم ريتشارد للإمبراطور هنرى الرابع ، الذى أطلق سراحه فـــى نهايـــة الأمر فى ١١٩٤ م ، بعد أن دفع ريتشارد (فدية ضخمة ، بلغت مائة وخمسون ألف مارك من الفضة ، ووافق على جعل إنجلترا إقطاعة للإمبراطور. وفى ١١٩٩م، مات ريتشارد، وهو لا يزال فى حالة خصام مع فيليب أغسطس ملك فرنســـا. وكان صلاح الديـــن قـــد مات قبله فى مارس ١١٩٣م ، عن عمر يناهـــر الخامسة والخمسين . وبمـــوت صـــلاح الدين ، اختفت إحدى الشخصيات الكبرى فى العـــالم الإسلامى فى العصور الوســـطى ، فهو رجل بنى نجاحه ، على نحو كامل تقريبا ، على القوة المعنوية لمبادئه . وكما كـــان يحدث فى العـــالم الإسلامى دائما ، بدأت إمبراطورية صلاح الدين فى التفســـخ بمجـــرد وفاته . وأطال هذا التطور مدة الهدنة على نحو فعّال، وأعطى الإمارات الصليبية نصبف قرن من السلام ، قبل أن يشن الأيوبيون هجوماً حاســـماً . وانتهـــت عظمـــة الحمـــلات الصليبية . إذ كانت محصلتها متواضعة ؛ لأن معظم فلسطين ظل فى أيدى المســـلمين . وفى الحقيقة أكد تعاون القوات الصليبية فى الشرق Outremer مع الغرب ، على وجـــود الإمارات الصليبية ، لمدة مائة سنة أخرى ، بيد أن الغرب لم يعد مستعداً أبـــداً ، لتقديـــم مساعدة على مستوى هذا النطاق .

وعلى الرغم مما سبق ذكره ، فقد تم الإعداد إلى حملة صليبية جديدة ، فـــى مـــدى قصير من الوقت . إن هنرى السادس (١١٩٠- ١١٩٧م) ، الإمبراطور الجديد ، كـــانت

لديه مشروعات طموحة ، ومن بينها — حملة صليبية لعبت فيها الاعتبارات السياسية دوراً كبيراً .(٥٧) ونتجية لزواج هنرى السادس من كونستانس Constance ، وكذلك لحقيقة أن وليم الثانى مات دون عقب ، فإنه أصبح وريثاً لصقلية وجنوب إيطاليا على نحو مفاجئ، على الرغم من أنه كان عليه انتزاع ميراثه قبل قدوم عام (١١٩٤م) . وقد كان هنرى السادس وريثاً للأراضى النورمانية ، وكذلك سياساتهم، وخططهم التقليدية الرامية إلى التوسع فى شرق البحر المتوسط . وفى ١١٩٤م ، نجح ليو الثانى Leo II ، أمير أرمينيا الصغرى ، والذى شهدت أرمينيا القليقية ، أزهى أيامها تحت حكمه ، نجح فى الحصول على إقطاعه من الإمبراطور. وكان ليو الثانى وأجداده من قبله قد أقاموا إمارة مسيحية قوية ، وشيدوها على السهل القيليقى ، وتمت حمايتها اقتصادياً ، وسياسياً ، بفضل القلاع القوى التى أقيمت على أعلى الجبال القيليقية .

غير أن هنرى السادس وجه اهتمامه إلى بيزنطة بصفة أساسية . وفى ١١٩٤م تمت خطبة فيليب إلى إيرين Irene ، إبنه إسحق أنجيلوس ، الإمبراطور البيزنطى . وفى ١١٩٧ م ، تم الزواج . وقدر له نتائج مهمة جداً فى تاريخ الحروب الصليبية . وفى غضون ذلك ، أعطى التحالف هنرى ، حق عائلى فى التاج البيزنطى ، وعندما فقد إسحق أنجيلوس عرشه إلى أخيه الأضعف إليكسيوس الثالث (١١٩٥-١٢٠٣ م) مكنه ذلك من إخفاء ضغطه السياسى على بيزنطة فى مظهر حق الإرث . وأعلن هنرى السادس مشاركته فى حملة صليبية فى ١١٩٥ م ، لكى يتوصل إلى تسوية مع البابا إلى حد ما . ووعد بتجهيز ألف وخمسائة فارس، وألف وخمسمائة من أتباع الفرسان ، الذى يحملون دروعهم ، والإنفاق عليهم ، على نفقته الخاصة ، بخلاف الجيش الصليبى العادى . وفى الأعوام التالية تمت الدعوة للحملة الصليبية فى ألمانيا ، ولكن لم يحدث شئ فى ذلك الحين . وهذا سبب إخفاق خطة الإمبراطور لجعل ألمانيا وصقليه دولة ملكية وراثية للمعارضة من قبل أمراء شمال ألمانيا ومن الإدارة البابوية ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنه على الرغم من الاختلافات المذهبية ، أعلنت روما بحزم عن دعمها وتأييدها لبيزنطة ، وضغطت من أجل حملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، وليس ضد بيزنطة . وإذا ما اتحدت الإمبراطورية فى الغرب مع الإمبراطورية فى الشرق ، فإن على البابوية أن تواجه

إمكانية فقدان السلطة السياسية تماما . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن اليونانيين اشتروا لأنفسهم فـــترة راحة ، وذلك بدفعهم إتاوة ثقيلة ، وليس لها مثيل من قبل إلى الإمبراطور الرومـــانى – وقدرهـــا ستة عشر وزنا من الذهب فى السنة – وهى المعروفة باسم ألمانيكون Alamanikon .

وكان على هنرى السادس أن يتخلى عن قيادته للحملة الصليبية بنفسه . وبدلاً من ذلك عين هنرى من كالدين Henry of Kalden ، المارشـــال الإمبراطورى ، وكونراد من كيوفـــورت ، المستشار الإمبراطورى ، وأسقف هيلدشيم ، ليكونوا قادة لتلك الحملة . ومن مـــارس ١١٩٧ م ، فصاعداً ، ركبت القوات الألمانية متن السفن فى جنوب إيطاليا . وغادرت الفرقة الرئيسية ميـنـــاء ميسينا Messina ، فى بداية سبتمبر ١١٩٧ م . وتوقفوا فى قبرص ، وهم فى رحلتهم البحريـــة إلى عكا ، وفى قبرص قام المستشار الألمانى ، بوضع التاج ، على رأس أملرك مـــن لوزجنـــان Amalric of Lusignan ، أخو جاى ، ووريثه كملك ـــ ومن ثم وضع سيادة الإمبراطوريـــة ، على الجزيرة موضع التنفيذ . وفى الأرض المقدسة ، حقق الألمان نجاحاً دائمـــاً أيضـــاً . فقـــد استطاعوا استرداد الأرض التى تربط مملكة بيت المقدس ، بإمارة طرابلس ، وذلك عن طريـــق الاستيلاء على صيدا وبيروت (فى ٢٤ أكتوبر ١١٩٧ م) ، بقيادة دوق برابنت Brabant .

على أن موت هنرى السادس المفاجئ ، وغير المتوقع ، فى ميســينا ، فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١١٩٧ م ، أقحم الإمبراطورية ، فى واحدة من أسوأ أزماتها . إذ لم يكن لدى هـــنرى وقتاً من أجـــل تقوية إنجازاته الكبرى وتعزيزهـــا . كما أن قوته ارتكزت تمامـــاً علـــى ســـلطته الشخصية كإمبراطور ، وأن ابنه الوحيد كان مجرد طفل . وفى تلك الظروف تبدد شمل الحملـــة الصليبية الألمانية على الفور . واستطاع ليو الثانى حاكم أرمينيا الصغرى ، الحصول على فـــائدة أكثر من ذلك الوضع ، ففى يناير ١١٩٨ م، تسلم التاج الملكى الذى كان يتمناه ، منذ وقت طويل من يدى رئيس أساقفة ماينتس Mainz . بيد أن اتحاد الكنيســـة الأرمينية مع روما ، الـــذى كان جزءاً من الثمن الذى يجب دفعه للحصول على لقب ملك ، لم يكن أبـــداً أكـــثر مـــن مجرد موضوع شكلى .

فهرس

((**انظر الجزء الثانى**))



مطابع دار الأمين

١٣ شارع البركة الناصرية
(من شارع نوبار) لاظوغلي
القـــاهرة - ت ٣٥٥٤٣٧٦

تاريخ الحروب الصليبية ؟..

هذا كتاب ثرى فى مادته ، زاخر بمعلوماته ، أصيل فى تأريخه ..

يجد فيه المتخصص بُغيته ، والباحث مطلبه ، والمثقف مأربه ..

وإن كان ثمة نقص اعتراه فهو أنه قد توقّف عند الحملة الصليبية الثالثة فقط (١١٨٧- ١١٩٢م) من تلك الحملات - أو الحروب - التى كان مبعثها الحق الدفين ، ومحركها التعصب الأعمى ، وجنودها أُناس ساروا تحت ستار الدين ، وباسم الصليب ، وقاتلوا - ظلمًا وعدوانًا - بعدما خُدعوا بصكوك الغفران الزائفة التى أغدقها عليهم البابا دونما حساب !

تُرى .. ما الذى دفع أوربا إلى شن تلك الحروب الشرسة على الشرق الإسلامى؟ ما الأسباب ؟ ما النتائج؟.. وما هى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية أيضًا تلك التى سادت إبّان هذه الحروب التى أحدثت دويًا هائلاً فى القرون الوسطى ، وبلغ صداها العالم كله من أقصاه إلى أدناه ؟ ..

كتابنا هذا يجيب عن كل ذلك من خلال عرض مستفيض للحملات الثلاث الأولى ، فى أسلوب مطنب لا يمل منه القارئ ، وتحتاج إليه المكتبة العربية .

سلسلة الألف كتاب الثانى ١٢٩

تاريخ الحملات الصليبية ■ الجزء الأول ■ د. محمد فتحى الشاعر ■ دار الأ...